الشيخ محمد الخضري بك

دروس في التاريخ الإسلامي

من البعثة الشريفة حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري

عرّف بالمؤلف أديب العربية

مصطفى صادق الرافعي

صححه وضبطه

محمود البيروتي

دار البيروتي

دار البيروتي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مصححه وفيها زيادات في الهوامش

دمشق ـ حلبوني ـ بناء الخجا ـ هاتف : 2213966 ـ 2451574 فاكس : 2243848

ص.ب : 25414 س.ت : 61500 Email : albyrouty@dalylak.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب دروس في التاريخ الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك الذي يعدُّ ملخصاً لسلسلته التاريخية التي أثرى بها مكتبة التاريخ الإسلامي، فكان رائد المعاصرين في صياغة التاريخ الإسلامي بأسلوبه الواضح وتحليله الواقعي والموضوعي للأحداث التاريخية، وهنا تظهر أهمية هذا الملخص لكونه يمثل عصارة كتبه التالية:

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.
- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء.
- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولتين الأموية والعباسية).

وزاد على تلك الكتب بأن أوجز أحداث التاريخ الإسلامي من نهاية الدولة العباسية إلى عصره.

الكتاب مقسم إلى وحدات درسية بلغت سبعة وأربعين درساً.

افتتح الدروس الأولى بالكلام على جزيرة العرب وأصل أهلها ومدنيتهم وأحوالهم الاجتماعية قبل الإسلام، ثم تناول السيرة النبوية، ثم الخلافة الراشدة، ثم تكلم عن الدولة الأموية والعباسية إلى سقوطها، ثم عاد وتكلم عن الدول والإمارات التي ظهرت زمن

العباسيين كدولة بني بويه والدولة السلجوقية والطولونية، ثم تكلم عن دولة المماليك من نشأتها حتى نهايتها، وفي الدروس الأخيرة تكلم عن تاريخ مصر منذ حكم العثمانيين لها إلى زمن الخديوي عباس حلمي الثاني.

وقد كان في نهاية حديثه عن كل دولة من الدول يقف قليلاً كي يعطينا إضاءات شاملة عن تلك الدولة وما وقع فيها من أحداث وبالتالي فإنه يتحدث عن مظاهر الحضارة التي ظهرت فيها وأسباب قيامها ثم نهايتها.

والكتاب بمجموعه يصلح أن يكون بين يدي ناشئتنا وفتياننا ليأخذوا صورة مجملة عن تاريخهم، فيصلوا الحاضر بالماضي، ويعتبروا بدروس التاريخ وأحداثه.

من هنا توجه عزمي على إخراج هذا الكتاب بحلة مشوقة.

وكان عملي فيه على النحو التالي:

أولاً قمت بضبط النص وشكل ما تمس الحاجة إلى شكله من الكلمات مع مراعاة علامات الترقيم.

كما شرحت بعض الكلمات الغريبة وعرّفت بعض الأماكن والبقاع والأعلام.

وخرّجت الآيات والأحاديث، بالإضافة إلى بعض التعليقات التاريخية التي رأيت أهميتها، مع الالتزام بالإيجاز كي لا نخرج عن قصد المؤلف في كتابه.

وقد اعتمدت في هذه الطبعة على طبعة الكتاب الأولى التي صدرت في حياة المؤلف وقد طبعت في مطبعة الواعظ في مصر سنة ١٣٢٧هـ.

وقد زينت الكتاب بتعريف بالمؤلف بقلم أديب العربية والمنافح عنها المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وهذا التعريف مذكور في كتابه وحي القلم (ج٣ ص٢٧٤).

ولابد لي في هذه المقدمة من أن أتوجه بالشكر إلى الدكتور بديع السيد اللحام على ما زوّد به هذا العمل من تعليقات وتحقيقات.

كما أشكر الأستاذ محمد معتز السبيني على تعليقاته المفيدة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل وجميع أعمالنا خالصة لوجهه الكريم (إنه سميع مجيب).

دمشق في ٢٠/ ذي الحجة/ ١٤١٩هـ

محمود البيروتي

الشيخ الخضري

بقلم أديب العربية مصطفى صادق الرافعي

تحوّل الكاتب إلى كتاب، ورجع المفكر إلى فكرة، وأصبح من كان يدارس الناس فإذا هو درس يذكر أو ينسى، وتناول التاريخ عالماً من علمائه فجعله نبأ من أنبائه، وكان يبنيه فوضعه في بنائه، وقيل: مات الشيخ الخضري!

آه.. لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التي أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية، وآخرها حيث تجد كلمة: (الآخرة) بلا معنى ولا محدود ولا مظنون! وآه لو استطعنا أن نتكلم عن الميت كأنه حيّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحيّ كأنه مات من زمن! إني لأكتب هذه الكلمات وكأني أنظر إلى وجه أبي رحمه الله، وأشهد ذلك السمت العجيب، وذلك الوقار الذي يغمر النفس هيبةً وجلالاً، وأستروح ذلك الحب الذي هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء، ومن المخلوق إلى الخالق، والمبتدئة من السماء إلى الأرض، ومن الخالق إلى المخلوق: طريق الأمّ، وطريق الأب، وطريق الإنسانية؛ أكتب وكأن يداً من وراء المادة تمسح على قلبي فأجد ثقلةً وفترةً وأستشعر حنيناً وشوقاً، وأحسُّ هذا القلب ينازعني إلى قوم ذهبوا بلا رجعة، وفارقوا بلا وداع، وغابوا عنا بلا خبر، دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم، وخرجوا منها ولا تخلو منهم؛ فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هي الحيرة التي يتركها الميت العزيز للحي المتفجع كيما يعرف بأمواته ما هو الموت!

كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة، وكان أبي يومئذ كبير قضاة الشرع في ذلك الإقليم، فإني لألعب ذات يوم في بهو

دارنا إذ طرق الباب، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخٍ لم يبلغ سن العمامة، ولم أميّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم، فكان حدثاً لكنه يتّسم بسمة الجد، ورأيته لا تموج به الجبّة كالعلماء، غير أنها لا تمجه كالطلبة؛ وكان في يده مجلد ضخم لو نطق لقال له: دعني لمن هو أسنُّ منك! فما قدَّرته يزنُ عشرين مجلداً من مثله، ونظر إليَّ نظرة كأني لا أزال أراها في عينه إلى الساعة، فسلمت عليه، فقال: أين الشيخ؟ ـ يعني الوالدـ قلت: خرج آنفاً، قال: فادفع إليه هذا الكتاب، وقل له: جاء به الخضري.

ثم أغلقت الباب وانتحيت جانباً وفتحت المجلد، فإذا هو جزء من التفسير الكبير للفخر الرازي، كان قد استعاره من مكتبتنا، وعرفت الشيخ من يومئذ، وكان أستاذاً للعربية في مدرسة الصنائع، يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمنشار والقدوم، فيذهب شيء في شيء، وكأنه لايعلم شيئاً؛ وقلما كنا نذكره في مدرستنا، إذ كان لنا شيخ فحل ثقة من رجال الأزهر، غير أن الخضري كان له موضع في كل مجلس، وكان يداخل قوماً من الخاصة يعنون بالمسائل الإسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء، وبإشارة من بعض هؤلاء وضع أول كتبه:

(نور اليقين في سيرة سيد المرسلين)، ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الأستاذ في أول عهده، وأنه لا يزال وراء السجعة الآتية من القرون الأخيرة لم يمضِ على وجه ولم يعرف بمذهب.

إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرخ الأديب المربي، يجب أن يرجع بتياره إلى منبعه ليعرف مبلغ انبعاثه وقوة جريته ومدّ عبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم الذي أهدته السماء إلى الأرض، وسمى

في أسمائها (محمد عبده)، لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين، ولكن دار علومه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام وشمائله وآراءه وبلاغته وهمة نفسه، إلا أنه لابد من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ منه العدد في كل عصر، وأنت فكيف تأملت الخضري فاعلم أنك بإزاء معنى من معاني الشيخ محمد عبده، على فرق ما بين النفسين، بل أنت من الخضري كأنك ترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن.

كان يحضر دروس الشيخ، ويختلف إلى ناديه، ويناقلُه بعض الرأي، ويعارض معه بعض الكتب التي كان يرجع إلى الشيخ في تصحيحها أو الإشراف على طبعها، فنفذ الشيخ إلى نفسه ووجد السبيل إلى الاستقرار فيها، فهو من بعد حريص على وقته، مجد في عمله، دائب على طريقه، آخذ بالأخلاق الفاضلة، مصلح مربٍّ غيور، وكل ذلك في سمت وهيبة، وجزالة رأي وشرف همّة، وإخلاص حقّ الإخلاص؛ وما أرى فوضى عصرنا هذا وانحطاطه وإسفافه وسخافة قولهم جديد وقديم،وجريء ورجعي، وحر وجامد ـ إلا من خلاء العصر وفراغه من النفس الكبيرة، وحاجته إلى إمام عظيم، ومتى أصبحنا نضرب في دائرة لا مركز لها، فهي المربع وهي المستطيل وهي كل شكل إلا أن تكون الدائرة؛ والذين رأوا طاغور الشاعر الهندي المتصوف حين نزل بمصر، ورأوا سحره وتحويله كل جديد مدة أيام إلى قديم، وإخراسه هذه الألسنة عن نقدِه ومعارضتِه، وعن معاندة الحق طيشاً ونزقاً وضلالاً وتجديداً، يستطيعون أن يدركوا ما أومأنا إليه، ويتبينوا السر فيما نحن فيه، ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده في عصره، بل في خلق عصره.

وانتهى الخضري إلى مدرسة القضاء الشرعي، فألف كتاباً في الأصول، اختصر فيه وهذّب وقارب، فهو كتاب في هذا العلم لا كتاب هذا العلم، وأساتذة الأصول قوم آخرون لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعي الكبير، لرأيت البحر الذي يذهب في ساحله نصف طول الأرض، وقد بعث الخضري على ذلك أن جماعة يومئذ كان منها صديقنا المرحوم حفني ناصف، والشيخ المهدي، وغيرهما، اجتمعوا على إبداع نهضة في التأليف، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب، وفرغ الخضري للأصول؛ أخبرني بذلك حفني بك رحمه الله، ثم لما اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلامة المؤرخ جورجي زيدان لدرس التاريخ الإسلامي فيها، طار الخبر في الأمة لأنهم اختاروا القنبلة.

وشعر الناس بمعنى الهدم قبل أن يتهدم شيء، فاضطرت الجامعة إلى أن تنحيَه، وعهدت في الدروس إلى الأستاذ الخضري، فألقى دروسه التي جمعها في كتابه (تاريخ الأمم الإسلامية)، وقال في مقدمة هذا الكتاب: (أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى، وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه)؛ نقول: وعلى أن الشيخ أحسن في كتابه، وجاء بمادة غزيرة من فكره ورأيه، وبسط واختصر، وباعد وقرّب، فإن كلمته هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ أو أكبر من كتابه.

وردّ في السنة الماضية على كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين، وكان ردُّه خطاباً أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة، لأنه أستاذ أستاذهم، فكأنه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذاً معهم، وأبت عليه الجامعة ما أراد، ولعلها فطنت إلى هذا الغرض، ولما علم أني شرعت في طبع ردّي على الدكتور طه، كلمني في استلحاق

مقاله وجعله ذيلاً في الكتاب، وقدّرناه يومئذ في نحو خمسين صفحة أو دونها، وقد سألته أن ينفي منه ما كان في مقادير الرصاص ويقتصر على ما هو في وزن القنابل، فقال: (كله قنابل)!.

ثم اتسع كتابي وجاوز مقداره إلى الضعف، فوسّع هو ردّه وزاد فيه وطبعه في قريب من ضعفه على حدة.

دع كتابه المشهور (مهذب الأغاني)، فهذا لا يقال إن الشيخ ألفه، بل ألفته خمس عشرة سنة، وأظن كل ذلك لا يُذكر في جنب الكتاب الذي كان يعمل فيه أخيراً، وهو كتاب (الأديب المصري) أخبرني أنه في جزأين ودعاني إلى داره لأرى (المكتبة الخضرية) ولأطلع على هذا الكتاب، فوعدته ولم يقدّر لي، وقد حدثني أنه مُعنى أشد العناية باستجماع الفروق التي يمتاز بها الأدب المصري عن الأدب الحجازي والشامي والعراقي والأندلسي، وأنه أصاب من ذلك أشياء متميزة منذ الدولة الطولونية، يحق لمصر أن تقول فيها هذا أدبي؛ وكان يكتم خبر هذا الكتاب، حتى إن صديقنا الأستاذ (حافظ بك عوض) صاحب جريدة كوكب الشرق اقترح عليه أن يكتب فصلاً في الشعراء المصريين وأدبهم يعقده لكتاب حفلة تكريم شوقي بك، ثم لقيه بعد ذلك فقال له الشيخ: إن البحث سائر على أحسن وجوهه.

كان الخضري يفرح للقائي ويهش لي، وكنت أتبين في وجهه أشعة روحه الصافية، ولعله كان يرى بي في نفسه ذلك الشيخ الذي أعطاني المجلد، كما كنت أرى به نفسي ذلك التلميذ الذي أخذ المجلد منه! على أن مرجع ذلك في الحق إلى سعة صدره، وفسحة رأيه، وبسطة ذرعه، وسمو أدبه وإنصافه، فلا يحقد ولا يحسد، ولا يتجاوز قدره، ولا ينزل بأحد عن قدره، ولا يدعي ما

لا يحسن، وقد عرف قراء المقتطف مثلاً من أخلاقه هذه أو أكثرهم حتى انتقده صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود، وتناول الجزء الأول من كتابه (مهذب الأغاني) وراح يتقلقل له كجلمود صخر.. فوسعه الشيخ وعنى به ورد عليه في المقتطف، ونعته بالأستاذ الجهبذ وانتصف منه وأنصفه معاً، ولقد اقترحت عليه مرة أن يضع كتاباً في حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته، فقال لي: (مش قَدَّهْ) يعني أن العمل أكبر منه، ولكن هذا نبهه إلى وضع كتابه في تاريخ التشريع الإسلامي.

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١، لم أهده إلى الشيخ، فاشتراه وقرأه، ثم لقيته وسألته رأيه فيه، فقال: (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقريظاً، و(كويس) تقريظاً آخر، وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غماً بهذا الكتاب وما كتب عنه، وعلى حين كلمني بعضهم مرتين في ترك هذا العمل ونفض يدي منه، لأنه ـ زعم ـ عمل شاق بلا فائدة.

وقد زرت الأستاذ الخضري في وزارة المعارف في السنة الماضية، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتني بقوة في الكرسي، كأنه لم يطمئن بعد إلى أني جلست، ثم فاض بكلام كثير، فكان فيما قاله: (أنا الآن أعيش في غير زمني!)، وكأنما كان ينعي إليَّ نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ولا أدري، وقال لي: إنه يجلس إلى مكتبه في كل يوم ست ساعات، يقرأ أو يؤلف أو ينسخ، لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم، قال: ولا يعتريه البرد ولا مرض من أمراضه لما اعتاد من رياضة صدره بهذه

التلاوة، وقال: إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن.

ولنمسك عند هذا الحد، فإن للذكرى غمزاً على القلب، وبالجملة فقد كان رحمه الله عالماً كالكتّاب، وكاتباً كالعلماء، فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين، وهو وحده منزلة بين المنزلتين، وبذلك تميّز وظهر، فإنه في إحدى الجهتين عقل جريء تمدُّه رواية واسعة في علوم مختلفة، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتى كأنه لم يمض، وهو في الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة أو الكتاب، بل لا يزال يلتمس له عقلاً يخرجه ويتصرّف به، حتى يكبر عن أن يكون قديماً بحتاً فينتظم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقاً واحداً.

لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم، ولا قديماً إلا بالجديد؛ فإننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنّة الحياة؛ وأنت لن تجد حيّاً منقطعاً مما وراءه، بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حيّ جديد إلى أصلين من القديم لا أصلٍ واحدٍ هما أبواه فمنهما يأتي ومنهما يستمد وهما أبداً فيه وإن كان على حدة. وبعد؛ فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت: إن المذهب القديم.. قد انهدّ ركن من أركانه، ونقص قنطار كتب من ميزانه، ولكن هذه السخافة في رأيي كما ترى من جماعة ائتَلَوا أن يطفئوا نجماً في السماء لأنه قديم، فاتفقوا على ذلك وأجمعوه بينهم وفرغوا من أمره، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يهيئون العربات والمضخات التي تحمل إلى السماء بضعة أبحر ليصبُّوها على النجم.

مصطفى صادق الرافعي
وحي القلم ج٣ ص٢٧٤.

التعريف بالمؤلف

هو محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري، باحث خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب، وتاريخ الإسلام، مصري، كانت إقامته في (الزيتون) من ضواحي القاهرة، وتوفي ودفن بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٧م.

تخرج بمدرسة دار العلوم، وعين قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة مدة ١٢ سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف، من كتبه:

١ ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء.

٢ ـ أصول الفقه.

٣ ـ تاريخ التشريع الإسلامي.

٤ ـ تهذيب الأغاني ـ سبعة أجزاء منه ـ

٥ ـ دروس في التاريخ الإسلامي، وهو هذا الكتاب.

٦ ـ الغزالي وتعاليمه وآراؤه.

٧ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ـ جزءان ـ

٨ ـ محاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي، للدكتور طه حسين.

٩ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

وكلها كتب مطبوعة ومتداولة.

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

تاريخ العرب

الدرس الأول

جزيرة العرب

في الغرب من قارة آسية شبهُ جزيرةٍ يسميها المؤرخون: (جزيرة العرب)، وهي محدودة:

من الغرب: بمضيق باب المندب، والبحر الأحمر، وقناة السويس.

ومن الشمال: ببلاد الشام، ووادي نهر الفرات.

ومن الشرق: بوادي الفرات، والخليج العربي.

ومن الجنوب: بالمحيط الهندي.

وهي منقسمة إلى ثمانية أقسام:

الأول: (**اليمن**) وهو في الجنوب الغربي من الجزيرة، وبه من المدن (صنعاء ـ وسبأ ـ ومأرب).

الثاني: (**حضرموت**) في الجنوب، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبه سميت السورة السادسة والأربعون من القرآن الكريم.

الثالث: (**عُمان**) وهو في الجنوب الشرقي، وقصبته[1] صُحار.

الرابع: (**البحرين**) وهو بين البَصرة وعُمان، وقصبته هَجَر.

---

(١) حاضرته.

الخامس: (**اليمامة**) وهي في الغرب من البحرين، وقاعدتها حُجر، وتسمى اليمامة جوًّا[1]، وتسمى العروض.

السادس: (**نجد**)، وهو في وسط بلاد العرب، وبه من المدن: (رياض وحائل).

السابع: (**الحجاز**) وهو في الغرب من نجد، وبه (مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف).

الثامن: (**تِهامة**) وهي في الغرب من الحجاز على الشاطىء الغربي.

بهذه الجزيرة نشأت الأمة العربية.

---

(١) الجوّ: اسم اليمامة في الجاهلية، وبقيت على هذه التسمية حتى جاء الحميري وقتل المرأة المسماة باليمامة فسُميت الجوّ باليمامة (معجم ما استعجم للبكري، ج٢ ص٤٠٧) بتصرف يسير.

أصل العرب

العرب من الأُمم الساميّة، نسبة إلى: (سام بن نوح).

ومن العرب أُمم بادت فلم يبق منهم إلاَّ الذِّكرى، ومنهم أمم بقيت وكان لها تاريخ عظيم.

العرب البائدة

فأّما العرب البائدة فأَشهرهم: عادٌ، وثمود، وطَسْم، وجديس.

فأما: (عاد) فكانت تسكن بالأحقاف، وقد قصَّ الله علينا شيئاً من تاريخهم في القرآن الكريم ليعتبر النَّاس بحالهم، لما استكبروا في الأرض بغير الحق أرسل الله إِليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله، وخلع ما هم عليه من عبادة الأوثان، فصمُّوا عن ندائه، فأَرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نَحِساتٍ، سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، حتى أبادتهم، فلم تُبق منهم باقية.

وأمَّا: (ثمود) فكانوا يسكنون بالحِجْر شمالي المدينة، أرسل الله إليهم أخاهم صالحاً، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[الأعراف: ٧٣]، فلم يمتثلوا، فأهلكهم الله بصيحةٍ صيَّرتهم كهشيم المحتظر.

وأما: (طسْم وجَديس) فكانت مساكنهم باليمامة، وكان ملكهم من طسم، وكان ظالماً عاتياً، ولما اشتد ظُلمه وبغْيه وفجوره ائتمر عليه وعلى قومه جماعة من جَديس فاغتالوهم، ولم يبق من طسم إلا رجل فرَّ واستغاث بحسان ابن تُبَّعَ ملك اليمن، فسار معهم إلى جَديس، وحاربهم حتى أبادهم، وبذلك بادت القبيلتان.

الدرس الثاني

العرب الباقية

أما العرب الباقية فيتألفون من شعبين عظيمين: بني قحطان، وبني عدنان.

العرب العاربة:

أما الشَّعب القحطاني ويُسمى بالعرب العاربة فأَبوهم (يعرب بن قحطان) الذي يُقال: إنَّه أَول من تكلَّم بالعربية، واتخذ بلاد اليمن مسكناً.

وفي عهد بني سبأ[1] ـ وهو حفيد يعرب ـ كانت البلاد جنَّة من جنَّات الدنيا، وهي التي قال الله فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وكان لهم وادٍ تملؤه السيول، جعلوا له سداً يحفظ عليهم الماء، ويبعد عنهم هجمات السيل، فلمَّا تطاولت عليهم الأزمان، وزاد ترفهم، خرب ذلك السد، وأرسل الله عليهم (سيل العَرِم) فأتلف أرضهم، ولم تعد تحتملهم، فرحل عن اليمن كثيرٌ من قبائلهم.

ومن الراحلين:

١ ـ (غسّان): سارت إلى مشارف الشَّام، وأقامت بها.

٢ ـ ورحلت (الأوس والخزرج) من الأزْد، فأقاموا بيثرب (المدينة المنورة).

---

(١) سبأ: هو بن يَشْجب بن يعرب بن قحطان، وسبأ لقبه، واسمه (عامر) (جمهرة أنساب العرب: ٣٢٩).

٣ ـ ورحلت بطون (لخم) فأقامت بالحيرة، قريباً من نهر الفرات.

وبقي باليمن قبائل حِمْير، ومذحِج، وهمْدان وكنده.

العرب المستعربة:

أما الشعب العدناني فينسب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قد أنزل ولده إسماعيل مع أُمِّه (هاجر) بمكّة، وبنى البيت الحرام، فكثُر نسله وتكوَّن منه شعبٌ عظيم.

وبنو إسماعيل هم (العرب المستعربة) لأنَّ أصلهم عبراني [١]، وتعلّم إسماعيل العربية من (جُرْهُم) الذين كانوا يقطنون بالحجاز، ومن ذريته (عدنان) الذي ينتهي إليه النسب الصحيح لسيدنا رسول الله ﷺ.

وكان لمعد بن عدنان ولدان؛ ربيعة، ونزار.

فأمَّا (ربيعة) فمن أشهر ذريته قبائل بكر وتغلب ابني وائل، وعبد القيس، وبنو حنيفة.

وأما (مُضر): فمن أشهر ذريته بنو تميم، وقبائل قَيس عَيلان، وهُذيل، وكِنانة، ومن كنانة بطون قريش.

وكان العدنانيون يقيمون أولاً بالحجاز، فلمَّا ضاق عنهم رحل كثير منهم؛

فرحلت (بكر وتغلب) إلى الشَّمال على حدود الفرات.

---

(١) وهذا رأي المؤلف، وقيل: إن أصلهم كلداني بابلي، لأن سيدنا إبراهيم ولد ببابل بالعراق، والكلدانيون ساميون من نسل سام بن نوح، فهم أبناء عم العرب.

ورحلت (عبد القيس) إلى البحرين.

ورحلت (تميم) وقبائل (قيس عيلان) إلى نجد.

و(بنو حنيفة) إلى اليمامة.

وبقي الحجاز لقريش، واختصوا بخدمة البيت الحرام، فصار لهم حَرَماً آمناً يحتمون به إذا خافوا.

معيشة العرب

العرب ينقسمون من حيث معيشتهم إلى ثلاثة أقسام: بادية، ومتحضرون، وحضر.

فأما (البدو) منهم فلم يكن لهم مقام معين، بل كانوا يتبعون الكلأ ومنابت العشب، فكلما أجدبت أرضهم، رحلوا عنها إلى غيرها، يلتمسون المرعى لماشيتهم التي هي جلُّ رزِقهم، يشربون ألبانها، ويأكلون لحمها، ومن هذا القسم معظم أهل نجد، واختصوا باسم الأعراب[1].

أما (المتحضرون) فكانت لهم أماكن معينة لا يرحلون عنها، ولكنَّهم لا يبتنون بناء، ولا يشيدون صرحاً، وإنَّما مساكنهم خيامهم.

أما (الحضر) فهم سكان المدن، وهؤلاء هم الذين كانت لهم مدنيَّة قبل الإسلام، وكان منهم الملوك والأقيال[2].

---

(١) ومساكنهم بيوت شعرية، وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور، وفي طبيعتهم جفاء.

(٢) الأقيال والأذواء والتابعة: ألقاب لملوك اليمن.

الدرس الثالث

مدنيّة العرب قبل الإسلام

كان للعرب مدنيَّة عظيمة في: اليمن، والحيرة، والشَّام، والحجاز.

أمَّا في (اليمن) فكانت قاعدة الملك صنعاء، والجالسون على عرش الملك أقيال (حِمْيَر)، ومن أعظمهم (عبد شمس)[1] الملقَّب بسبأ، وهو حفيد (يعرب بن قحطان)، وإليه يُنسب بناء مدينة (مأرب) والسد العظيم.

ومنهم حِمْيَر وابنه، وكان من الحميريين (الأذواء)، سموا بذلك لأن ألقابهم كانت تبدأ بـ (ذو) نحو: ذو المنار[2]، وذو الأزعار[3].

ومن ملوك حمير (بلقيس) وكانت معاصرة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ملك بني إسرائيل بأورشليم، وقد وفدت عليه، فأكرم وفادتها، وآمنت برسالته[4]، ثمَّ عادت إلى بلادها.

ومنهم التبابعة ينسبون إلى أبيهم (تُبَّع الأول)، وكان آخرهم ذو يزن الحميري، وهو الذي أخذت الحبشة منه بلاد اليمن وامتلكوها مدة.

وأبرهة ثاني ملوكهم، هو الذي غزا مكة وأراد هدم البيت، لولا حماية الله لحرمه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[سورة الفيل].

---

(١) بل اسمه (عامر) كما ذكر ابن حزم في جمهرة الأنساب.

(٢) اسمه أبرهة بن الحارث الرائش (جمهرة أنساب العرب ٤٣٨).

(٣) وهو تُبَّع بن أبرهة بن الحارث الرائش (جمهرة أنساب العرب: ٤٣٨).

(٤) وقد قص الله علينا قصتها مع سليمان في سورة النمل.

وكان أهل الحجاز يؤرخّون بهذه الحادثة، ويطلقون عليها (عام الفيل) لأن أبرهة كان معه فيل عظيم، حبسه الله عن دخول مكة، وفي عهد مسروق بن أبرهة نشأ سيف بن ذي يزن، واستغاث بملك الفرس فأغاثه بجند فارس سار معه حتى استرد بلاده، وطرد الحبش إلا قليلاً منهم أبقاهم عنده خدّاماً فاغتالوه، ولما علم بذلك كسرى أرسل من قِبَله عاملاً يتولى بلاد اليمن، فجاء الإسلامُ وهي في ملك الفرس.

وكان ببلاد اليمن القصور العظيمة منها قصر (غُمدان) بظاهر صنعاء، وله غُرف شهيرة يسمونها المحاريب، وهو محكم البناء عظيم الصنع.

وأما في الحيرة فكانت الملوك من (لَخم) إحدى قبائل اليمن التي رحلت بعد سيل العَرِم، ويسمى ملوك الحيرة منهم بـ (المناذرة)، وكانوا عمالاً للأكاسرة ملوك الفرس، ومن أعظم ملوكهم (جذيمة الأبرش)[1]، وهو الذي قتل ملك الجزيرة (عمرو بن الظَّرب) بعد حروب هائلة، فاجتهدت (الزبَّاء) بنت عمرو في الأخذ بثأره، فاحتالت على جذيمة حتى أقدمته بلادها، وفتكت به.

ومن أعظمهم (النُّعمان بن امرىء القيس) وهو الذي بنى قصر الخَوَرنَق، وقصر السدير، وهما من أعظم المباني العربية.

ومن أشهر ملوكهم (النُّعمان بن المنذر) الملقب بأبي قابوس، قتله ملك الفرس (أبرويز)، وكان قتله سبباً لوقعةٍ شهيرةٍ بين العرب والفرس بـ (ذي قار)[2]، انتصرت فيها العرب، وكان ذلك قبيل البعثة بقليل، وبقتل النُّعمان انتقل الملك في الحيرة إلى (إياس بن قَبيصة الطائي)، ثم عاد إلى آل النعمان، وكان آخرهم (المنذر بن النعمان) الملقب بالمغرور.

---

(١) أو (جذيمة الأبرص) وهو ابن مالك بن فَهْم بن غنم، ويقال له أيضاً: (الوضَّاح).

(٢) سيأتي الحديث عن معركة ذي قار عند الكلام عن أخلاق العرب.

أما في الشام فكان الملْك في (آل غسان)، وهم من قحطان، رحلوا من اليمن بعد سيل العرم، وأول من تولّى الشَّام منهم (جُفنة بن عمرو)، وهو الذي تُنسب إليه ملوك الغساسنة، فيقال: (آل جفنة).

وبنى جُفنة بالشَّام مصانع كثيرة، وما زالت ملوك غسان تتعاقب على الشام، ولهم دمشق وما والاها، واتسعت مدنيَّتهم وعظم عمرانهم، وكان بينهم وبين المناذرة ملوك الحيرة منافسة، أدت إلى وقائع مشهورة بين الفريقين كانت الحرب فيها سجالاً.

وكان آخرهم (جَبَلة بن الأيهم)، وهو الذي أسلم في عهد عمر بن الخطاب، ويقال: إنه حج في عهد عمر، فبينما هو يطوف إذ وطىء أعرابي على طرف إزاره، فانحلَّ، فلطم جبلةُ الأعرابيَّ، فاستعدى عليه عمرَ، فقال عمر لجبلة: إمَّا القَصاص وإِمَّا أنْ تفتدي اللَّطمة من الأعرابي بالمال، فعزَّ ذلك على جَبَلة، وكان سبباً لعودته إلى النصرانية وهربه إلى القسطنطينية، فأقام بها حتى مات.

وكان ملوك غسان عمالاً من قبل القياصرة ملوكِ الروم على عرب الشام.

أما في الحجاز فكان التَّقدم والرياسة لقريش، وإنْ لم يكونوا يسمَّون ملوكاً.

وقريش هم أولاد فِهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة، وكانت قريش بطوناً كثيرة، أضخمها وأعزها بنو عبد مناف بن قصي.

وكان لعبد مناف أربعة من الأولاد وهم: هاشم[1]، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب.

---

(١) هاشم لقبه، واسمه عمرو، وأمه وأم عبد شمس والمطلب واحدة، وهي عاتكة بنت مرّة، وقد كانت لهاشم الرفادة والسقاية وبقيت في أولاده حتى جاء الإسلام.

وهاشم هو والد عبد المطلب جد رسول الله ﷺ، ومن ولد عبد المطلب العباس الذي ينسب إليه العباسيون، وأبو طالب والد علي الذي ينسب إليه العلويون، ومن ولد عبد شمس أمية الذي ينسب إليه الأمويون.

وكانت الرياسة والتقدم في قريش لبني عبد مناف، وكانت قريش تتجر إلى الشَّام واليمن، فكانت لهم رحلتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وقد ذكر الله تعالى هاتين الرحلتين في سورة قريش ممتناً عليهم بأنَّه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وكانت ببلاد العرب سوى ذلك ملوك لم يكن لهم من الشأن ما كان لمن ذكرناهم.

أما بقية القبائل العربية فلم يكن لهم ملوك، وإنَّما كان لهم رؤساء ومشايخ وقضاة يصدرون عن أمرهم، وكلما كان الرأس أقدم مَحْتِداً[1]، وأقوى عصبة، وأوسع ثروة كان احترامه أقوى وأوفر وكلمته لا ترد، حتى كان منهم من إذا غضب تقوم القبيلة معه لا يسألونه لم غضب؟ واشتهر من هؤلاء في القبائل عدد كثير، ومنهم من كانت زعامته تشمل جملة من القبائل حتى يكون قريباً من المَلِكِ في سلطته، وإن لم يشبهْه في تَرفِهِ ومدنيَّتِه.

---

(١) مَحْتِداً: أصلاً.

الدرس الرابع

دين العرب

أرسل الله إلى الأُمة العربية كثيراً من الأنبياء يدعونهم لعبادة الله وحده كـ (هود وصالح وشعيب) عليهم الصلاة والسلام.

وممن أرسل الله إليهم إسماعيلُ بنُ إبراهيم عليهما الصلاة والسلام أبو العرب المستعربة، فكان بنوه من بعده على دينه، حتى تقادم العهد ووجد من بينهم رؤساء الضلالة[1]، فحولوهم عن التوحيد إلى الشرك، ونصبوا لهم الأوثان والأصنام، ليتقربوا بها إلى الله زُلفى، ونصبوها حول الكعبة، وبنوا لبعضها هياكل قائمة بنفسها، كهيكل (العُزَّى، وسواع، ويغوث، ويَعُوق، ومناة) ثمَّ صارت هذه الأوثان في نظر عامتهم شركاء لله، أو آلهة أخرى يعظمونها ويتقربون إليها فيذبحون عندها الذبائح.

وكان بعضهم يقسمون هذه الذبائح بين الوثن وبين الله، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا

---

(١) كعمرو بن لُحَيّ، قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق ـ وهم من ولد عملاق، ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي آراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرُها فتنصرُنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فقدم مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. سيرة ابن هشام ١/ ٨٢.

﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام: ١٣٦].

يقول بعض المؤرخين: إنَّ السبب في عبادة العرب للأصنام إنما هو من تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، ولما جاء الخلف لم يدروا ما المعنى من تلك الصور، ولكنهم ورثوا تعظيمها عن سلفهم، حتى صارت في نظرهم آلهة تُعبد، وهذا سرُّ النهي في الإسلام عن نصب الصور للعظماء.

ومن العرب من كانوا يعبدون الشَّمس، فكانوا يسجدون لها إذا طلعت، وإذا زالت عن كبد السماء وإذا غربت، وهذا هو السر في نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة في هذه الأوقات[1].

ومنهم من عبدوا القمر، وصوَّروا له صورة يعظمونها، ومنهم فئة كانت تعبد الكواكب.

ومن العرب من اتَّخذ دين اليهود، وهم كثير من الحميريين وأهل يثرب.

ومنهم العرب المتنصرة، وهم الغساسنة سكان مشارف الشام، وأهل نجران، وقد أخذ أهل الشام دين النصرانية عن الروم.

على ذلك كانت أديان العرب مختلفة، لا يجمعهم دين، ولا معتقد، حتى جاء الإسلام فجمعهم وألَّف بين قلوبهم.

ومع هذا الاختلاف كان أكثر العرب يحترم الكعبة، ويحجُّ إليها

---

(١) عن عقبة بن عامر: (ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن، وأن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تزول الشمس، وحين تتضيف الشمس للغروب). رواه مسلم (١٩٣٦) في صلاة المسافرين وقصرها.

تعظيماً لها، وكانت أشهُرُ الحجِّ من الأشهر التي حرَّم فيها العرب القتال، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه في إبّان الحج فلا يعرض له.

أخلاق العرب

اشتهرت العرب بأخلاق عرفت عنهم وامتازوا بها، فمنها:

الجود: كانوا يرون أن قِرى الضيف من أول واجباتهم، حتى كان الرجل منهم ينزل به الضيف وهو لا يملك إلا ناقته التي هي ملجؤه عند الشدة فينحرها له، وقد اشتهر منهم جماعة بإيثار ذوي الحاجة على أنفسهم كـ (حاتم طي، وكعب بن مامة، وعبد الله بن جُدْعان، وهاشم بن عبد مناف، وغيرهم).

ومنها حبّ الاستقلال وإباء الضيم: فكان الرجل منهم عزيزاً في نفسه، لا يقبل المذَلّة مهما كان مصدرها، ومن تأمل حروبَ العرب العظيمة يجد أسبابها عزَّة النفس وإباء الضيم.

كان سبب حرب (ذي قار) أنَّ النعمان بن المنذر لما طلبه كسرى إلى المدائن، وأحس النُّعمان بالشر، أودع سلاحه وحريمه عند قيس بن مسعود الشيباني، فلما قُتل النعمان طلب كسرى من قيس أن يسلمَ إليه ودائع النعمان، فأبى عليه ذلك، وأعدَّ للحرب عدته، وكان هذا سبباً لتلك الواقعة الكبرى التي انتصر فيها العرب أول انتصار لهم على العجم، وكان الواحد منهم إذا احتمى به جار بذل دونه نفسه وماله.

كان للبسُوس ـ خالة جسَّاس بن مُرَّة ـ جار، وله ناقة ترعى مع إبل جساس؛ وكان لكليب بن ربيعة سيد القبيلة وادٍ قد حماه فلا يرعى فيه إلا بَهْمُه، فرأى ذات يوم ناقة جار البسوس ترعى في ذلك الوادي؛ فرمى ضرعها بسهم فلما علمت البسوس بذلك صاحت: (واذلاّه) فهدّأ جساس روعَها، ثمَّ خرج فقتل كليباً، يريد بذلك محو عار الإهانة التي لحقته بإصابة ناقة جاره، وكان ذلك سبباً لحرب البسوس، التي نشبت بين قبيلتي كليب وجساس، ودامت سنين كادت تفنى فيها القبيلتان.

كان من خلق العرب الوفاء للصديق في الشدة والرّخاء، وقد تمدحوا بذلك في أشعارهم التي جمعت محاسن الأخلاق.

وكان بجانب تلك المحاسن مساوىء منها: سرعة الغضب، والجرأة على الشر، دعاهم إلى ذلك قُحُولة بلادهم، وحاجتهم إلى ما يقوتون به أنفسهم، فكانت بينهم الغارات الدائمة والحروب المتواصلة، تطمع كل قبيلة في اغتنام مال الأخرى.

ومن أسوأ ما يؤثر عن بعض قبائلهم **وأد البنات**، وهو دفنهن أحياء، وإنما يفعل ذلك منهم من يخشى الفقر، لأنه يرى أنَّ تحصيل البنت قوْتَها ليس في قُوَّتِها بخلاف الولد، فكان يعدو عليها عقب ولادتها، ويمحو بالدفن أثرها، وهذا جُرم فظيع، وقد وجد من عقلائهم من دعا إلى منع ذلك، فكان يشتري البنت التي يريد أبوها أن يئدها، وبذلك نجا كثير من هؤلاء المنكودات، وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذا الصنيع في كتابه الكريم[1].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨]. وقال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

الدرس الخامس

لغة العرب وآدابهم وعلومهم

كان لكلٍّ من الشعبين القحطاني والعدناني لغة خاصة به، واللغتان وإن اتفقتا في اللهجة تختلفان في كثير من الألفاظ، وقد جَمَع اللغتين اسمُ (اللسان العربي)، وهذه اللُّغة واسعة المادة، حتى إنَّك لترى كثيراً من المسميات يدل على الواحد منها أكثر من اسم واحد، وربما فاقت المائة والمائتين.

وقد ازدادت اتساعاً بما أدخله العربُ عليها من الكلمات الفارسية والرُّومية، بعد أن صقلوها[1] بألسنتهم، حتى صارت على منهاج كلماتهم، وربما تركوا الكلمة التي أخذوها على حالها بعد تغيير خفيف فيها، والمعاجم اللُّغوية ملأى بتلك الكلمات[2].

وكان من العرب بلغاء معدودون امتازوا بالقدرة على تأدية المعاني بأسلوب جيد يأخذ بالألباب، وهم الخطباء والشعراء.

قالوا الشعر على وزن خاصّ بهم ليكون أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ، فدوَّنوا فيه مآثرهم ومفاخرهم، وكان لهم أسواق شهيرة،

---

(١) الصَّقل: الجلاء. (اللسان: مادة: صقل)، والمعنى: بعد أن تبادلوها ودرجت على لسانهم فتوضحت.

(٢) وهذا ما يسمى (المُعَرَّب من الألفاظ) فمنه ما عُرِّب قبل الإسلام فصار عربياً وذكر بعضه في القرآن الكريم، ومنه ما عُرِّب بعد الإسلام وقد تفشى في عصر العباسيين، وأشهر ما أُلِّف في ذلك (المُعَرَّب) للجواليقي، وفي الألفاظ المعرَّبة في القرآن (المهذَّب فيما وقع في القرآن من المعرّب) للسيوطي.

كسوق عكاظ يجتمع فيه النَّاس من كل صوب فينشد الشعراء قصائدهم، ويقضي قضاتهم بالتَّقدم لأبلغهم.

واشتهر من بين الشعراء أصحاب المعلقات السبع[1]، وهي قصائد استحسنها العرب، ونوَّهُوا بذكرها، ومن أحسنها معلَّقة زهير بن أبي سُلمى التي يقول فيها[2]:

ومَنْ يجعل المعروفَ مِنْ دون عِرضه
يفِـرْهُ[3] ومـن لا يتَّـقِ الشتـمَ يُشتَـمِ
ومَنْ لم يذد عن حَوْضِه بسلاحِهِ
يهـدَّم، ومـن لا يظلِـم النَّـاسَ يُظلَـمِ[4]
ومن يَغتَرِبْ[5] يحسَبْ عدواً صديقَه
ومـن لا يكـرّمْ نفسَـه لا يكـرمِ
ومـن يـكُ ذا فضـلٍ فيبخـلْ بفضلـه
علـى قـومِـهِ يُسْتَغـنَ عنـه ويُـذْمَـمِ
ومهما تكن عندَ امرىء من خَليقةٍ
وإنْ خـالَهـا تَخْفـى علـى النَّـاسِ تُعْلَـمِ

---

(١) وهم: امْرؤ القَيْس ـ طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ ـ زُهَيْرُ بن أَبِي سُلْمَى ـ لَبِيْدُ بنُ رَبيْعَةَ ـ عَمْرُو بن كُلْثُوم ـ عَنْتَرَةَ بن شَدَّاد ـ الحارثُ بنُ حِلِزَةَ.

(٢) وهي في ديوانه (ص٨٧ ـ ٨٨).

(٣) أي: يُتَمه ولا ينقصه، والمعنى: ومن بذل معروفاً صان عرضه ومن بخل بمعروفه عرّض عِرضه للذم والشتم.

(٤) قال الأصمعي: (أي من لانَ للناس ظلموه، واستضعفوه) انظر شرح القصائد العشر للتبريزي، وهذا المعنى كان سائداً في الجاهلية.

(٥) في الأصل (يغترر) ولعل الصواب ما أثبتناه من الديوان لأن المعنى يقتضيه، أي: من سافر واغترب حسب الأعداء أصدقاء لأنه لم يجرِّبهم.

وكان الشعراء في القبائل كأصحاب الجرائد في العصور الراقية، يدافعون عن قبائلهم، إما بمدح شمائلهم، وإما بهجاء خصومهم، وكان في كل قبيلة شاعر كما كان لها خطيب.

وممن اشتهر من خطباء العرب (سحبان وائل)[1]، حتى ضربوا به المثل فقالوا: (أخطبُ من سحبان).

ومنهم (قُسّ بن ساعدة الإيادي)[2]، و(زهير بن جَناب الحِميري)[3]، و(قيس بن زهير العَبسي)[4] وغيرهم.

وكان معظم العرب أُميّين لا يكتبون ولا يقرؤون، فكانوا يعتمدون على حافظتهم في حفظ الأشعار والخطب، حتى وُجد عندهم الخط، أخذوه من الأمم المجاورة لهم، وآخر من وصل إليه الخط منهم عرب الحجاز، فبُعث رسول الله ﷺ والكتابة قليلة جداً، فساعد الإسلام على نشرها بين الأفراد.

وبذلك لم تكن للعرب علوم مدونة، وإنما كانت عندهم أشياء يتوارثها الخلفُ عن السلف تقليداً، كان منهم النسَّابون الذين يضبطون

---

(١) سَحْبان بن زفر بن إياس الوائلي، من باهلة، خطيب يضرب به المثل في البيان، يُقالُ: (أخطب من سحبان) مات سنة ٥٤هـ، وانظر ترجمته في الأعلام (٣/ ٧٩).

(٢) قُسّ بن سَاعِدة الإياديّ، أحد الحكماء المعدودين في العرب، ومن كبار خطبائهم، وهو أول من قال في كلامه: (أمَّا بعد)، مات سنة ٢٣ق.هـ، وانظر ترجمته في الأعلام (٥/ ١٩٦).

(٣) زُهَيْر بن جَنَاب بن هبل الكلبيّ، خطيب قضاعة وسيدها، وشاعرها، وبطلها، ووافدها إلى الملوك في الجاهلية، كان يدعى (الكاهن) لصحة رأيه مات نحو ٦٠ق.هـ، انظر الأعلام (٣/ ٥١).

(٤) قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وداهيتها، وأحد إلسادة القادة، كان يُلقب بقيس الرأي لجودة رأيه، مات في سنة ١٠هـ، انظر الأعلام (٥/ ٢٠٦).

أنساب القبائل، ويُرجِعون نسبَ كلٍ منها إلى أبيها الأول، وكان لهم بذلك عناية كبرى.

وكان منهم الأخباريون الذي يعرفون أخبار الماضين كالمؤرخين في زماننا، يأخذون ذلك من الشعر المحفوظ، الذي هو سجلُّ أخلاقهم، ومستودع علومهم، ولذلك قيل: (الشعر ديوان العرب)[1].

ومن أكبر ما كانوا يعتنون به أمرُ النجوم وحركاتها، ليهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحر، وليعرفوا بها الأمطار التي بها حياتهم، فكانوا يعرفون منازل القمر وأنواءها.

وهم الذي قسَّموا الفلك إلى اثني عشر قسماً، وسمَّوا كل قسم منها (برجاً)، لكل فصل من فصول السنة أبراج مخصوصة.

ومن علومهم (علم القيافة) وهي: قيافة الأثر، وقيافة الآدميين.

أما الأولى: فهي تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر، ليعلم منها أين سار المتَتبَّع.

وأما الثانية: فهي المقابلة بين أعضاء شخصين من النّاس، ليحكم بصحة نسب أحدهما للآخر.

وكان لهم في الأمرين مهارة غريبة، لا يزال شيء منها موجوداً بين العرب في بوادي الحجاز والسودان، فكان كثير منهم من يرى الأثر فيقول: هذا أثر فلان، وهذا أثر بعير فلان، وإذا نظروا إلى عدة أشخاص يُلحقون الابن بأبيه، والأخ بأخيه، وميزوا الأجنبي إذا كان بينهم.

---

(١) وينسب هذا القول إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن علومهم (الفراسة)، وهي: الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وأقواله على أخلاقه من فضيلة ورذيلة.

ومما كانوا يشتغلون به (الطب)، وهو مبني في الغالب على تجارب قاصرة، يتوارثونها عن مشايخ الحي وعجائزه ـ كالذي عرف عندنا بطب الركة ـ ومن مشاهير أطبائهم (الحارث بن كلدة)[1]، وكان من أهم أدويتهم الكي بالنَّار، ولا يزال العرب يستعملونه في العلاجات.

هذا أعظم ما كان يعرفه العرب من العلوم، وكلّه لم يكن مرتباً منظماً، وإنما على قدر حاجاتهم في بواديهم، حتى جاءهم الإسلام فأرشدهم إلى العمل الصالح فكانت لهم هذه المدنية العظيمة.

---

(١) هو: الحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب في عصره، من أهل الطائف، مولده قبل الإسلام، وبقي أيام رسول الله ﷺ وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، واختلفوا في إسلامه، وكان النبي ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده. طبقات الأطباء: (١/ ١٠٩).

الدرس السادس

حالة العرب الاجتماعية قبيل الإسلام

الرجل في أهله

كان الرَّجلُ في الأسرة العربية سيدَها وإليه يرجع كل أمر هو لها، ولم يكن للمرأة شأن بل كان يُنظر إليها كما يَنظر الرجل إلى المتاع الملقى، يقولون: إن غاية وظيفتها أن تكون وعاء للولد، ليس لها دخل في تربية ولدها بعد أن تضعه وتتم رضاعه، ولم يكن إلا نسوة قلائل معدودات من بيوت الأشراف كانت لهن سيطرة في بيوتهن، أما عامة النساء فكان يُنظر إليهنّ نظر الحقارة والامتهان، حتى كان كثير من القبائل يئد البنات﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[النحل: ٥٨].

وكانوا يربّون الذكور من أبنائهم على القسوة والجرأة والإقدام، حتى يكونوا عوناً لهم في الدفاع عنهم، أو الهجوم على عدوهم، ولذلك كانوا يسمونهم بأسماء مزعجة مثل: مُرَّة، وأسد، ونمر، وكلب، وما شاكل ذلك.

ولم يكن هناك حدّ للرجل في زواجه، بل كان يتزوج من النِّساء بما شاء.

الرجل في قبيلته

كانت عصبية كل قبيلة متحدة على من يناوىء فرداً منها من القبائل الأخرى، فإذا أوذي واحد من القبيلة ونادى: (يا لقومي)، فسرعان ما يجيبونه، وسرعان ما ينشب القتال بين القبيلتين لأتفه الأسباب، وذلك لأنَّه لم يكن لهم قضاة محترمو الرأي، يحكمون بين القبائل المختلفة.

وأسباب الخصام كثيرة وبكثرتها يكثر النزاع.

وكانوا إذا قتل فرد من قبيلة تقوم القبيلة كلها للقصاص من القبيلة التي منها القاتل، وإذا كان المقتول سيداً لا يرضون بالقَوَد[1] من نفس القاتل إذا كان حقيراً، بل يكون همهم القَود من سيدٍ مشابهٍ للمقتول، وإن لم يكن له دخلٌ في الجناية بذلك.

كان الهياج بين القبائل مستمراً، لأنه لا وازع لهم، وهذا ما جعل قوتهم ضعيفة مع ما هم عليه من البسالة والإقدام، فكانت الدولتان المجاورتان لبلاد العرب وهما: (الفرس والروم) متغلبتين على أخصب الأراضي العربية؛ فكان للفرس: اليمن، واليمامة، والبحرين، ووادي الفرات يُولّون على بعضها عمالاً من قِبَلهم فُرساً كانوا أو عرباً.

وكان للروم ما جاور الشام من بلاد العرب، ولم يكن خارجاً عن نِيرهم[2] إلا بلاد نجد والحجاز، وقبائلهما مشتغلة بالحروب لا تخمد نارها، حتى بين القبائل التي يجمعها أب قريب كالأوس والخزوج، وقريش وقيس.

---

(١) القود: قتل النفس بالنفس، وقيل: القِصاص (اللسان: مادة قَوَدَ).

(٢) المقصود هنا: سيطرتهم.

وبذلك كانت البلاد العربية في حاجة كبرى إلى إصلاح ديني يقوِّم معتقداتهم الفاسدة، وإصلاح اجتماعي يبين لهم واجبات الرجل في أَهله وواجباته في عشيرته، وجمع هذه القبائل المختلفة تحت لواء واحد، حتى تكون قوتهم جميعاً، فتتغلب على تلك الأمم المجاورة.

لذلك نظر الله إلى هذه الأمة نظر انعطاف، وأرسل لها رسوله الأكرم محمداً ﷺ.

الدرس السابع

سيدنا محمد ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، من أكبر أسرة في قريش.

تزوَّج والده عبد الله بأُمِّه آمنة بنت وهب من بني زُهرة من قريش، وتوفي قبل ولادته[١].

ولد ﷺ بمكة في / ٢٠/ إبريل (نيسان) سنة ٥٧١م (عام الفيل).

وكفله جَدُّه عبد المطلب، ثمَّ عمّه أبو طالب بعد وفاة جدِّه[٢].

وكان في صغره وشبيبته مثالاً لمكارم الأخلاق، حتى سمَّته قريش (الأمين) لصدقه وأمانته.

ولما بلغ[٣] خمساً وعشرين سنة تزوَّج خديجة بنت خويلد، من بني أسد بن عبد العزى، من قريش.

وقد حفظه الله قبل رسالته من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها، وبُغضت إليه الأوثان بُغضاً شديداً، حتى لم يكن يحضر لها عيداً أو احتفالاً مما يقوم به عُبَّادها، وحرَّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعها في العرب شيوعاً عظيماً[٤].

---

(١) أما والدته فتوفيت وله من العمر ست سنوات.

(٢) توفي جده عبد المطلب وله عليه الصلاة والسلام ثمان سنوات.

(٣) ولما بلغ رسول الله ﷺ العشرين من عمره كانت حرب الفِجار، وقد سميت فجاراً لما استحل فيها من المحارم، وقد شارك رسول الله ﷺ فيها، وكان النصر حليف قريش وكنانة على قيس غيلان.. انظر التفصيل في البداية والنهاية (١/ ٦٩٤).

(٤) ومن الأحداث الهامة قبل بعثة النبي ﷺ حادثة بناء الكعبة، فقد قررت قريش إعادة =

البعثة الشريفة

ولما بلغ أربعين من سنه ﷺ، أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً، ليُخرج الناس من ظُلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك في أول فبراير (شباط) سنة (٦١٠) من ميلاد المسيح عليه السلام.

جاءه المَلَكُ الذي يُبلّغ الأنبياء عن الله رسالته في غار حراء، وأقرأه أوَّل آيات نزلت من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق ١ـ٥].

وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذا الدين القويم أساسه العلم والتعليم.

ثمَّ نزل عليه بعد ذلك التَّكليف بدعوة النَّاس إلى الله تعالى، بقوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر ١ـ٧].

فقام ﷺ بأمر الله ودعا لعبادته أقواماً فيهم جفاء وغلظة، اتبعوا ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان.

صدَّقه ﷺ جمعٌ قليل من ذوي العقول السليمة، منهم أبو بكر الصديق، وخديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وغيرهم من السابقين الأولين.

= بناء الكعبة، ولما بدأ البناء اختلف القرشيون فيمن يضع الحجر الأسود، وكادت أن تقع فتنة شديدة إلا أن الله عز وجل وحد كلمتهم برأي النبي ﷺ. انظر البداية والنهاية (١/ ٧٠٣).

وكان ﷺ في بدء الأمر يدعو إلى الله سرّاً، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. فامتثل أمر ربه وجهر بدعوة الناس إلى دين الله، وكان ذلك داعية إلى أنْ عاداه الرؤساء من قريش، تعصباً لما كان عليه آباؤهم، وخوفاً على رياستهم أن تذهب عنهم، ولم يكتفوا بعدم اتباعه، بل صاروا يؤذون كل من اتّبعه بكل ما يقدرون عليه من أنواع الإيذاء، وآذوا رسول الله ﷺ، فقابل ذلك هو والمؤمنون بالصَّبر، وتحمل الشدائد في سبيل الله.

ولما رأى ﷺ شدة الأذى على أصحابه أمرهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، فهاجر إليها في الأول عشرة رجال وخمس نسوة، ثم هاجر بعدهم ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة، وقد أكرمهم النجاشي ملك الحبشة، وآمن برسول الله ﷺ.

أما الذين بقوا في مكة من الصحَّابة فقد نالهم من الأذى ما لايمكن احتماله، إلا لمن تمكَّن الإسلام من قلبه، واختلط بدمه ولحمه، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان يمنع عن رسول الله ﷺ بعض الأذى عمُّه أبو طالب وزوجه خديجة، فلمَّا ماتا[1] اشتد الأمر، وصدَّ المشركون عن سبيل الله وعن الإسلام كل راغبٍ فيه، فخرج رسول الله من مكة إلى الطائف، وبها قبائل (ثقيف)، فعرض على رؤسائهم أن يساعدوه حتى يتم أمر ربه، ويبلغ رسالته، فردوا عليه رداً قبيحاً، ولم يكتفوا بذلك بل أوعزوا إلى سفهائهم أن يؤذوه عند عودته، فصاروا يرمون عليه الأحجار، حتى أَدْمَوا عِقبَه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه، وعند ذلك دعا الله قائلاً:

---

(١) كان ذلك في السنة العاشرة للبعثة الموافق ٦٢٠م، وقد سمى رسول الله ﷺ هذا العام بعام الحزن.

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي)، وحين عودته إلى مكة اشتد عليه أذى المُشركين وجهلهم[1].

(١) وبعد رجوعه ﷺ من الطائف واشتداد أذى المشركين عليه أكرمه الله سبحانه وتعالى بمعجزة الإسراء والمعراج، وكان ذلك قبل هجرته ﷺ بستة عشر شهراً.

الدرس الثامن

الهجرة إلى المدينة

ولما رأى ﷺ أن قريشاً تمنعه من تأدية رسالة ربه، عرض نفسه على قبائل العرب التي كانت تحضر الموسم كلَّ عام بمكة، ليحموه حتى يؤدي الرسالة، وكان من الذين يحجون عرب يثرب، وهم (الأوس والخزرج)، فتعرض ﷺ لنفرٍ منهم يبلغون الستة وكلُّهم من الخزرج، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، فآمنوا به وصدَّقوه، وقالوا له: إنَّا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسمِ المقبل.

ولما كان العام المقبل قدم عليه اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة، فاجتمعوا به عند العقبة، وأسلموا وبايعوه، فأرسل معهم من يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، وقد دخل أهل المدينة في الإسلام أفواجاً بعد إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما سيدان من ساداتهم.

ولما كان وقت الحج من العام الذي يلي البيعة الأولى قدِم كثيرٌ من أهل المدينة يريدون الحج، وأرسلوا وفداً لرسول الله ﷺ واعده المقابلة ليلاً عند العقبة، فلما حان وقت الموعد توجه إليهم ﷺ وقد اجتمع منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وهناك بايعوه على أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم متى قدم عليهم.

وبعد أن تمت هذه البيعة أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى المدينة، فامتثلوا أمره، ولما رأت قريش ذلك اجتمعت رؤساؤهم في دار الندوة، واشتوروا فيما يفعلون برسول الله وأخيراً اتفق رأيهم على أن يقتلوه وهو خارج من البيت، بأن يختار من كل قبيلة شاب جلد يضربونه ضربة رجل واحد، حتى يتفرق دمه في قبائل قريش، فأعلم الله رسولَه بما دبَّره الأعداء، وأمره بالهجرة إلى المدينة، فتوجَّه من ساعته إلى دار الصِّدِّيق أبي بكر، وأعلمه أنَّ الله قد أذن له بالهجرة، فأعدَّ أبو بكر راحلتين للسفر[1]، واختارا دليلاً يدلهما على الطريق[2]، وواعداه المقابلة ليلاً خارج مكة، وذلك في الليلة التي تواعد المشركون على تنفيذ غرضهم فيها.

ولما جاء الموعد أمر رسول الله ﷺ ابن عمه علياً أن يبيت موضعه، وخرج من الدار، فلم يره بفضل الله أحدٌ، فسار هو وأبو بكر حتى أتيا غار ثور، فاختفيا فيه، ولما أصبح المشركون وعلموا أنَّ الرسول ﷺ فاتهم أرسلوا الطلب في أثره إلى جميع الجهات، وجعلوا الجوائز لمن يأتي به، فلم يظفروا بما أرادوا.

وبعد ثلاثة أيام خرج الرسول ﷺ والصدِّيق من الغار، ولم يزالوا سائرين حتى وافيا المدينة، فسُرَّ أهلها من مقدمه ﷺ سروراً عظيماً، فنزل بقُباء، وكان ذلك في اليوم الثامن من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من الميلاد.

---

(١) مصادر السيرة النبوية تشير إلى أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان قد هيأ الراحلتين قبل زمن من الإذن لرسول الله ﷺ بالهجرة. (انظر البداية والنهاية ٢/ ١٩٢).

(٢) هو عبد الله بن أريقط (البداية والنهاية ٢/ ١٩٢).

أعمال مكة

مجمل ما دعا إليه الرسول ﷺ بمكة أمران:

الأول: الاعتقاد بوحدانية الله.

الثاني: الاعتقاد بالبعث والنشور، وأن هناك يوماً ثانياً هو يوم الدين يجازى فيه المرء على عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وبيَّن الله على لسان رسوله مكارم الأخلاق التي لا يكمل إيمان المرء إلا بها، من الصدق، والشجاعة، والحياء، والشفقة، والعفة، والصبر، وغير ذلك.

وعلى هذه الأمور تدور معظم الآيات التي أنزلها الله بمكة، وهي معظم القرآن.

دخوله ﷺ المدينة

وأقام ﷺ بقباء ليالي أسس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله في سورة التوبة بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم[1]..

ثمَّ تحوَّل ﷺ إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدي سيوفهم، وخرج النساء والصبيان يقلن:

---

(١) قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

طَلَـــــعَ البـــــدرُ علينـــــا
مـــــن ثَنيـــــات الـــــودَاع
وَجَـــــبَ الشُّكـــــرُ علينـــــا
مـــــا دعـــــا لله داع
أيُّهـــــا المبعـــــوث فينـــــا
جئْـــــتَ بـــــالأمـــــرِ المُطـــــاع

ولما وصل المدينة نزل على أبي أيوب الأنصاري، واسمه (خالد بن زيد)، ونزل المهاجرون على إخوانهم من الأنصار، فأكرموا مثواهم وآثروهم على أنفسهم، ثم أرسل ﷺ (زيد بن حارثة وأبا رافع) إلى مكة ليأتيا بمن تخلَّف من أهله، فقدما بهم، ومنع مشركو مكة بعضاً من المستضعفين أن يهاجروا.

الدرس التاسع

بناء المسجد

وفي السنة الأولى من الهجرة بنى ﷺ مسجده بالمدينة.

وفيها شرع الله الأذان لجمع المسلمين للصلاة.

هذا وكما ابتلى الله المسلمين بمكة بالمشركين ابتلاهم بالمدينة بالمنافقين، وهم قوم أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر، وباليهود وهم: (بنو قُرَيظَة وبنو النَضير، وبنو قَينُقاع)، وكان من هَدْي رسول الله ﷺ أن يقبل من النَّاس ما ظهر، ويترك لله ما بطن، فعامل المنافقين بذلك، وعاهد اليهود عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى، وأنَّهم لا يعينون عليه أحداً، وإن دهمه عدوٌ بالمدينة فللرسول عليهم النُّصرة.

مشروعية القتال

كان ﷺ لا يقاتل أحداً على الدخول في الدين، بل كان أمره قاصراً على التبشير والإنذار والإقناع بالحجَّة، حتى إذا فعل أهل مكة ما فعلوا من إخراج المسلمين من ديارهم وصدّهم عن سبيل الله أذِن الله للرسول ﷺ في قتالهم، وبذلك لم يكن يتعرض إلاَّ لقريش خاصة، فلما تمالأ[1] على المسلمين غير قريش من مشركي العرب أمر الله بقتال المشركين بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

---

(١) تساعد.

بدء القتال

كان من عادة قريش أن ترسل تجارتها إلى الشَّام لتبيع وتبتاع، ويسمى الرَّكب السائر بهذه التجارة (عيراً)، وكان يسير معها لحراستها كثيرٌ من أشراف قريش وسراتهم، ولابدَّ لوصولهم إلى الشام من مرورهم على المدينة، فرأى ﷺ أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة لإضعافهم[1]، فكان يرسل السرايا لاعتراض هذه التجارات في سفرها.

وفي بدء السنة الثانية:

خرج بنفسه ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام يحرسها جمعٌ رئيسهم أبو سفيان بن حرب الأموي، ولما علم أبو سفيان بذلك أرسل إلى قريش يستنجدهم لحماية عيرهم فنفروا سراعاً وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلاً.

أما الرسول ﷺ فلم يكن عنده خبر بخروج قريش، حتى إذا بلغ الرَّوحاء[2] جاءه الخبر بذلك، فاستشار أصحابه، وقال لهم: (إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين العير أو النفير)، فتبين له أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة، وهي العير، ولكن قال له سادتهم وقادتهم أن يمضي لما أمره الله به مهما كلفهم من المصاعب والمشاق.

بَلَغَ الرسولَ ﷺ عقب ذلك أن أبا سفيان نجا بالعير، لأنَّه اتبع طريق الساحل، ولكن ذلك لم يرد قريشاً، بل صمموا على المجيء إلى بدر،

---

(١) وللتعويض عما أخذوه، وصادروه من أموال المهاجرين.

(٢) الروحاء: محطة على الطريق بين المدينة وبدر على مسافة (٧٤) كم من المدينة

فنزلوا بعدوته[1] القصوى، وجاء جيش المسلمين فنزلوا بِعُدوته الدنيا.

ولما تراءى العسكران ابتدأ بينهم القتال بالمبارزة[2] على حسب العادات العربية، ثم تبعه الهجوم وكان النصر التام للمسلمين، فقتلوا من أعدائهم نحو السبعين، وأسروا منهم نحو السبعين، مع أنَّ عدد المسلمين كان أقل من ثلث عدد المشركين.

ولما رجع ﷺ مع أصحابه بأسرى قريش رأى أن يقبل الفدية فيهم، فافتداهم أقاربهم، ومن كان فقيراً لا فدية له وكان يعرف القراءة والكتابة أُعطي عشرة من صبيان المسلمين يعلمهم، وكان ذلك فداء له.

ولما عاد إلى المدينة بلغته خيانةٌ عن يهود بني قَينُقاع[3]، فدعا رؤساءهم وحذَّرهم عاقبة البغي، فأساؤوا الرَّد[4] وأظهروا العداوة، وتحصنوا بحصونهم، فسار إليهم ﷺ وحاصرهم، ولما رأوا من أنفسهم العجز عن المقاومة طلبوا من المسلمين أن يكفوا عنهم، ويخرجوا من المدينة، فأجيبوا، وارتاح المسلمون من شرهم.

---

(١) العدوة: بالكسر والضم المكان المرتفع، جمعها عداء وعدات.

(٢) وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلاً شرساً فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج إليه حمزة قتله وقطع رجله أولاً فسقط في الحوض يريد أن يبر بيمينه، فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض ثم عتبة بن ربيعة مع عبيدة بن الحارث قد أصاب كل واحد منهما صاحبه، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة فقتله وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة فقتله وكر حمزة وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فقتلاه. (سيرة ابن هشام).

(٣) وذلك أنهم حاولوا انتهاك حرمة سيدة من نساء الأنصار.

(٤) وكان مما قالوه: لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمن أنَّا نحن الناس.

وفي هذه السنة:

حُوِّلت القبلة إلى الكعبة، بعد أن كانت الصلاة إلى بيت المقدس، وفيها فرض صوم رمضان، وصلاة العيدين، وزكاة الفطر، وزكاة المال.

وفي السنة الثالثة:

كانت غزوة أحد، وسببها أنَّ قريشاً رأت أبواب التجارة قد سُدت في وجوههم، فأجمعوا أمرهم على تجنيد جيشٍ لحرب المسلمين بالمدينة، فجمعوا الرجال، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف، ولما علم الرسول ﷺ باقترابهم من المدينة خرج إليهم في شوال، حتى نزل الشِّعب من أُحد شرقي المدينة، وجعل ظهره للجبل، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قِبل أُحد، ورتَّبوا صفوفهم، ورتب ﷺ صفوف أصحابه، وجعل على ظهر الجبل خمسين رامياً لحماية ظهر المسلمين وأمرهم ألا يزايلوا أمكنتهم مهما كان الأمر.

وابتدأ القتال بالمبارزة ثم الهجوم، فكان النَّصر أولاً للمسلمين، حتى شرع المشركون ينهزمون، ولما رأى ذلك الرُّماة الذين على ظهر الجبل تركوا مراكزهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد ـ وكان إذ ذاك من قوَّاد المشركين ـ، أخذ قطعة من الجند وعلا بها الجبل، وجاء المسلمين من ورائهم فدهمهم ما لم يكن لهم على بال، ودهشوا، وانتقضت صفوفهم، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً، وعاد إلى المشركين من كان قد انهزم منهم.

وكان من نتيجة ذلك أن انهزم كثير من المسلمين إلا رسول الله ﷺ ومعه جماعة من كبراء أصحابه، يدافعون عنه بأنفسهم، وقد أصابته شدائد كثيرة، وأصاب الذين يحوطونه كثير من الجراحات، وقتل من

المسلمين نحو السبعين، منهم (حمزة بن عبد المطلب).

وهذا الذي أصاب المسلمين سببه أمران:

الأول: مخالفة الرسول ﷺ فيما أمر به.

والثاني: اشتغالهم بأمر الغنائم قبل أن يتم لهم النصر.

ثم إن أبا سفيان صعد ونادى بأعلى صوته: نعمت فعال، إنَّ الحرب سِجَال[1]؛ وموعدكم بدر العام المقبل.

ثم رجع المشركون إلى مكة، ولم يعرجوا إلى المدينة.

فلما عاد ﷺ إلى المدينة أصبح حذراً من عودة المشركين إلى الهجوم على المدينة، فنادى في أصحابه بالخروج، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح[2]، وكان خروجهم سبباً لتخوف المشركين وامتناعهم عما كانوا صمموا عليه من تتميم انتصارهم بغزو المدينة.

---

(١) سِجَال: أي سَجْل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء، والسَّجْل: هو الدلو العظيمة مملوءة.

(٢) وسميت تلك الغزوة بغزوة حمراء الأسد وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

الدرس العاشر

وفي السنة الرابعة:

كانت غزوة بني النَّضير، وسببها أنه كان بينهم وبين الرسول عهود، فبينا رسول الله ﷺ في ديارهم يستنجزهم الوفاء بما توجبه تلك العهود، إذ ائتمر جماعةٌ منهم على اغتياله، فأطلعه الله على قصدهم فعاد إلى المدينة، وتجهّز لقتالهم، فحاصرهم، ولما رأوا العجز طلبوا منه أن يكفّ عن دمائهم، ويخرجوا من المدينة، ففعل وفعلوا، ونزل بعضهم بأرض خيبر وبعضهم بأذرعات[1] ببلاد الشام.

ولما أهلَّ شعبان كان موعد أبي سفيان ببدر، فخرج ﷺ بأصحابه وفاءً بالوعد، ولكنّ أبا سفيان تخلَّف فكان موسم بدر في هذا العام للمسلمين خاصة.

وفي السنة الخامسة:

كانت غزوة الخندق، وسببها أنّ قريشاً جمعت جموعها وحلفاءها، تريد غزو المدينة ثانيةً، وكان عدَّة من خرج منهم عشرة آلاف، ولما علم بذلك المسلمون، أشار (سلمان الفارسي) بحفر خندق حول المدينة يمنع المشركين من الهجوم عليها، فحفروا، فلما جاء هؤلاء الأحزاب لم يمكنهم عمل شيء إلا المراماة بالنبل، وحينئذ بلغ رسول الله ﷺ أن بني قريظة قد نقضوا عهدهم في هذا الوقت الحرج، وأن المنافقين أظهروا ما في أنفسهم من البغضاء والحقد، فاشتد الأمر بالمسلمين.

---

(١) وتلفظ اليوم درعا.

ولكن الله أتمَّ نعمته عليهم بأن أوقع خُلفاً بين رؤساء المشركين ورؤساء اليهود[1]، فخاف بعضهم بعضاً، وصادف ذلك أنْ أرسل الله ريحاً باردةً، في ليلة مظلمة، فاشتدَّ خوف المشركين، وقرَّ رأيهم على الرّحيل وترك المدينة، فرحلوا، وقد امتنَّ الله على المسلمين بهذه النعمة في سورة الأحزاب.

ولما تم رحيل العدو توجه ﷺ بأصحابه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهدهم، وخانوا المسلمين في وقت الحرب فحاصرهم، ولما سلّموا، حكم عليهم (سعدُ بن معاذ) بقتل رجالهم، فقُتلوا جزاء خيانتهم، وبذلك خلت المدينة من اليهود، وأمن المسلمون كيدهم.

وفي السنة السادسة:

كانت عمرة الحديبية[2]، وذلك أن الرسول ﷺ رأى في منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر المسلمين بذلك، وأنَّه يريد العمرة، فخرج ومعه ألف وخمسمائة، ومعه الهدي ليُعلم أنه جاء معتمراً لا محارباً، فلما وصل (عُسفان)[3] علم أن قريشاً لا تُسلِّم بدخوله مكة، فدارت المخابرة بين الفريقين، وأخيراً تم الاتفاق على:

١ ـ أن يرجع ﷺ هذا العام، ويعود من قابل فيعتمر.

٢ ـ وأن توضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات.

---

(١) وكان من أسباب هذا الخلاف إسلام نعيم بن مسعود خفية وتخذيله بين اليهود والمشركين (انظر سيرة ابن هشام).

(٢) إنما سميت عمرة الحديبية لأن النبي ﷺ مُنع من دخول مكة المكرمة وأحصر عند الحديبية، فذبح هديه وحلق، وتحلل من إحرامه في ذلك الموقع.

(٣) عُسْفان: بلد على مسافة مرحلتين (٨٠ كم) من مكة شمالاً على طريق المدينة.

٣ ـ وأن كلَّ من وصل إلى المسلمين من قريش يردونه، ولا يردُّ المشركون من وصل إليهم من المسلمين.

وكتبت معاهدة بين الطرفين بذلك، ودخلت قبيلة (خزاعة) في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت قبيلة (بكر) في عهد قريش[١].

ثم عاد إلى المدينة، وقد أمن كل فريق الآخر، وفي مدة هذه الهدنة كاتب ﷺ ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، فمنهم من أجاب جواباً حسناً كالمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة وغيرهما، ومنهم من أساء الرَّد ككسرى ملك الفرس.

وفي السنة السابعة:

غزا ﷺ حصون خيبر في الشمال الشرقي من المدينة، وقد كان أهلها من اليهود أعظم مهيِّج للأحزاب في غزوة الخندق على حرب المسلمين، ففتح حصونهم، وأدخلها في حوزة الإسلام، ولكنه أبقاها بيد أهلها على النصف مما يخرج منها.

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج بالمسلمين حسب الشروط بينه وبين قريش، فاعتمروا وعادوا[٢].

---

(١) أنزل الله تعالى في هذه الحادثة سورة الفتح، وسمى هذه الهدنة فتحاً مبيناً لأنها كانت سبباً لفتح مكة فيما بعد.

(٢) وفي هذه السنة قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة.

وفي جمادى الآخرة[1] أرسل ﷺ جيشاً بقيادة زيد بن حارثة[2] إلى مؤتة، فلما وصل إليها وجدوا الروم قد جهزوا لهم جمعاً عظيماً من نصارى العرب، فقامت الحرب بين الفريقين حتى قتل زيد، ولما وجد المسلمون قِلّتهم أمام عدوهم حاربوا متقهقرين حتى نجوا[3].

---

(١) وفي البداية والنهاية (٤/ ٢٤١) أن غزوة مؤتة كانت في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

(٢) وقال ﷺ: (إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة). وقد أصيب الثلاثة فاصطلح المسلمون على تولية خالد بن الوليد الذي استطاع أن ينجو بالمسلمين من بين براثن الروم، وذلك أن عدة المسلمين كانت ثلاثة آلاف فقط بينما كان جيش الروم جموعاً كثيرة جداً تقدر بمئتي ألف.

(٣) ومدح النبي ﷺ فعلهم هذا قائلاً: (ليسوا بالفُرّار، ولكنهم الكُرّار).

الدرس الحادي عشر

وفي السنة الثامنة:

كان فتح مكة، وذلك أن قريشاً نقضت العهد، بمساعدتها لبني بكر حلفائهم على خُزاعة حلفاء الرسول ﷺ، فسار بجيش من المسلمين عدته عشرة آلاف مجاهد، حتى إذا قارب مكة، رتَّب الجنود، وأمر أحد قواده[1] أن يدخل مكة من أعلى مكة، ودخل هو من أسفلها في صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان دون مقاومة تُذكر، حتى إذا وصل البيت طاف به سبعاً، واستلم الحجر بمحجنه[2]، وأنزل الأوثان التي كانت حول الكعبة، وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ثم أمر بالآلهة[3] فأخرجت من البيت، وبذلك طهر المسجد الحرام من هذه المعبودات الباطلة ثم جمع ﷺ قريشاً الذين آذوه وحاربوه، وقال لهم: (ما تظنون أني فاعل بكم) قالوا: خيراً! أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[4]، عفا عنهم جميعاً بعد القدرة عليهم، وهكذا تكون أخلاق الأنبياء ومن تبعهم بإحسان.

وبعد أن تمَّ الفتح علم ﷺ أن قبائل من هوازن تجمعت لحربه، فخرج إليهم بالجنود، حتى وافاهم بحُنين، وكان بينهما قتال عظيم انهزم فيه المسلمون أولاً، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف وسط المَعْمَعَة

---

(١) هو خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٢) المحجن: هي العصا المعوجة.

(٣) الأوثان.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى رقم (١٨٠٥٣)، (٩/ ١١٨).

حتى نصرهم الله وهزم عدوهم.

ثم سار إلى الطائف وحاصره مدة، ولكنه عاد عنه لأن فتحه لم يؤذن فيه، وعاد إلى المدينة وفتح الطائف بعد ذلك صلحاً.

ولما رأى العرب دخول قريش في الإسلام دخلت فيه أفواجاً، وإلى ذلك تشير سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٥]

وفي السنة التاسعة:

خرج رسول الله ﷺ بجند المسلمين إلى تبوك لأنه بلغه أن الروم هناك تجْمعُ الجموع لغزوه، ولما وصلوها لم يجدوا هناك أحداً فعادوا.

وفي السنة العاشرة:

حج ﷺ حجَّة الوداع، ولم يحج غيرها، وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة في جموع تبلغ تسعين ألفاً، وفي هذه الحجة خطب خطبته المشهورة بخطبة الوداع، وصّى فيها المسلمين، ومنها:

(أيها النَّاس إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها.

أيَّها النَّاس إنَّما المؤمنون إخوة، لا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن

طيْب نفس، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيَّها النَّاس إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب).

ثم عاد ﷺ إلى المدينة.

وفي أواخر صفر جهَّز ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد إلى (أُبْنَى)[1] حيث قتل زيد بن حارثة للإغارة على من كانوا سبباً في ذلك، ولكن لم يخرج هذا الجيش في حياة رسول الله ﷺ.

وفي أواخر صفر مرض ﷺ وأمر أبا بكر أن يصلي بدله بالناس.

وفي يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول، ٨ يونيو [حزيران] سنة ٦٣٢م[2] لحق ﷺ بربه، بعد أن بلَّغ الرسالة كما حُمِّل، فيكون عمره ﷺ ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام، و٦١ سنة شمسية وأربعة وثمانون يوماً، ودفن صبيحة يوم الأربعاء بعد أن فرغ المسلمون من إقامة خليفة لهم.

---

(١) أُبْنَى: موضع في الشام من جهة البلقاء.

(٢) من السنة الحادية عشرة للهجرة.

الدرس الثاني عشر

أخلاق رسول الله ﷺ

أثنى الله على نبيِّه ﷺ بقوله جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤٠].

وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين تقول: (كان خلقه القرآن)[١].

ووصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

كان ﷺ مع ما آتاه الله من وفرة المال بعد الفتوح لا يستأثر بشيء منه، ولا يمسك منه درهماً، بل يصرفه في مصارفه، ويغني به غيره، حتى توفي ودرعه مرهونة[٢].

وكان حليماً، يحتمل ويعفو عند القدرة، عملاً بقوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولما فعل به المشركون ما فعلوا من الإيذاء طُلب منه أن يدعو عليهم فقال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٩١.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٩١٦) في الجهاد والسير، ومسلم (١٦٠٣) في المساقاة.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٧) في أحاديث الأنبياء، ومسلم رقم (١٧٩٢) في الجهاد والسير.

وحسبك من حلمه وعفوه ما فعله بمشركي قريش بعد الفتح.

أما **الشجاعة والنجدة** فكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجهل: قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ عنه الأبطال والكُماة[1] غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع إلا أُحصيت له فرَّة، وحفظت عنه جولةٌ سواه، وحسبك ما فعله بأُحد وحُنين.

قال علي بن أبي طالب: (كنا إذا اشتد البأس واحمرَّت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)[2].

وأما **الحياء والإغضاء** فكان ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن الهفوات إغضاءً، وكان ﷺ لطيف العِشْرَة رقيق الظاهر، لا يشافه أحداً بما يكره، حياءً وكرم نفس، وكان إذا بلغه عن أَحَدٍ ما يكره يقول: (ما بال أقوامٍ يصنعون كذا أو يقولون كذا)[3].

وأما **حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق** فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علي: كان ﷺ أوسع النَّاس صدراً، وأَصدَقَهم لهجةً، وأَلينَهم عريكةً، وكان يؤلِّف الناس، ولا ينفرهم، ويكرِمُ كريمَ كل قوم، ويولِّيه عليهم، وكان يتفقَّد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أنَّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجةٍ صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسِع النَّاس بسطه وخلقه، فصار

---

(١) الكُماةُ: جمع كَمِيّ وهو الشجاع أو لابس السلاح ـ (القاموس).

(٢) وتتمته: (ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً). رواه أحمد في المسند (١/ ٨٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٢٦) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٥٩٩) وبنحو من هذا اللفظ عند الطبراني في الأوسط.

(٣) ورد عنه ﷺ من ذلك الكثير أوردها الترمذي في الشمائل وابن ماجه في الزهد.

لهم أباً وصاروا عنده في الخلق سواء، وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صخَّاب، ولا فحاش، ولا عيَّاب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

كان ﷺ يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ويكافىء عليها وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويلاعب صبيانهم، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، وقال أنسٌ: (ما التقمَ أحد أُذن النبي ﷺ يحادثه فنحَّى رأسه حتى يكون الرَّجل هو الذي يُنحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ويكرم من دخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ولا يقطع على أحدٍ حديثه، وكان أكثر الناس تبسماً).[1]

وأما الشفقة والرأفة والرحمة بجميع الخلق فقد وصفه الله بها[2]، روي أن أعرابياً طلب منه شيئاً فأعطاه، فقال الأعرابي: ما أحسنت ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا، فأشار إليهم الرسول ﷺ أنْ

---

(١) أخرجه أبو داود: (٤٧٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٣) إلى قوله: «يرسلها الآخر» وقد جمع المؤلف رحمه الله باقي الصفات في وصفه عليه الصلاة والسلام، وليرجع في ذلك إلى كتب الشمائل، فإنها توسعت في ذلك.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

كفُّوا، ثم زاد الأعرابي شيئاً، فقال الأعرابي: أحسنت فجزاك الله خيراً، فقال ﷺ: (مثلي ومثل هذا مثل رجلٍ له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفاراً، فناداهم صاحبُها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإنِّي أرفق بها منكم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام[1] الأرض، فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدَّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإنَّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخلَ النار)[2].

وقال ﷺ: (لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً فإنّي أُحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)[3].

أما **خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم** فكان منها بالمحل الأرفع، رويَ أنَّه كان إذا أُتي بهدية قال ﷺ: (اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقةً لخديجة، إنَّها كانت تحب خديجة)[4].

ووفد عليه وفدٌ فقام يخدمهم بنفسه، فقال أصحابه: نحن نكفيك، فقال: (إنَّهم كانوا لأصحابنا مُكرمين وإني أحب أن أكافئهم)[5].

وكان ﷺ مع علو منصبه، ورفعة رتبته، **أشدَّ النَّاس تواضعاً، وأقلَّهم كبراً**[6] خرج مرة إلى أصحابه وهو متكىء على عصا فقاموا،

---

(١) قمام: جمع قمامة بالضم وهي الكناسة.

(٢) أخرجه البزار ونقله عن ابن كثير في التفسير (٢/ ٤٠٥) في آخر تفسير سورة الأنفال.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٨٩٦) وأبو داود رقم (٤٨٦٠).

(٤) أخرجه أبو بكر الضحاك في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٨٧)، والطبراني في الكبير رقم (٢٣/ ١٢).

(٥) أخرجه أبو بكر القرشي في مكارم الأخلاق رقم (٣٦٧ ص١١١).

(٦) ليس مراد المؤلف من هذه العبارة أن النبي ﷺ كان عنده شيء من كبر، وإنما مراده نفي الكبر عنه ﷺ مطلقاً.

فقال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم)[1].

وكان يعود المساكين ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس.

وأراد رجل أن يقبِّل يده فجذبها منه، وقال: (هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنَّما أنا رجل منكم)[2].

وكان ﷺ أعدل الناس وأصدقهم لهجة وأكثرهم أمانة، وكان يسمَّى بين قريش بالأمين، وكان لا يأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدِّق أحداً على أحد.

وبالجملة فقد انتهت إلى رسول الله ﷺ مكارمُ الأخلاق، اتباعاً لما جاء به القرآن الكريم، وقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

---

(١) وتتمته: (يعظم بعضهم بعضاً) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه بنحوه رقم (٣٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد والبزار في مسنديهما.

الدرس الثالث عشر

معجزاته عليه الصلاة والسلام

معجزات الرَّسول ﷺ التي أظهرها الله على يديه تصديقاً له فيما يبلّغه عن الله كثيرة، وأظهرها شأناً وأوضحها بياناً هو القرآن الكريم، وقد عجزت العرب عن محاكاته بعد أن تحدّاهم بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

فانظر كيف حتَّم عليهم العجز، مع أن القرآن بلسانهم أُنزل، وقد كانوا فرسان الكلام، وهو جلّ فخرهم.

وإعجاز القرآن آتٍ من أربعة أمور:

الأول: حُسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، وبلاغته الخارقة لعادة العرب.

الثاني: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها.

الثالث: ما انطوى عليه من الإخبار بالغيب، مما لم يكن، فوقع كما قال: كقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله في سورة الروم: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [٣ـ٤] وقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ [الصف: ٩].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] فكان ذلك جميعه إلى غير ذلك من الآيات الكبرى.

الرابع: بما أنبأ به من أخبار القرون السَّالفة والأمم البائدة مع أنَّه ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، وكان كثيراً ما يسأله أهل الكتاب عن الشيء لا يعلم به إلا القليل منهم، فيخبره الله به على الوجه الحق.

ومما يدل على أنَّ هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التي تلحق سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، قال تعالى: ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

ومن **معجزاته** ﷺ: نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته، قال أنس: رأيت رسول الله ﷺ وقد حانت صلاة العصر، فالتمس النَّاس ماءً للوضوء، فلم يجدوه، فأُتي ﷺ بوَضوءٍ فوضع يده في الإناء وأمر النَّاس أن يتوضؤا، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال زهاء ثلاثمائة.

وروى مثل هذه الحادثة غيرُ أنس من الصحابة.

ومن ذلك: تكثير الطعام ببركته، روى طلحة أنَّه ﷺ أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراصٍ من شعير جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها ﷺ ففتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول.

وروى مثل ذلك جابر وغيره.

ومنها: إبراء المرضى وذوي العاهات فقد أصيبت يومَ أحد عينُ قتادة بن النّعمان، حتى وقعت على وجنته، فردَّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما.

وقد رمدت عين علي في غزوة خيبر، فمسح عليها، فزال رمدها، إلى غير ذلك من الآثار التي رويت في الصحاح.

ومن ذلك: ما منَّ الله عليه من إجابة دعواته، وما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن؛ فقد وعد أصحابه بالظُّهُور على أعدائهم، وفتح بيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، فكان ذلك كله، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ووفقنا للاقتداء به في أخلاقه الكريمة[1].

---

(١) انظر السيرة بتوسع في كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للمؤلف.

الدرس الرابع عشر

الخلفاء الراشدون

خلافة أبي بكر رضي الله عنه ١١ - ١٣

لما لحق رسول الله ﷺ بالرَّفيق، اجتمع أصحابه من مهاجرين وأنصار في سقيفة بني ساعدة، لإقامة خليفة له، وكان الأنصار يريدون أن يكون الخليفة منهم، فروى لهم أبو بكر حديث رسول الله ﷺ: (الأئمة من قريش)[١]، فأذعنوا وتركوا المطالبة بالخلافة، وكان بنو هاشم يريدونها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن الأغلبية كانت لأبي بكر، لأنَّ رسول الله ﷺ خلّفه في الصلاة وقت مرضه، فقال المؤمنون: رضيه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا، فبويع بها لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، ولما انتهت بيعته صعد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيها الناس! قد ولّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فتابعوني، وإن صدفت[٢] فقوموني، الصِّدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ له حقه، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذُّل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٤٦٧).

(٢) في (اللسان) الصدوف: الميل عن الشيء.

إنفاذ جيش أسامة:

أول عمل بدأ به أبو بكر تسيير جيش أسامة بن زيد الذي كان النبي ﷺ جهزه إلى (أُبنى)[1]، وأوصاه قبل مسيره بهذه الوصية: (لاتخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعزقوا[2] نخلاً، ولا تحرّقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم قوماً فحصوا[3] أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه، فإذا قُرِّب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله، يا أسامة اصنع ما أمرك نبي الله ﷺ ببلاد قضاعة[4]، ثمَّ ائت آبِلَ لا تقصر من أمر رسول الله ﷺ).

فسار أسامة مع جيشه، حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ، فبعث الجنود إلى بلاد قضاعة، وأغار على (أُبْنى) فسبى وغنِمَ، ورجع إلى المدينة ظافراً، بعد أن غاب عنها أربعين يوماً.

---

(١) أبنى: موضع في الشام من جهة البلقاء، ومرَّت الإشارة إلى هذا الجيش سابقاً.

(٢) لا تعزقوا نخلاً: أي لا تقطعوا نخلاً.

(٣) فحصوا أوساط رؤوسهم: كأنهم حلقوا أوسطها وتركوا حولها.

(٤) كان لقضاعة مُلْك ما بين الشام والحجاز إلى العراق.

أخبار الرِّدة:

أُصيب الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بمصيبة عُظمى لو لم تتداركها حكمة أبي بكر وشجاعته لضَعُف الدِّين وتشتت أمر المسلمين، فإنَّ العربَ ما لبثت أن ارتدت بعد أن علمت بوفاة الرسول ﷺ، ولم يبق أحد منهم متمسكاً بدينه، إلا قريشاً بمكة، وثقيفاً بالطائف، وقليلاً من غيرهم، وكان المخالفون على قسمين، فمنهم التارك للدين بالمرة، ومنهم المعطِّل للزكاة.

وكان من رأي أبي بكر قتال مانعي الزكاة كما يقاتل المرتدين، لأن تعطيل الزَّكاة طعن على الصلاة، بل على جميع منازل الدين، وكان عمر بن الخطاب يخالفه أولاً في الرأي، ثم اقتنع بعدُ بأن رأي أبي بكر هو الصواب.

فشمَّر أبو بكر عن ساعد الجد، غير مبال بهذه الأهوال الجسام مع قلة جيشه، وكثرة عدوه واثقاً بوعد الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

جنَّد أحد عشر جيشاً يقودها رجال من أبطال المسلمين الذين يبذلون أنفسهم في نصرة دين الله[1]، فساروا تكلؤهم عناية الله، وكان النصر

---

(١) رتبهم كما يلي:
١ ـ خالد بن الوليد: ووجَّهه إلى طليحة الكذاب ومالك بن نويرة.
٢ ـ عكرمة بن أبي جهل: ووجَّهه إلى مسيلمة الكذاب.
٣ ـ شرحبيل بن حسنة: ووجَّهه خلف عكرمة ثم إلى بني قضاعة.
٤ ـ المهاجر بن أبي أمية: ووجَّهه إلى جنود الأسود العنسي.
٥ ـ حذيفة بن محصن: ووجَّهه إلى أهل دبا بِعُمان.
٦ ـ عرفجة بن هرثمة: ووجَّهه إلى أهل مهرة.

حليفهم في كل واقعة لهم، حتى أعادوا كلّ مرتد إلى الدين، وحتى بذل الزكاة من منعها، فجُمعت العرب على الإسلام، وألّف الله كلمتهم.

أمر العراق:

ولمّا تم له ذلك وجَّه همته لتعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى، التي كان ملوكها وأشرافها يرون في أنفسهم أنَّهم أرقى درجة من عامتهم، فتصوروهم عبيداً لهم ليس لهم في أنفسهم شيء، فساموهم الخسف[1]، وعاملوهم بالجَور، وكانت الممالك المجاورة للإسلام إذ ذاك: مملكة الفرس في الشرق، ومملكة الروم في الشمال والغرب، فابتدأ أبو بكر بأمر الفرس، وانتدب خالد بن الوليد ليكون أول من يضع أساس الدين في البلاد الفارسية وذلك في بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة، وأمره أن يبدأ بالأُبلَّة وهي ثغر من ثغور الفرس على الخليج العربي عند مصب دجلة، وانتدب (عياض بن غنم) ليغزو الفرس من شمال العراق، وأمره بأن يبدأ بـ (المُصَيَّخ) وهي قرية على نهر الفرات شمال العراق.

فسار خالد إلى الأُبلَّة فافتتحها، ولم يزل سائراً من الجنوب إلى الشمال يفتح البلاد التي بقرب الفرات، حتى وصل إلى الفِراض، وهي على التخوم بين العراق والشام، وعند ذلك صرف أبو بكر خالداً إلى

= ٧ ـ سويد بن مقرّن: ووجَّهه إلى تهامة اليمن.

٨ ـ العلاء بن الحضرمي: ووجَّهه إلى البحرين.

٩ ـ طريفة بن حاجز: ووجَّهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ عمرو بن العاص: ووجَّهه إلى قضاعة.

١١ ـ خالد بن سعيد: ووجَّهه إلى مشارف الشام.

(١) أي: أنزلوا بهم الذل.

الشَّام مدداً لجند الشام، فاستخلف خالدٌ على جند العراق (المثنى بن حارثة الشيباني) وجعل مركزه بالحيرة، وبذلك تقلَّص ملك الفرس عن الجزء الغربي من نهر الفرات، وهو ما يعبر عنه بريف العراق.

أمر الروم:

بعد أن جهزَّ أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق جهّز خالد بن سعيد بن العاص ووجهّه إلى مشارف الشام، فسار إليها، وهناك قابلته جيوش الشام الكثيرة فاستمد أبا بكر، وحينذاك جهز أربعة جيوش، يقودها أربعة من أبطال المسلمين[1]، فاجتمعت هذه الجنود في (اليرموك)، وهو وادٍ في الجنوب الغربي من الشام، وهناك قابلتهم جنود الروم، فاستمد المسلمون أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد وهو في العراق يأمره بأن يسير مدداً للجنود الإسلامية باليرموك، فقَدِمَها وسلمه القواد الأربعة الإمرة عليهم، فرتب الجيوش، وصدم بها جنود الروم صدمة قوية هزمتهم شر هزيمة، وفي أثنائها جاء بريد المدينة بوفاة أبي بكر رضي الله عنه[2].

وفاة الصديق رضي الله عنه:

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة حُمَّ أبو بكر رضي الله عنه، ولما اشتد عليه المرض عهد بالخلافة إلى عمر رضي الله عنه، وهذا كتاب عهده: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به أبو بكر

---

(١) وهم: ١ ـ عمرو بن العاص: وأرسله إلى فلسطين.
٢ ـ شرحبيل بن حسنة: وأرسله إلى الأردن.
٣ ـ يزيد بن أبي سفيان: وأرسله إلى البلقاء.
٤ ـ أبو عبيدة بن الجراح: وأرسله إلى حمص.

(٢) ومن أعمال أبي بكر رضي الله عنه عهده لزيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم من الرقاع والعسيب ومن صدور الرجال وحفظها بين دفتين وحفظها لديه.

خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت، ولكل امرىء ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1] [الشعراء: ٢٢٧].

ثم توفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة[2].

---

(١) هذا العهد هو بمثابة ترشيح للخلافة لا تولية إذ لم يَصِر عمر رضي الله عنه خليفة بهذا العهد بل بالبيعة العامة التي أخذها من المسلمين.

(٢) انظر خلافة الصديق رضي الله عنه بتوسع في إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للمؤلف.

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣ - ٢٣

بويع بالخلافة صبيحة اليوم الذي توفي فيه أبو بكر، ولما بويع صعد المنبر وقال: (إنما مثل العرب مثل جمل آنف[١] اتبع قائده، فلينظر قائده أين يقوده، أمَّا أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق).

أمر العراق في عهد عمر رضي الله عنه:

لما توفي أبو بكر ولّى عمر قيادة جيش العراق لأبي عُبيد بن مسعود الثَّقفي، فكانت بينه وبين الفرس وقائع حتى قُتل رحمه الله، ولما بلغ ذلك عمر، وأنّ الفرس قووا جنودهم لإخراج المسلمين من بلادهم قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، واستنفر الرؤساء من العرب، فنفروا بقبائلهم حتى تكوَّن منهم جيش ضخم، واختار لقيادته (سعد بن أبي وقاص)، فسار سعد حتى أتى القادسية وهي بقرب الكوفة، ومن هناك أرسل جماعة من الكبار لدعوة الفرس إلى الدخول في الإسلام أو الرِّضا بحكمه مع دفع الجزية، فلم تُجْدِ هذه الدعوة، وجنَّد مَلِكُهم جنداً عظيماً قدره مائة ألف بقيادة أكبر قواده (رستم)، فجاء هذا الجيش حتى وقف إزاء المسلمين بالقادسية، وهناك كان بين الفريقين أعظم موقعة، استمر القتال فيها ثلاثة أيام بلياليها، وفي النهاية كان النصر للمسلمين، وانهزم الفرس هزيمة منكرة، وبعد ذلك

---

(١) الجمل الآنف: هو الجمل الذليل المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب، ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً، وهذا تشخيص حسن للأمة فإنها كانت سامعة مطيعة.

سار (سعد) يفتح ما في طريقه من البلاد حتى وصل (المدائن) وهي قاعدة ملك الفرس على شاطىء دجلة ففتحها، ونزل (قصر كسرى) وجعلها قاعدة له.

وكان من رأي عمر رضي الله عنه أن قاعدة المسلمين لا ينبغي أن يفصلها عنه بحر، فأمر سعداً باختيار مكان على الشاطىء الغربي للفرات، فاختير موضع الكوفة، وحينذاك أُسست هذه المدينة سنة (١٧) هجرية، ثم مُصِّرت بعدها مدينة البصرة، وبعد ذلك أرسل سعد السرايا لفتح بلاد الفرس الداخلية، فسارت تفتح البلاد والأقاليم.

ولم يتم فتح بلاد الفرس على يدي (سعد) لأن عمر رضي الله عنه عزله، وولّى (النعمان بن مقرن)، ولم يمض زمن عمر حتى كان ما فتحه المسلمون من بلاد الفرس وما يجاورها يُحدُّ غرباً بالفرات، وينتهي شرقاً إلى بلاد السند وما وراء النهر، وتحد جنوباً بالخليج العربي، وتنتهي شمالاً إلى بلاد الخزر وأرمينية وبلاد الروس.

اجتمع المسلمون مع الفرس في كثير من الوقائع، لم تنكس لهم راية، ولم يفلَّ لهم جيش مع قلتهم، وكثرة عدوهم، وكان خصومهم أعلم بتعبئة الجيوش منهم، فلِمَ إذاً هذه الانتصارات الباهرة؟ إنها نتيجة اتحادهم وائتلاف قلوبهم، حتى صاروا أجساماً متعددة، لهم قلب واحد، ورأي واحد، وهو تعميم عدل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.[١٠]

أمر الروم

توفي أبو بكر والمسلمون فائزون في وقعة اليرموك، فجاء (عمر) وولّى على الجند أبا عبيدة عامر بن الجراح بدل خالد بن الوليد، ولم

يمنع ذلك خالداً أن يسير مجاهداً تحت إمرة أبي عبيدة، لأنَّهم قومٌ لم يكن مقصدهم الرياسة والاسم.

فسار أبو عبيدة إلى دمشق، وحاصرها حتى فتحها، ثم فتح حمص صلحاً، ثم المعرَّة، ثم اللاذقية، ولما رأى ملك الروم الجد من المسلمين، ترك الشام، وسار إلى القسطنطينية آيساً من النَّجاح، ولم يزل المسلمون يفتحون البلدان الشامية حتى صار معظمها في حوزتهم.

وسار عمرو بن العاص لحصار بيت المقدس، ولما رأى أهله أنَّهم لا قِبلَ لهم بالمقاومة طلبوا الصُّلح على شرط أن يكون المتولي لعقده أمير المؤمنين، فكتب عمرو إليه بذلك، فخرج عمر من المدينة حتى أتى بيت المقدس، وصالح أهله وكتب لهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، ولما دخل عمر كنيسة القمامة[1]، وجلس في صحنها، حان وقت الصلاة، فقال للبترك[2]: أريد الصلاة، فقال له صلِّ موضعك فامتنع، وصلَّى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، ولما قضى صلاته قال للبترك: لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدُ، وقالوا: هنا صلى عمر.

ثم ولّى رضي الله عنه الولاة على الشَّام بعد أن قسمها ولايات، وعاد إلى المدينة.

وفي عهد عمر فتحت مصر، وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون مع الروم في مدة عمر، الذي كان عصره أحسن العصور الإسلامية، لما كان عليه من العدل والرأفة برعيته، والتفقد لأحوالهم.

---

(١) هي كنيسة (القيامة) اليوم، وقال ياقوت الحموي: والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد، وكان في ظاهر المدينة يقطع بها أيدي المفسدين ويصلب بها اللصوص اهـ (معجم البلدان ٤/ ٣٩٦).

(٢) البطريرك.

وعمر هو أول من اتخذ بيتاً للمال، وكان إيراده من زكاة المسلمين، وجزية أهل الذمة، ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين، وكانت تصرف على مستحقيها بتمام العدل، وكان لا يأخذ منه لنفسه إلا ما يصلحه هو وعياله بالمعروف.

وفي عهده أحدث المسلمون التاريخ، وجعلوه من بدء الهجرة لأنها تاريخ عزّ الإسلام، ولكنهم قدموا ميعادها إلى أول المُحرم، ليكون التاريخ من أول السنة العربية.

استشهاد عمر رضي الله عنه:

لم يصَبِ المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ بمصيبة أعظم من مقتل عمر، جنى عليه غلام مجوسي اسمه (أبو لؤلؤة) ـ كان للمغيرة بن شعبة ـ وهو قائم يصلي.

ولما علم الصحابة أنَّ الضربة قاضية قالوا له: أوص يا أمير المؤمنين.

فقال: أتحمل أمركم حياً وميتاً، لوددت أنَّي أحظى منها الكفاف، لا عليَّ ولا ليَ، وإنْ أستخلفْ فقد استخلفَ من هو خير مني، وإن أترككم فقد تركككم من هو خير مني، ثم قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمى: (علياً، وعثمان، والزبير، وسعداً، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف).

ثم توفي رضي الله عنه في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية[1].

---

(١) وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الثامنة عشرة للهجرة حصل طاعون في الشام، توفي فيه كثير من الصحابة، منهم أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ=

الدرس السادس عشر

خلافة عثمان رضي الله عنه ٢٤ - ٣٥

اجتمع رجال الشُّورى، وهم الستة الذين نصَّ عليهم عمر رضي الله عنه في وصيته لاختيار أمير المؤمنين، فكانت أغلبية الأصوات لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فبويع بالخلافة مفتتح سنة ٢٤ للهجرة.

كان سنُّ عثمان حينما بويع فوق السَّبعين، وكان يغلب عليه الحياء والرقة والرأفة، فجاء بعد عمر، وهو الشديد الذي جرَّد سيف العدل على كل من حاد عن الصراط السويّ، فكانت أخلاق عثمان سبباً لقيام فتنة في الأمصار، بواسطة رجال لا همَّ لهم إلا تفريق كلمة المسلمين، وكان مركز الفتنة بالبصرة والكوفة ومصر، وجعلوا محورها فضل علي على عثمان، وأنَّ علياً هو الأحق بالخلافة من غيره، وأنَّ رسول الله ﷺ أوصى إليه بها، ومن أظلم ممن لم يُجِزْ وصيَّة رسول الله ﷺ [1]، ولما أرادوا البدء بالشر طعنوا على ولاته، وذموهم بكل ما يمكنهم، وذهبت وفود منهم إلى المدينة يطلبون في الظاهر عزل هؤلاء الولاة، وفي الباطن يريدون التخلص من عثمان، وبعد مفاوضات لم تأت بنتيجة استولوا على المدينة وحاصروا عثمان في داره، ثم قتلوه ظلماً وعدواناً في الشهر الحرام والبلد الحرام، لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة

= بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة.

(١) وطعنوا عليه بطعون أخرى منها: أنه خالف سيرة الشيخين في حياته الشخصية، وأنه ولّى أقاربه، وقد انبرى للردِّ على هذه الطعون الإمام أبو بكر العربي في كتابه (العواصم من القواصم).

٣٥هـ، وهذا هو التاريخ المشؤوم الذي كان فيه فتح باب الشر والشقاق بين المسلمين، وكان عمره ٨٢ سنة.

لم يكن في مدته رضي الله عنه كثير من الفتوح إلا في السنين الست الأولى من حكمه فقد فتح شمال أفريقية وجهة دنقلة في عهد عبد الله ابن سعد بن أبي سرح والي مصر، وفتحت بعض جهات في بلاد الفرس، التي كانت قد عصت[1]، أما في المدة الأخيرة له فكانت الفتن، وهي متى حلَّت بأُمة أقعدتها عن كل عمل صالح.

خلافة علي رضي الله عنه ٣٥ - ٤٠

بعد أن قتل عثمان بايع أكثر أهل المدينة عليّ بن أبي طالب، وقد امتنع عن بيعته بعض الصحابة، ولكنَّه رضي الله عنه رأى أن بيعته قد تمت برضى معظم أهل المدينة، فصعِد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيُّها النَّاس؛ إنَّ الله أنزل كتاباً هادياً، يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير، ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله

---

(١) وفي أيامه رضي الله عنه قتل (يزدجرد) آخر ملوك الفرس، وبموته انقضت الدولة الساسانية.
وفي أيامه كان أول غزو للمسلمين بالبحر حيث فتحت جزيرة قبرص وكانت معركة ذات الصواري المشهورة بين المسلمين والروم. وذكر السيوطي: أنه فتح (الري) سنة أربع وعشرين، وفتح من الروم حصوناً كثيرة، وفي سنة ست وعشرين فتحت سابور، وفي سنة سبع وعشرين قبرص وأرجان ودرابجرد وإفريقية سهلها وجبلها، وفي سنة تسع وعشرين فتحت اصطخر و نسا وفي سنة ثلاثين فتحت جور وبلاد كثيرة من أراضي خراسان وفتحت نيسابور وطوس وسرخس ومرو وبيهق، وفي سنة ثلاث وثلاثين فتحت بلاد النوبة وغير ذلك. ومن أعماله رضي الله عنه بناء المسجد النبوي وتوسعته، وتوسعة المسجد الحرام، ومن أجل أعماله أنه نسخ المصاحف ووزعها على الأمصار.

تعالى، يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضَّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرىء مسلم إلا بما يجب، وبادروا أمرَ العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإنَّ الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦] ثم نزل.

وفي أول إمارته عزل جميع ولاة عثمان وولي غيرهم، ولكن الأمة في الأمصار لم تكن متفقة على خلافة علي، فإنَّ بعضها كان لا يريده لعدم قيامه بنصر عثمان على من ثاروا عليه، وقد امتنع معاوية من الدخول في بيعته، وأعلن ذلك، فصمم عليٌّ على حربه، وبينما هو يستعد لذلك إذ بلغه خبر خروج أم المؤمنين عائشة ومعها الزبير وطلحة، وكلهم ناقمون على قتلة عثمان، ويريدون المطالبة بدمه، ولما علم عليٌّ بذلك رأى أن يبدأ بإرجاع هؤلاء، ثم يستعد لمعاوية، فسار من المدينة ماراً بالكوفة، حتى أتى البصرة، وبها جند عظيم مع الزبير وطلحة، فجرت بين الفريقين مخابرات في الصلح، وقد كاد يتم لولا أن فريقاً ممن يريدون بقاء الفتنة ـ وهم الذين ثاروا على عثمان ـ بدؤوا بالقتال من غير إرادة علي وخصومه، فاستعرت الحرب بين الفريقين، وكانت حرباً شديدة انتهت بانتصار علي[1]، ولما تمَّ له

---

(١) وقد سميت هذه الموقعة بوقعة الجمل وذلك أن هول الموقعة كان حول الجمل الذي يحمل هودج السيدة عائشة، وقد قيل بأنه قتل حوله أكثر من سبعين ولم يتفرق الناس عنه حتى عقر ووقع أرضاً. (انظر عائشة والسياسة) للأستاذ سعيد الأفغاني.

الأمر أرسل أم المؤمنين إلى المدينة وعاد إلى الكوفة التي جعلها مقرَّ خلافته، ثم سار منها بجيوشه لمحاربة معاوية وأهل الشام، ولما علم بذلك معاوية سار إليه أيضاً في جنوده، والتقى الجيشان في سهل صفين على نهر الفرات شرقي حلب، وقد كان بين الفريقين مراسلة لم تنته بخير، فلم يبق بد من الحرب فالتحم هذان الجيشان في جملة مواقع، وكانت الموقعة العظمى بينهم في ١٠ صفر سنة ٣٧هـ، وقد كادت الدائرة تدور على جند الشام، ولما رأوا ذلك رفعوا مصاحفهم، ونادوا أهل العراق إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وهو بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق، ولما رأى ذلك أصحاب عليٍّ وقد أشرفوا على الانتصار اختلفوا، ففريق يقول: نجيب إلى كتاب الله، وفريق يقول: هذه خدعة، ولكنّ طلاب الإجابة إلى كتاب الله كانوا أكثر، فاضطر علي إلى موافقتهم، واتفق الطرفان على تحكيم رجلين، واحد من أهل العراق وهو أبو موسى الأشعري[1] وواحد من قبل أهل الشام وهو عمرو بن العاص، يجتمعان بدومة الجندل في رمضان، ثم عاد كل من علي ومعاوية بجنده إلى مقره، الأول إلى الكوفة، والثاني إلى دمشق، ولما حان الأجل اجتمع الحكمان وجرت بينهم مكالمة في أمر اجتماعهما، وأخيراً اتفقا على خلع علي ومعاوية ولكنهما لم يتفقا على من يوليانه، وافترقا على ذلك من غير أن يفيدا المسلمين شيئاً، ولما بلغ علياً هذا الحكم لم يرضَ به، وبقدر ما كان التحكيم مفيداً لمعاوية كان مضراً بعليّ لأن جماعة من جنده عابوا التحكيم وخرجوا عليه محاربين له، وهم الذين يسمون بـ (الخوارج)، فاشتغل علي بحربهم، وفي ذلك

---

(١) وهو عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي من أهل اليمن استعمله سيدنا عثمان بن عفان على الكوفة وهي من العراق لذلك قيل: من أهل العراق.

الوقت كان معاوية يجدُّ في أخذ البلاد المبايِعة لعلي، فأخذ مصر والحرمين واليمن، وعليٌّ مشغول عنه بالخوارج.

وفي السنة الأربعين من الهجرة ائتمر ثلاثة من الخوارج على أن يقتلوا علياً ومعاوية وعمرو بن العاص، وتواعدوا أن يكون ذلك في ليلة الجمعة سابع عشر من رمضان.

فأما عبد الرحمن بن ملجم الذي كان من نصيبه قتل علي فذهب إليه وهو خارجٌ إلى الصلاة، فضربه على جبهته بسيف مسموم، فأصابه إصابة خطيرة، وكانت منها وفاته.

وأما الذي ذهب لقتل عمرو بن العاص، فإنه ذهب إلى مصر، وانتظر خروجه في الليلة المتفق عليها، فلم يخرج لمرض به وخرج نائبه[1] فقتله الخارجي[2] ظناً أنَّه عمرو.

وأما الذي ذهب لمعاوية[3] فإنه ضربه ضربة لم تقتله.

خلافة الحسن بن علي ٤٠ - ٤١

ولما قتل علي رضي الله عنه مال جنده إلى بيعة ابنه الحسن بن علي، فبايعوه وطلبوا منه التجهز لحرب معاوية، ولكن رأى أن الأليق بالمسلمين أن يطفئوا شعلة النار التي بينهم ويتركوا القتال، فراسل معاوية في طلب الصلح، واشترط لذلك شروطاً، فأرسل إليه معاوية بصكٍ مختوم ليس به كتابة ليكتب الحسن فيه ما شاء من الشروط،

---

(١) وهو حبيب بن خارجة السهمي. فقال قاتله كلمته المشهورة: أردت عَمراً وأراد الله خارجة.

(٢) وهو عمر بن بكر التميمي، وقد قبض عليه وقتل.

(٣) وهو البرك بن عباد التميمي وقد أصاب معاوية في إليته، وقُبض عليه فقتل.

فاشترط شروطاً أهمها: تأمين جيشه، وشيعة علي كلهم، فرضي معاوية.

وبذلك تنازل الحسن، وانحسمت هذه الفتن[1] وبويع معاوية بالخلافة بيعة صحيحة[2].

(١) كان ذلك في ربيع الآخر سنة ٤١هـ وسمي هذا العام بعام الجماعة وبذلك تحقق في سيدنا الحسن قول النبي ﷺ: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين» أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد. وسكن الحسن رضي الله عنه المدينة إلى أن توفي سنة ٤٩هـ، وقيل سنة ٥٠هـ، ودفن بالبقيع.

(٢) انظر للتوسع المرتضى علي بن أبي طالب لأبي الحسن الندوي.

الدرس السابع عشر

الدولة الأموية

تُنسب هذه الدولة إلى أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف وهو[1] الأب الرابع لرسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

وتبتدىء من اليوم الذي سلّم فيه الحسن بن علي بن أبي طالب الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية في ربيع الآخر سنة ٤١ هـ.

وقد تولى الخلافة منهم ثلاثة عشر خليفة من أسرتين:

الأولى: الأسرة السفيانية وعدد خلفائها ثلاثة.

والثانية: المروانية وعدد خلفائها عشرة.

وهذه سلسلتهم:

---

(١) أي: عبد مناف.

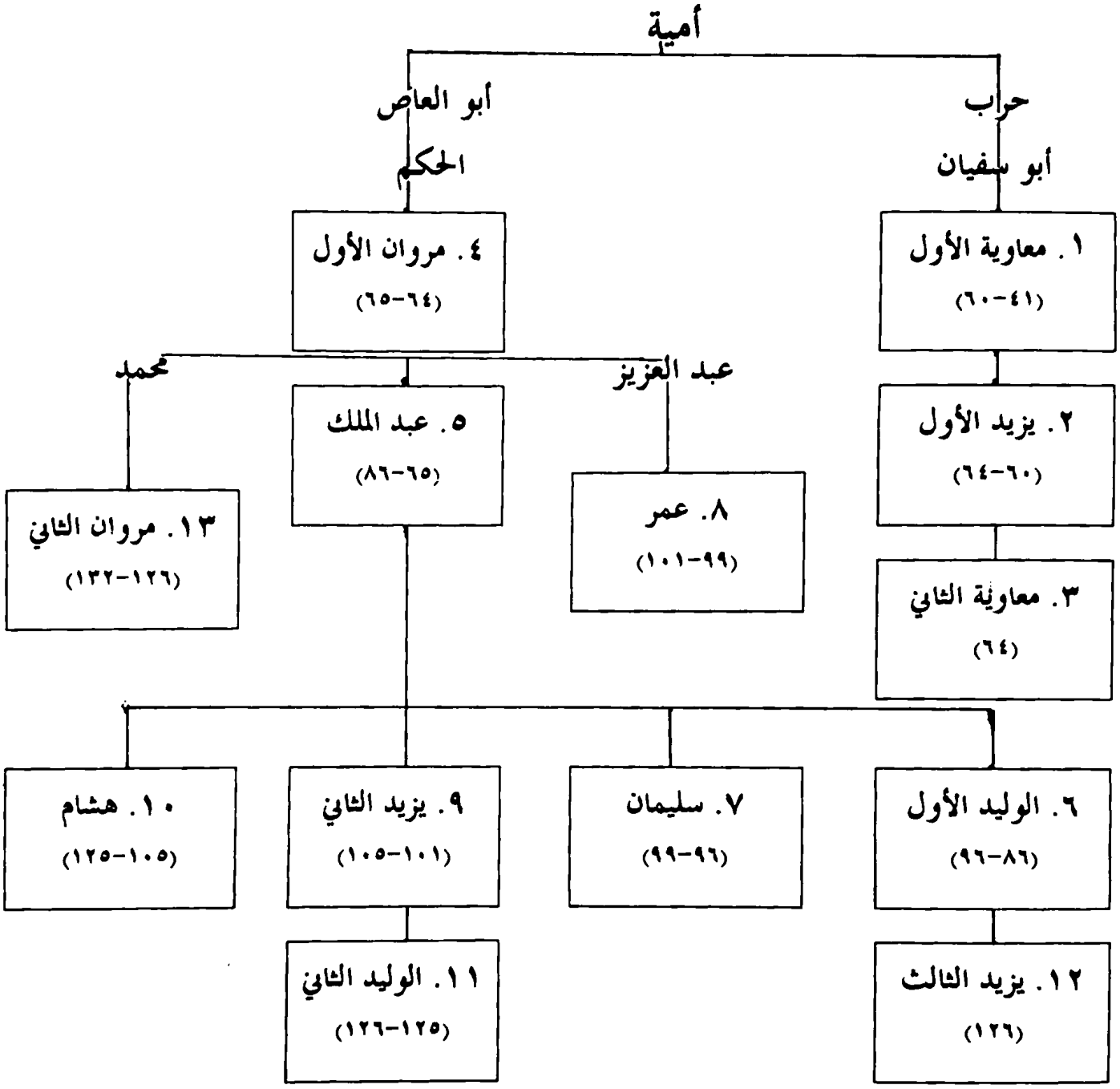

الشكل رقم (١) سلسلة الخلفاء الأمويين

واستمرت دولتهم إلى أواخر ذي الحجة سنة (١٣٢هـ) حيث انتهت بقتل (مروان بن محمد) ثالث عشرهم على يد بني العباس.

استلمت هذه الدولة البلاد الإسلامية في آسيا وإفريقيا.

وحدودها كما يأتي:

تُحدُّ شمالاً: ببلاد التُركستان، وبحر قزوين، وخط يمر بتركية آسيا، ماراً بأواسط أرمينية، وينتهي إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط بالقرب من أنطاكية، وبالبحر الأبيض المتوسط.

وتحدُّ غرباً: بالبحر الأبيض المتوسط وبلاد المغرب وصحراء إفريقيا الكبرى، والبحر الأحمر.

وتحدُّ جنوباً: ببلاد السودان والمحيط الهندي.

وتحد شرقاً: ببلاد السند والبلوجستان، وبلاد التركستان.

الأسرة السُّفيانية

١ ـ معاوية الأول ٤١ - ٦٠

تولّى (معاوية) الخلافة والأمَّة مفترقة القلوب متشعبة الأهواء، فجمع قلوبها بما آتاه الله من الحكمة وكرم الأخلاق، فكان حليماً لا يكاد أحد يغضبه، كريماً لا يبالي بما أنفق في سبيل تقريب الأنفس إليه، حتى قال عنه عبد الله بن عباس: (ما رأيت أخلق للملك من معاوية)[1].

---

(١) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٣)، والطبري في تاريخه (٣/ ٢٦٩)، وابن الأثير في الكامل (٣/ ٣٧٤).

واستعان بكبار الرجال في إدارة الولايات كـ: (زياد بن أبي سفيان) أمير العراقين[1]، و(عمرو بن العاص) أمير مصر، وغيرهما فأمَّنُوا السُّبل وأخافوا أهل الشر.

وكان له أُسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط لإخافة الروم.

وفي عهده فُتحت جزيرة رودس، وشمال إفريقيا (تونس والجزائر).

وأرسل جيشاً لفتح القسطنطينية يقوده ابنه (يزيد)، فحاصرها مدَّة، ولكنه لم يفتحها[2].

توفي رضي الله عنه سنة (٦٠هـ)[3] بعد أن عهد لابنه يزيد[4].

٢ ـ يزيد الأول ٦٠ – ٦٤

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، وفي عهده اضطرب حبل الوفاق بين الأمة.

فقد حصلت ثلاث حوادث عظام جعلت اسمه ممقوتاً إلى الآن:

الحادثة الأولى: قتل الحسين رضي الله عنه

لما بويع يزيد امتنع الحسين من بيعته، وعلى أثر ذلك جاءته كتب

---

(١) العراقين: الكوفة والبصرة، (انظر معجم البلدان ٤/ ٩٣).

(٢) كان حصارها سنة ٤٨هـ وكان في الجيش جمع من الصحابة، وتوفي أثناء الحصار أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ودفن عند سور القسطنطينية.

(٣) وفي أيامه بنيت القيروان، وتم تأسيس ديوان التسجيل ومصلحة البريد في الولايات كافة.

(٤) انظر للتوسع (معاوية بن أبي سفيان تأليف منير الغضبان).

من أهل العراق يدعونه إلى الرحلة إليهم ليبايعوه ويخلعوا يزيد، فاغترَّ رضي الله عنه بهذه الكتب وسافر إليهم بأهله وعياله من غير أن يُعِدَّ للأمر عدته، ولما وصل (كربلاء) قابله جيش عراقي أرسله إليه أمير العراق عبيد الله بن زياد فدعوه للتسليم فلم يقبل فقاتلوه فقتل رحمه الله[1].

الحادثة الثانية: وقعة الحرَّة[2]

بعد سنتين من بيعة يزيد قام رجال من أهل المدينة يدعون أهلها لخلع يزيد، ومبايعة واحد منهم، من غير أن يزنوا بين قوتهم وقوة خصمهم، فأرسل إليهم يزيد جيشاً تحت إمرة مسلم بن عقبة المري فجاءهم وحاصرهم، ثم خرجوا إليه فقاتلهم قتالاً شديداً، قتل فيه معظم رجالهم، وبعد هزيمة من انهزم منهم أباح المدينة ثلاثة أيام، وهذه أول مرة أهينت فيها المدينة وهي حرم رسول الله ﷺ، وتبعة ذلك على أهلها الذين قاموا في هذا الأمر طائشين مغرورين بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة[3].

الحادثة الثالثة: حصار الكعبة

كان عبد الله بن الزبير قد امتنع عن بيعة يزيد واحتمى بالحرم المكي، فأمر يزيد مسلم بن عقبة أن يسير إليه بعد وقعة الحرة، فسار

---

(١) في يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ٦١هـ وكان عمره ٥٩ سنة، وقد استشهد معه في ذلك اليوم ١٦ رجلاً من أهل بيته و٦٤ رجلاً من أنصاره.

(٢) كانت وقعة الحرة يوم ٢٨ ذي الحجة ٦٣هـ. قال ابن حزم: وهي أكبر مصائب الإسلام.

(٣) لاتبعة على أهل المدينة فإنهم كانوا مجتهدين في خلع من لا يرونه أهلاً للخلافة، وإنما التبعة في ذلك على من أباح المدينة أو كان له سبب في انتهاك حرمتها.

إليه وحاصره، ولكن يزيد مات[1] في أثناء هذا الحصار، فرجع الجيش إلى الشام ولم يحدث شيئاً.

فقد رأيت أن مخالفة سنة رسول الله ﷺ ومخالفة سنة العقل تدعو إلى الفشل وتفريق الشمل، فمن سنَّة رسول الله ﷺ أن الأمير إذا خالف أحكام الشرع نُصح بالمعروف، فإذا لم يعتدل ولجَّ في غيِّه وتحتم الخروج عليه وخلعه، لم يكن ذلك إلا بعد تكوين قوة يمكنها مناوأته، أمَّا التغرير بالنفس وبجماعة المسلمين فقلما ينتج خيراً.

٣ ـ معاوية الثاني (٦٤)

لما توفي يزيد سنة ٦٤هـ بايع كبار الدولة ابنه معاوية، ولكنه رأى نفسه غير قادر على القيام بأمر الأمة تماماً فاستقال[2]، والعاقل لا يزج بنفسه في مضيق لا يقدر على الخروج منه.

---

(١) وذلك في ربيع الأول سنة ٦٤هـ وله نيف وثلاثون سنة فقط.

(٢) بقي في الخلافة نحو أربعين يوماً، ثم جمع الناس، وخطب فيهم، وقال: (.. إني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجد، فابتغيت لكم مثل ستة الشورى فلم أجد، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم..).
ثم أوصى الضحاك بن قيس أن يصلي بالناس حتى يقوم لهم خليفة، ولم يلبث معاوية أن توفي من مرض ألم به، وبموته خرجت الخلافة من الأسرة السفيانية إلى الأسرة المروانية.

الدرس الثامن عشر

الأسرة المروانية

٤ ـ مروان بن الحكم ٦٤ – ٦٥

بعد استقالة معاوية الثاني قوي أمر عبد الله بن الزبير [١]، وكادت الخلافة العامة تتم له لولا أن قام مروان بن الحكم مطالباً بها، وكان لبني أمية أنصار شدوا أزره، فحارب أنصار ابن الزبير في (مرج راهط)[٢] وغلبهم فاستولى على بلاد الشام ثم دخلت مصر في حوزته، وقد عاجله الموت فلم يتم له ما أمل[٣].

٥ ـ عبد الملك بن مروان ٦٥ – ٨٦

وقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك، وهو حازم يقظٌ ذو عزيمة ثابتة، جعل جلَّ همه كسر شوكة ابن الزبير الذي بويع له بالخلافة في الحجاز والعراق وما بينهما، فذهب بنفسه وحارب مصعب بن الزبير أمير العراق من قبل أخيه عبد الله فقهره وقتله، وبذلك دان له العراق وأهله.

ثم أرسل من قبله الحجاج بن يوسف الثقفي أميراً على الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير، فذهب إليه وحاصره بمكة ورماها بالمجانيق، ولم يزل الحصار مستمراً حتى خرج ابن الزبير بعد نفاد

---

(١) دعا الناس إلى مبايعته بالخلافة فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ.

(٢) مرج راهط أول مشارف حوران متاخمة لجزيرة العرب، وكانت من حدود قبيلة غسان شمال الأردن حالياً.

(٣) مات مروان بن الحكم بعد عشرة أشهر من خروجه على ابن الزبير وذلك في الثالث من رمضان سنة ٦٥ هـ.

الأقوات فحارب مستقتلاً حتى قتل رضي الله عنه[1]، وبقتله دانت جميع البلاد الإسلامية لعبد الملك بن مروان بعد هذه الفتن الطويلة التي جعلت عبد الملك يرضى أن يهادن ملك الروم على جُعل يؤديه عبد الملك، ولو لم يكن المسلمون مشغولين بأنفسهم ما وهنوا هذا الوهن.

وفي عهد عبد الملك وسعت الحدود الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والتركستان.

وفي عهده أيضاً بنى الحجاج بن يوسف مدينة (واسط)[2].

وتوفي عبد الملك منتصف شوال سنة ٨٦هـ[3].

٦ ـ الوليد الأول ٨٦ - ٩٦

فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك والمسلمون متفقة كلمتهم، فكانت كل قوتهم على عدوهم، وكان هذا الهدوء سبباً لكثير من الفتح الخارجي والإصلاح الداخلي.

فمن جهة الشرق فتحت بخارى وسمرقند بواسطة القائد العظيم: (قتيبة بن مسلم الباهلي).

وفتحت السند بواسطة محمد بن القاسم بن محمد الثقفي.

---

(١) كان ذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين للهجرة، ومنذ ذلك التاريخ صحت خلافة عبد الملك عند الفقهاء، وكانت مدة خلافة ابن الزبير رضي الله عنه تسعة أعوام وشهرين ونصف واستشهد وله من العمر ثلاث وسبعون سنة.

(٢) ومن أعماله بناء مسجد الصخرة، ونقل الدواوين إلى العربية وضرب الدينار الإسلامي.

(٣) انظر التوسع (عبد الملك بن مروان للدكتور ضياء الدين الريس).

ومن جهة الشمال فتح كثير من حصون الروم.

وفتح القائد (موسى بن نصير) بلاد الأندلس.

أما الإصلاح الداخلي، فإنَّ الوليد أمر عمر بن عبد العزيز أمير المدينة من قبله بعمارة مسجد النبي ﷺ فوسَّعه حتى صار مئتي ذراع في مثلها، وأدخل فيه حجر أزواج رسول الله ﷺ، وساعد مَلِكُ الروم على هذه العمارة بألف مثقال ذهباً وأربعين جملاً محملة من الفسيفساء وأرسل مائة عامل من قبله.

وأمر الوليد بإصلاح الطُّرق وعمل الآبار، ومنع المجذومين من الخروج على الناس وأجرى لهم الأرزاق.

وعلى الجملة كان زمن الوليد من أحسن أزمان بني أمية، كثر فيه العاملون لمصلحة الأمة لأنهم ارتاحوا من الفتن الداخلية والشقاق المزري بالأمم.

وتوفي الوليد في النصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ[1].

٧ ـ سليمان ٩٦ - ٩٩

فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك.

وفي أول عهده قُتل القائد العظيم (قتيبة بن مسلم)، إثر فتنة قام بها قاصداً خلع سليمان أنه رآه منصرفاً عنه إلى خصمه (يزيد بن المهلب) ومريداً توليته بدله، ولما علم رؤساء الجند الذين مع قتيبة أنَّه يريد خلع

---

(١) في أيام الوليد وصلت الدولة إلى ذروة الفتوحات، واتسعت حركة العمران اتساعاً كبيراً، ومن أجلّ آثاره العمرانية سوى توسعة المسجد النبوي: بناء مسجد دمشق الكبير، (انظر للتوسع الوليد بن عبد الملك للدكتور حسني خربوطلي).

الخليفة عاجلوه فقتلوه، وما دام الملوك يقدِّمون الهوى على مصلحة الرعية فإنهم بذلك يوقعون العداوات بين الرؤساء والقواد، وفي ذلك ضرر عظيم عليهم وعلى أممهم لو اعتبروا.

ومما عيب على سليمان سخطه على القائد (موسى بن نصير) فاتح الأندلس، وتغريمه قدراً عظيماً من المال حتى صار يمر على الناس يستجديهم مع ما قام به من العمل العظيم[1].

وفي عهده حاصر (مسلَمة بن عبد الملك)[2] القسطنطينية المرَّة الثانية.

وتوفي سليمان سنة ٩٩هـ.

٨ ـ عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١

فخلفه الرَّجل الصالح عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكان برعيته رؤوفاً، فهدأت الأمة واشتغلت بعلمها ودينها.

وقد امتاز عصره بما كان فيه من جمع الأحاديث النبوية، وكانت قبل ذلك لا تتجاوز صدور حفَّاظها، فأمر الإمام المحدِّث الشهير محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري القرشي[3] فجمع ما أمكنه جمعه منها.

---

(١) هذا الكلام فيه نظر، فبعض الروايات تشير إلى أن سليمان بن عبد الملك كان يستشير موسى بن نصير، وفي البداية والنهاية (٩/ ١٧٤) أنه حج معه فمات موسى في المدينة، وقيل بوادي القرى.

(٢) مسلمة بن عبد الملك: كان أميراً ميمون النقيبة ولي العراق وأرمينية وحاصر القسطنطينية وعمره (٢٤ سنة) قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته، توفي سنة (١٢٠هـ).

(٣) هو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب من قريش، أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، توفي سنة ١٢٤هـ. سير أعلام النبلاء.

وفي عهده كُثر الفقهاء والمحدثون، ولو دام عهده طويلاً لانتفع المسلمون كثيراً ولكنه توفي في رجب سنة ١٠١ للهجرة[١].

٩ ـ يزيد الثاني ١٠١ – ١٠٥

فقام بعده يزيد بن عبد الملك، ولم يكن في محبة الإصلاح كعُمَر، فعمد إلى كل شيء صنعه عمر مما يخالف هواه فردَّه.

وخرج عليه (يزيد بن المهلب) بالبصرة، فجهَّز إليه الجيوش تحت إمرة (مسلمة بن عبد الملك)، وكان بين الفريقين حرب تطيش لها الألباب، وانتهت بقتل (يزيد بن المهلب)، ولم يَخفِ اللهَ يزيدُ بن عبد الملك فقتل الأسرى من أقارب ابن المهلب وأولاده.

وفي عهده فتح الجرَّاح بن عبد الله الحكمي كثيراً من بلاد الخزر وكان والياً لأرمينية.

وفي أواخر شعبان سنة ١٠٥هـ توفي يزيد بن عبد الملك فخلفه أخوه هشام.

---

(١) كانت وفاته في دير سمعان في حمص وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك، ويقال: عبد العزيز بن عمر، انظر (تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٢)

الدرس التاسع عشر

١٠ ـ هشام ١٠٥ - ١٢٥

كان هشام من أعقل بني أمية، قال في حقه عبد الله بن علي العباسي: (جمعت دواوين بني أمية فلم أرَ ديواناً أصح ولا أصلح للعامة من ديوان هشام)[١].

وتفقَّد بعض ولده فلم يحضر صلاة الجمعة، فقال له: ما منعك الصلاة؟ قال: نفقت[٢] دابتي، قال: أفعجزت عن المشي؟ فمنعه الدابةَ سنة.

ومما يصلح أَنْ يكون عبرة من حوادثه أنه شتم مرة رجلاً من الأشراف، فقال له الرجل: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض، فاستحيا منه وقال: اقتص مني، قال: إذاً أنا سفيه مثلك، قال: فخذ مني عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال فهبها الله، قال: هي لله ثم لك، فنكس هشام رأسه واستحيا، وقال: والله لا أعود لمثلها أبداً.

وكانت جيوش الشرق في عهده تغزو الترك المجاورين لهم وتنتصر عليهم وقد قتلوا ملكهم خاقان، وشرَّدوهم أعظم تشريد.

وفي عهده خرج زيد بن علي بن الحسين بالكوفة فقُتل[٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢١٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٥٣).

(٢) نفقت: أي ماتت.

(٣) كان ذلك سنة (١٢١)هـ، وفي سنة (١٢٢)هـ خرج البربر واستولوا على القيروان =

وفي عهده نظّمت الجمعيات السرية للدعوة إلى بني العباس، وإزالة دولة بني أمية.

ورئيس الدعاة أبو مسلم الخراساني.

والإمام الذي يدعون إليه إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

وتوفي هشام في أواخر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ.

١١ ـ الوليد الثاني ١٢٥ - ١٢٦

فخلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وكان يُتهم ببعض اللهو الذي يحرِّمه الدِّين من شرب الخمر والخلاعة والمجون، فلم يرَه الناسُ أهلاً للخلافة، فثاروا عليه وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ.

١٢ ـ يزيد الثالث[1] (١٢٦)

وخلفه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ولم تطل مدته إلا ستة أشهر، فإنه توفي في ذي الحجة سنة ١٢٦هـ، وفي عهده اضطرب حبل الوفاق بين أهل خراسان، وهم من قبائل مختلفة فصار كل منهم يتعصب لقبيلته.

وقد أوجد ذلك الشقاق فرصة عظيمة لأبي مسلم صاحب الدعوة العباسية، فإنه صار يشعل نار العداوة، ويميل لأحدهم حتى يضعف الآخر، فقوي بذلك مركزه وتزعزع أمر بني أمية.

= وطنجة، وتم القضاء على هذه الثورة سنة (١٢٤)هـ بعد معارك عنيفة.

(١) وكان يلقب (يزيد الناقص) وذلك لأنه ألغى عطاء الجنود والقواد التي كان (الوليد ابن يزيد) زادها لكسب تأييدهم وكان يقال: (الأشج والناقص أعدلا بني أمية)، والأشج هو عمر بن عبد العزيز.

١٣ ـ مروان الثاني ١٢٦ - ١٣٢

ولما توفي يزيد أراد بعض ذوي الأمر تولية إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك[١]، ولكن مروان بن محمد بن مروان والي أرمينية لم يُرضِه ذلك، فجاء إلى الشام وقاتل دون الخلافة، حتى أخذها لنفسه على غير رضا من بني أمية أنفسهم.

وبذلك صارت الفرقة بين الأسرة المالكة، فانشق عن مروان سليمان بن هشام بن عبد الملك مع إخوته ومواليه، فاضطر مروان أن يحاربه هو ومن معه، فاجتمعا قرب قُنسرين، وكانت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها سليمان، وقتل من نصرائه نحو ثلاثين ألفاً.

كان ذلك كلّه وما بخراسان من انقياد أهلها لأبي مسلم الخراساني ودخول الكوفة في الدعوة العباسية سبباً لإحضار أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إلى الكوفة وبيعته بها خليفة على المسلمين.

ولما تمَّت بيعته أرسل جيشاً بقيادة عمه عبد الله بن علي للإجهاز على ما بقي من قوة مروان، فسار إليه ولاقاه بالزَّاب[٢] ـ وهو أحد فُروع دجلة ـ فانهزم مروان هزيمة منكرة، ولم يزل منهزماً يتنقل من بلد إلى بلد والجيوش العباسية تتبعه حتى وصل قرية (بوصير) إحدى قرى مصر الوسطى[٣] وهناك لاقته منيته.

---

(١) لم يُعدَّ (إبراهيم) هذا من الخلفاء لعدم تمام الأمر له وعجزه حتى على أصحابه.

(٢) كانت وقعة الزاب في ٢ جمادى الآخرة/ ١٣٢هـ، وتبعد الزاب (١٢٥)كم عن الموصل على نهر دجلة.

(٣) بوصير اسم لأربع قرى في مصر، وبوصير التي قتل فيها مروان هي المسماة بـ (بوصير قوريدس).

وبه كان ختام الدولة الأموية في أواخر ذي الحجة سنة ١٣٢هـ، فكانت مدتهم تسعين سنة ونحو ثمانية أشهر.

وتمتاز هذه الدولة بأنها كانت عربية محضة، لم يكن لغير العنصر العربي فيها حول ولا سلطان.

وفي عهدها اتسعت حدود المملكة الإسلامية من جهة الشرق والغرب والشمال،. فأضافت إلى أملاكها: بلاد السند، وجزءاً عظيماً من بلاد التركستان حتى مدينة كاشغر على حدود الصين، ومن جهة الشمال أخذوا كثيراً من حصون الروم[1] ومعاقلهم فكانت شواتيهم وصوائفهم لا تملُّ (الشواتي الجنود التي تحافظ على الحدود وتغزو العدو في الشتاء، والصوائف في الصيف)، وكان لهم أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط، جعل دولة الروم تهابهم وتحذر جانبهم.

وفي عهدها اشتغل الناس كثيراً بالعلوم الدينية والأدبية واللغوية، فدوِّن فيها أول ما كتب في الحديث والفقه، لأن الفقه في ذلك الزمن كان دائماً يمزج بالكتب ولا يكتب وحده.

وكان لعلماء العربية وشعرائها في هذه الدولة حظٌّ عظيم.

ومما يعاب عليها أن خلفاءها هم الذين رأوا الأمة أقل من أن تشاورهم في أمر وتقدِّم لهم نصيحة من النصائح.

وكان في عهدهم كثير من أمراء الجور كالحجاج بن يوسف وغيره، ولذلك لم يعظم اسم هذه الدولة في أنظار العامة من المسلمين مع ما لها من الآثار الحسنة في توسيع البلاد.

---

(١) كما أخذوا الأندلس التي هي حسنة من حسنات بني أمية.

الدرس العشرون

الأندلس

بلاد الأندلس هي قطعة من أوروبا في الجنوب، يفصلها عن إفريقيا بوغاز (مضيق) جبل طارق، وعن فرنسا في الشمال سلسلة جبال البرانس.

فتحها المسلمون في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٢هـ، والوالي على إفريقيا الأمير موسى بن نصير.

خطر ببال موسى أن يجيز البحر ويفتح هذا القطر العظيم، فكاتب الوليد في ذلك، واتفقا على أن يرسل إليها السرايا حتى يعرف ما هي عليه، فبعث مولى له اسمه (طريف) في أربعمائة رجل ومعهم مائة فرس فسار في أربع سفائن، فخرج في جزيرة بالأندلس سميت بعدُ باسمه، ثم أغار على الجزيرة الخضراء، فظفر بها ورجع سالماً سنة ٩١هـ، فلما رأى ذلك موسى اختار مولى له كان على مقدمات جنوده يقال له: طارق بن زياد، فبعثه في سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر، فساروا في البحر وقصدوا إلى ذلك الجبل الذي سمي بعد باسم جبل طارق، ثم نزل من الجبل إلى الصحراء، وافتتح الجزيرة الخضراء.

ولما بلغ ملك الأندلس (رذريق) ما فعله طارق جمع إليه جموعه، وفي ذلك الوقت أنجد موسى طارقاً بخمسة آلاف، فتم من معه اثنا عشر ألفاً، ولكن الذين مع (رذريق) كانوا نحو مائة ألف، ولكن شتَّان بين القلوب المجتمعة التي تقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، والقلوب

المفترقة التي لم تكن محبة لملكها، بل دفعها لتقاتل عنه فقط، فوا أسفاً على الملوك والأمراء الذين لا يتحببون إلى رعاياهم بالعدل والبعد عن دنايا الأمور، فإنهم حين الشدّة لا يجدون من تلك الرعية من يشد أزرهم، هكذا كانت الحال مع (رذريق)، فإن جيشه انهزم أمام قوة عدوه وضعف هو نفسه فانهزم وغرق في (نهر لكّة) ـ من أعمال (شذونة) ـ وهو الذي كان عليه هذه الحرب، وكانت هذه أعظم حرب لقيها المسلمون، ولما علم بهذا النصر (موسى بن نصير) كتب إلى طارق يستوقفه حتى يحضر إليه، ونهض من القيروان سنة ٩٢هـ بعسكر ضخم، ولم يزل حتى جاز البحر إلى الأندلس وقابل طارقاً، ثم أتمَّ موسى الفتح إلى (برشلونة) في جهة الشرق، و(أربونة) في الجوف، و(صنم قادس) في الغرب، ودوَّخ أقطارها، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويخوض بلاد الأمم الأوربية النّصرانية مقاتلاً حتى يصل إلى دار الخلافة، ولكن دون ما أراد صعوبات لا يمكنه احتمالها، وهي على ما نظن فكرة خيالية لم يدرسها موسى تمام الدرس، ولذلك أصاب الوليدُ بن عبد الملك في أنه ثنى عزم موسى عن ذلك.

ولما تم فتح البلاد وضع موسى الحامية بثغورها واختار (قرطبة) قاعدة لها، وأقام فيها ابنه عبد العزيز نائباً عنه، وانصرف هو راجعاً لمقابلة الوليد ومعه الهدايا والذخائر، فمات الوليد قبل أن يقدم[1]، وصادف قدومه ولاية سليمان بن عبد الملك، فنقم عليه ونكبه بعد حُسن أثره في الفتح، وثار أهل الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه.

---

(١) في البداية والنهاية (٩/ ١٧٤) أن موسى بن نصير قدم دمشق قبل موت الوليد، ولم يزل مقيماً فيها حتى مات الوليد وتولى سليمان. وانظر كذلك (٩/ ١٧٩) وفيها مشورة موسى بن نصير لسليمان بن عبد الملك.

وصارت بلاد الأندلس بعد فتحها ولاية تابعة لبني أمية يليها أمير من قبلهم، تارة يولّيه الخليفة رأساً، وتارة يوليه عامل الخليفة بالقيروان.

وفي هذا العهد كان الولاة يتممون فتح مالم يفتح من أعمال الأندلس، فافتتحوا (برشلونة) من جهة المشرق، وحصون (قشتالة) وبسائطها من جهة الجوف، وأوى من بقي من سكان البلاد الأصليين الذين لم يرضوا بحكم المسلمين إلى جبال (قشتالة) و(أربونة) وأفواه الدروب فتحصنوا بها، فأهمل المسلمون شأنهم لقلة عددهم.

مكثت البلاد على هذا الشكل ستاً وأربعين سنة، والمسلمون بها في حروب مستمرة مع البلاد التي لم تفتح من الأندلس حتى أتموا ذلك، وقد خطر لأحدهم وهو الأمير (عبد الرحمن الغافقي) أن يجتاز الحدود الفاصلة بين الأندلس وفرنسا، ولكن أعداءه تجمعوا عليه وهو في جند قليل، فأصيب عسكره في رمضان سنة ١١٤هـ في موضع يعرف ببلاط الشهداء.

ولما ضعف أمر بني أمية بالشرق وعجزوا عن حفظ ما بين أيديهم فضلاً عن قواصيهم تركوا أمر الأندلس فبقيت فوضى، وكان بأهلها ذلك العيب العظيم الذي أفسد أمر خراسان من قبل، وهو التعصب لفصائلهم، فكان منهم عرب من مُضر وعرب من اليمن، وكل طائفة تريد الاستئثار بالرياسة والسلطة.

وأخيراً اتفقوا على أَنْ يتداولوا الإمارة يليها المضريون سنة واليمنيون سنة، وقدَّم المضريون على أنفسهم (يوسف بن عبد الرحمن الفهري)، فلما استتم سنة ولايته جاءه اليمنيون حسب الاتفاق يطالبون

بحقهم، فبيَّتهم يوسف بإحدى قرى قرطبة، وقتل منهم عدداً عظيماً، واستبد بإمرة الأندلس.

وفي ذلك الوقت كانت الدولة الأموية قد سقطت بالشرق، وظهرت الدولة العباسية فعاملوا بقايا الأمويين بغاية ما يكون من الفظاعة، وصاروا يقتلون من أوقعه سوء حظه في أيديهم فهربوا في أقاصي البلاد، وكان ممن هرب (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان)، خطر بباله أن يسير إلى الأندلس فيؤسس بها ملكاً، وهذا مما يدل على علو همته وعظيم ثباته، فقد خرج وحيداً طريداً لا يملك شيئاً ليس معه إلا مولاه، ومع ذلك حدثته نفسه أن يدخل مثل هذا القطر فيجدد به دولة دالت[1]، ولكنها النفوس العظيمة تزيدها الحوادث المؤلمة عظماً وثباتاً، ولا سبيل لليأس إليها.

(١) أي دارت عليها الأيام، والله تعالى يداولُها بين النَّاسِ أي: يُديرُها؟. اللسان والتاج (دول).

الدرس الحادي والعشرون

أمراء الأندلس من بني أمية

كان من حسن حظ (عبد الرحمن) ذلك الخلاف بين المضريين واليمنيين، وتقدم الأولين بخيانتهم فقام اليمنيون بمساعدته لما جاز إليهم سنة ١٣٨ هـ، فكانت بينه وبين يوسف الفهري حروب انتصر فيها وتمَّ له ملك الأندلس، وبه ابتدأت الدولة الأموية بالأندلس.

وليها منهم خمسةَ عشر رجلاً، اثنا عشر قبل الدولة العلوية بالأندلس وثلاثة بعدها.

وانتهت دولتهم سنة ٤٢٢هـ بوفاة آخرهم هشام بن محمد الملقَّب بـ (المعتمد على الله)[١].

وهذه سلسلتهم:

---

(١) توفي المعتمد سنة (٤٢٨)هـ، ولكن كان خلعه سنة (٤٢٢)هـ وبه انقرضت الدولة الأموية في الأندلس.

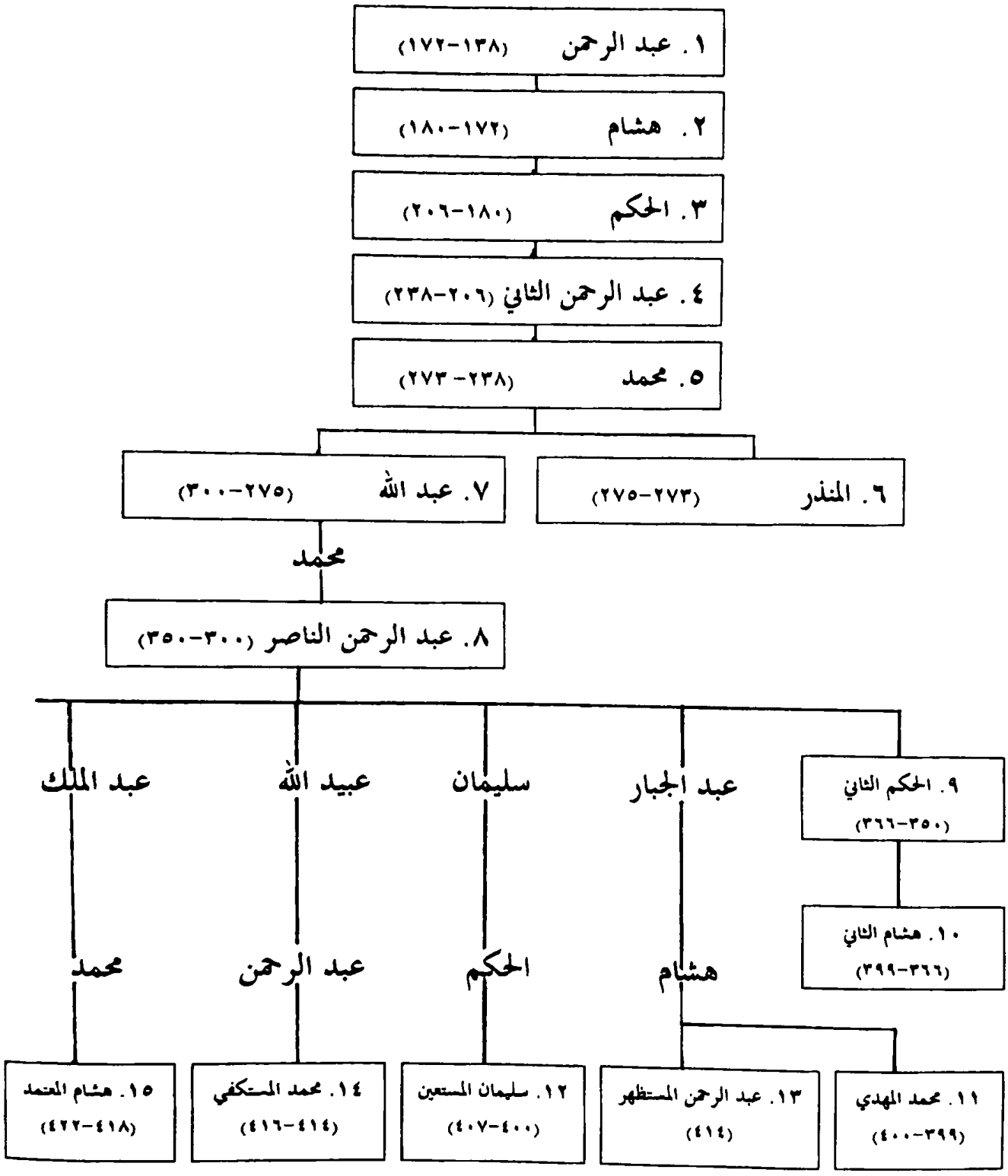

الشكل رقم (٢) أمراء الأندلس من بني أمية

١ ـ عبد الرحمن الأول ١٣٨ - ١٧٢

كان يلقب بعبد الرحمن الداخل، وهو مؤسس دولة بني أمية بالأندلس، ومعيد مجدهم بعد أَنْ اندثر، وكان يسمى بـ (الأمير)، وعلى ذلك درج من بعده من عقبه، حتى كان عبد الرحمن الثالث الملقب بالنَّاصر فتسمى بـ (أمير المؤمنين).

بدأ عبد الرحمن بتنظيم البلاد لأنها كانت غفلاً من كل نظام ملكي، دوّن الدواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنَّد الأجناد، وظهر أمام مجاوريه وغيرهم من الملوك بمظهر القوة ورجحان العقل حتى هابه كبير الدولة العباسية (أبو جعفر المنصور) وكان كثيراً ما يعجب به، وكان في نيته أن يجدد ملك بني أمية بالمشرق ولكن كان دون ذلك عقبات شديدة مات دون تذليلها، وهو الذي أدار سوق قرطبة، وبنى بها القصر والمسجد الجامع، توفي سنة ١٧٢هـ.

٢ ـ هشام ١٧٢ - ١٨٠

ولي الملك بعد أبيه بعهد منه، وكان إذ ذاك والي (ماردة)، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور، فيسألون الناس عن سير عُمَّاله ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حَيفٌ من أحدهم أَوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد.

وهو الذي جدَّد بناء قنطرة قرطبة، ثمَّ قال لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ فقال: يقولون ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه، فآلى هشام على نفسه ألا يسلك عليها، فلم يمرَّ عليها بعدُ، ووفَّى بما حلف عليه.

ومن أحسنِ ما يستفاد من هذه الجملة حرية الأمة، وصدق الوزير وإخلاص الأمير، بهذا تعتز الأمم وتسود.

ورحم الله الإمام مالكاً حيث قال لما وصف له هشام: (نسأل الله تعالى أَنْ يزيِّن موسمنا بمثل هذا)[1].

ومع هذه الصفات لم يكن يهمل جهاد العدو، ليكسب أمته القوة والهيبة عند من يجاورها.

توفي سنة ١٨٠هـ.

٣ ـ الحكم بن هشام ١٨٠ - ٢٠٦

في صدر ولايته انهمك في لذّاته، فاجتمع أهل الورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي ـ صاحب الإمام مالك وأحد رواة الموطأ عنه ـ وغيره من أهل العلم، فثاروا به وخلعوه، فحاربهم وشَتَّتهم، ولكنَّه استفاد من هذا الدرس فانتبه إلى ملكه، وكان بعد ذلك أفحل بني أمية بالأندلس، وأشدهم إقداماً ونجدة وكان يشبه بأبي جعفر المنصور العباسي في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء.

حضر عنده مرة الفقيه: (زياد بن عبد الرحمن) فغضب الحكم على خادم له وأمر بقطع يده، فقال له زياد: (أصلح الله الأمير، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه: (أنَّ من كظم غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة)، فأمر أن يمسك على الخادم ويعفى

---

(١) للتوسع انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري (٣٣٧١) و(٢/ ١٢٣).

عنه، وقال: (آلله إن مالكاً حدثك بهذا؟ فقال زياد: آلله، إن مالكاً حدثني بهذا)[1].

وفي عهده كانت مجاعة شديدة بالأندلس فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات.

توفي سنة ٢٠٦هـ.

ولعل ما فعل من البرِّ في أخر أمره يقوم بما كان منه من المعاصي بادىء أمره، فيخرجه التاريخ كفافاً لا عليه ولا له.

٤ ـ عبد الرحمن الثاني ٢٠٦ - ٢٣٨

ولي بعد أبيه بعهد منه، وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكثرت الأموال عنده، واتخذ القصور والمنتزهات، وجلب إليها المياه من الجبال، وجعل لفضله مصنعاً اتَّخذه الناس شريعة[2]، وأقام الجسور، وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة.

وفي عهده كانت مواصلة بينه وبين ملك القسطنطينية (نوفلس)، بعث إليه الملك سنة (٢٢٥هـ) بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق عليه المأمون الخليفة العباسي وأخوه

---

(١) أصل الحديث في الآحاد والمثاني رقم (١٠٩/٥) وحلية الأولياء (٣٥٦/٥) و(٥٥/٨).

(٢) المصنع: الحوض الذي يجمع فيه الماء. الشريعة: مورد الشاربة، والمعنى أنه جعل للفاضل من المياه التي جلبها إلى القصور حوضاً تتجمع فيه من أجل أن يرده الناس للسقيا.

المعتصم، فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزَّال[1] من كبار أهل الدولة، فأحكم بينهما الوصلة.

فانظر كيف يستفيد العدو من التفريق بين المتناظرين حتى يشتغل أحدهما بالآخر فيربح هو.

وكان لهذا الأمير ولعٌ بالغناء لا يؤثر عليه لذَّة، حتى إنَّه لما قدم عليه من العراق (زرياب)[2] المغني الشهير خرج بنفسه لاستقباله، وزرياب هذا هو الذي أدخل صناعة الغناء بالأندلس.

توفي سنة (٢٣٨هـ).

٥ ـ محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ – ٢٧٣

ولي بعد أبيه بعهد منه.

وفي عهده خالف عليه أهل طليطلة من رجاله، ومن سوء رأيهم، استعانوا بعدوِّهم ملك جليقية وملك البشكنس[3]، وهما يتمنيان مثل ذلك ليكون لهما مدخل إلى بلاد المسلمين، وسرعان ما أعاناهم، ولكنَّ محمداً سار إليهم بنفسه فأوقع بهم، وبلغ من ذهبوا في هذه الحرب من أهل طليطلة ومن أعانهم عشرين ألفاً، فيا بؤس من يستنجد

---

(١) هو يحيى بن الحكم البكري الجياني، المعروف بالغزال شاعر مطبوع امتاز نظمه بالفكاهة المستملحة، وكان جليل القدر مقرباً من أمراء الأندلس، له ديوان شعر، توفي سنة ٢٥٠هـ (الأعلام ج٨ ص١٤٣).

(٢) زرياب هو علي بن نافع مولى المهدي العباسي، نابغة الموسيقى في زمنه، وهو الذي جعل العود في خمسة أوتار بعد أن كان أربعة، وكان شاعراً مطبوعاً حسن الصوت، غنى في صباه بين يدي هارون الرشيد، وتوفي نحو ٢٤٣هـ الأعلام (٥/ ٢٨).

(٣) البشكنس: نسبة إلى جبل هناك يدعى جبل (البشكنس) انظر نفح الطيب (١/ ١٣١).

بعدوِّه الذي يتمنَّى ذِلَّته وخِزْيه، إنَّه لا ينجده إلا ليتمكن منه في يوم قريب، وحقيقة أنَّ طليطلة كانت أول بلاد الأندلس سقوطاً في يد ذلك العدو المستعان به.

توفي (سنة ٢٧٣هـ).

٦ ـ المنذر بن محمد ٢٧٣ – ٢٧٥

لم تطل مدته كثيراً فلم يظهر له كبير عمل.

توفي (سنة ٢٧٥هـ).

٧ ـ عبد الله ٢٧٥ – ٣٠٠

تولى عقب أخيه، وفي عهده اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوَّار والمتغلبين، فضعفت ماليَّته لأنَّه اضطر أن يُنفق على جنوده كثيراً من المال ليصلح من حال ولايته.

توفي سنة (٣٠٠هـ).

٨ ـ أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ – ٣٥٠

ولي بعد جده عبد الله بعهد منه.

وهو أول من تسمى بـ (أمير المؤمنين) في الأندلس[١].

وجد البلاد مضَّطرمة بنيران المتغلبين، فأَطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، فاستقامت له البلاد.

وكان كثير الجهاد والغزو بنفسه، إلى أن انهزم جيشه في واقعة بينه وبين (ردمير) ملك الجلالقة، بسبب خيانة أحد المخالفين على الناصر المسمى (أمية بن إسحق)[٢] فإنه كان يدل (رِدمير) على ما يصاب منه المسلمون.

وبعد هذه الواقعة امتنع عبد الرحمن عن الغزو بنفسه، وصار يردد الغازين تحت إمرة قوَّاده فأذلُّوا من يجاورهم من الممالك الصغيرة بالأندلس، وبما أظهره من علوِّ الهمة وتمام القُوّة مدت إليه ملوك أوروبا من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من روما والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسِّلم، ووصل إلى سُدَّته الملوك المتاخمون لبلاده من أهل جزيرة الأندلس بجهات (قشتالة) و(بنبلونة) وما ينسب إليها من الثغور الجوفية، فقبَّلوا يده، والتمسوا

---

(١) كان ذلك (سنة ٣٢٥هـ) زمن الخليفة الراضي العباسي، وإنما تسمى الناصر بأمير المؤمنين لاختلال أمور أمير المؤمنين العباسي وضعفه.

(٢) أمية بن إسحاق: انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧/ ١٤٥) فقد أورد قصة عصيانه.

رضاه، واحتقبوا جوائزه، وامتطوا مراكبه.

ولما وفد على (الناصر) رسل ملك القسطنطينية احتفل لهم احتفالاً عظيماً حتى هالهم ما رأوا من فخامة المُلك وقوة الخلافة، وكان ترجمة عنوان الكتاب الذي أرسله الملك في سطر منه:

(قسطنطين ورمانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم).

وفي سطر آخر:

(العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النَّسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه).

وكان الناصر مع قوته وأبهة ملكه يحترم العلماء احتراماً يجعلهم يشعرون بسمُوٍّ ما كَلَّفوا أنفسهم به من إحياء النفوس الميتة بنشر نور العلم، ومتى شعروا بذلك بذلوا جهدهم في تأدية ما عليهم فارتقت الأمة.

ذلك كان الحال في عهد الناصر، فإن العلماء كثروا وعزّوا، وبنسبة كثرتهم يكثرُ المتعلِّمون والمؤدِّبون الذين يعرفون قدر الحياة العالية فيسعون لنيلها من الطريق الذي يوصل إليها.

ومن حسن حظ الأندلس في تلك الأيام أن طالت مدَّة الناصر، فإنه تولى سنة (٣٠٠هـ) وتوفي سنة (٣٥٠هـ) ومع ذلك فإنه أحصى أيام سروره فبلغت أربعة عشر يوماً، وهكذا حال الملوك الذين تشغلهم مصالح أممهم عن اللهو والملذَّات الشخصية، تراهم يجدون في سعادة الأمة سعادتهم وفي سرورها سرورهم، مهما عاد ذلك على أجسامهم بالتَّعب والشقاء.

٩ ـ الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦

ولي بعد أبيه بعهد منه، وفي أول عهده طمع الجلالقة في الثغور لوفاة النَّاصر، فأراهم عين القوة، واقتحم بجنوده بلادهم، فبادروا إلى

عقد السلم معه لما رأوا منه هذه القوة، ووفد عليه الأمراء منهم، فاحتفل لوفادتهم واشترط عليهم لقبول الصلح هدم الحصون القريبة من ثغور المسلمين، ولم يتأخر عن الوفادة عليه أحد من الأمراء المجاورين له.

وكان الحكم محباً للعلوم، مكرِّماً لأهلها، جمَّاعاً للكُتب في أنواعها، جمع مالم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله.

قال خازن كتبه: إنَّ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرساً.

وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر.

وكان حسن السيرة، مكرماً للقادمين عليه، مع علم جمٍّ، شدد في إبطال الخمر من مملكته تشديداً عظيماً.

توفي رحمه الله بقرطبة سنة (٣٦٦هـ).

١٠ ـ هشام الثاني الملقب بالمؤيد ٣٦٦ - ٣٩٩

ولي الخلافة بعد أبيه وسنّه تسع سنين، وكان القائم بأمره الوزير (محمد بن أبي عامر)[١] فمال إلى الاستئثار بالدولة، ولكنَّه رأى كبارها يزاحمونه في الأمر، فمكر بهم وقتل بعضهم ببعض، وبذلك تم له التغلب على الخليفة، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون، وهكذا حال أهل الاستبداد من الرجال، يحبّون أن تبقى الأفكار كامنة في رؤوس المفكرين، لا يباح لأحد منهم أن يقول كلمة حق خوفاً على هذه السلطة الوهمية أن تندك أمام قوة الحق.

---

(١) هو المنصور أبو عامر، انظر ترجمته في المعجب (١/ ٣٨) وما بعدها.

وليزيدَ (ابنُ أبي عامر) أمرَه تأييداً أرسل إلى من ببلاد المغرب من البرابرة فأتى بالكثير منهم، ورتَّب منهم جنداً واصطنع أولياء، وبذلك تمَّ له الاستيلاء على الدولة والاستبداد بالأمر، وبنى لنفسه مدينة سماها الزَّاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا تحية الملوك، وتسمى بـ (الحاجب) المنصور، وأمر بالدعاء له عقب الدعاء للخليفة.

وهذا الذي بقي لهشام من رسوم الخلافة، وكتابة اسمه على النقود، وكانت للمنصور غزوات كثيرة لم تنكس له فيها راية، وبقدر ما عظمت سلطة المنصور ضعفت قوة الخلافة، ولم يزل أمره في ازدياد حتى توفي سنة (٣٩٤هـ)، ومن آثاره بناء قنطرة على نهر قرطبة الأعظم أنفق على بنائها ١٤٠٠٠٠دينار، فعظمت بها المنفعة، وبنى قنطرة أخرى على نهر (استجه) وهو نهر (شنيل)، وتجشم لها أعظم مؤنة، وسهَّل الطريق الوعرة والشعاب الصعبة.

ولما توفي قام بأمر المؤيد بعده ابنه (عبد الملك المظفر أبو مروان) فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، ثم توفي بعد سبع من وزارته، فقام بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بـ (الناصر لدين الله) وقد طمع أَنْ تؤول إليه الخلافة على حقيقتها، فطلب من هشام أن يوليه عهده ففعل، وكان هذا سبباً لنقمة أهل الدولة عليه، فقاموا ضده ـ وكان غائباً بإحدى غزواته ـ وخلعوا هشاماً المؤيد، وولّوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ولقبوه (بالمهدي).

الدرس الثالث والعشرون

١١ ـ محمد المهدي ٣٩٩ - ٤٠٠

بُويع من أهل الدولة عقب خلع هشام المؤيد، وعلى يده قُتل (عبد الرحمن الحاجب) حين آب من غزوته.

وولاية المهدي أثارت ثائرة عصبية جديدة، فإنَّ البرابرة الذين جنَّدهم المنصور الحاجب وكانوا مؤيدين لدولته نقم عليهم المهدي وأهل الدولة، وأظهروا لهم البُغض والاستياء فسقطت مرتبتهم، ولما رأوا ذلك أسرّوا نجواهم في الخروج على المهدي ومبايعة هشام بن سليمان بن الناصر، فظهر للنَّاس أمرهم، وأُخذ هشام هذا فقُتل، وطُرد البربر خارج قرطبة ولحق بهم سليمان بن الحكم، فاتفقوا على خلع المهدي ومبايعته ولقبوه المستعين بالله.

ولسوء رأيهم استغاثوا بملك (قشتالة) ألفونس الخامس، فأمدهم بجند كثيف، وذهب معهم إلى قرطبة، فحاربوا المهدي، وقتلوا من جنده نحو عشرين ألفاً، ومَلَكَ المستعين قرطبة، ورجع ألفونس إلى مقر ملكه.

فخرج المهدي إليه مستنجداً به فأنجده، وهذا كل ما يتمناه من وقوع الخلاف بين هؤلاء البُلهِ الذين لا يريدون إلا مصالح أنفسهم.

جاء المهدي وألفونس إلى قرطبة، وحاربا المستعين حتى استولى المهدي ثانية على قرطبة، وخرج المستعين والبربر يعيثون في الأرض فساداً.

فخرج المهدي وألفونس يقفون أثرهم، فكرَّ عليهم المستعين وقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم، فعاد المهدي إلى قرطبة، وأخرج هشاماً المؤيد، وبايع له وقام بحجابته، ولكنَّ أهل قرطبة خافوا أَنْ يقتحم البربر المدينة، فقتلوا المهدي وأبقوا هشاماً المؤيد، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك، فإنَّ المستعين لم يزل محاصراً للبلد حتى افتتحه ودخله في صورة ظافر، والحقيقة أنَّه هو ومن معه يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين.

كل ذلك أضعف من شأن الدولة وهيبتها، فاستقلَّ عُمَّال الولايات بما في أيديهم، وصارت كل ولاية مملكة قائمة بنفسها.

أما قرطبة قاعدة البلاد الكبرى فكانت مشهداً لفظائع متتالية، فإنَّ الأمويين ضعفوا واستكانوا.

نهاية الدولة الأموية بالأندلس

كان إذ ذاك بـ (سَبْتَة) رجلٌ من العلويين مالكاً لها اسمه (علي بن حمود)[1]، ولما رأى ضعف بني أُمية عَبَرَ البحر إلى الأندلس، وسار إلى قرطبة، فبايعه أهلها على طاعة هشام المؤيد إن ظهر خبره، فأقام على ذلك مدة، ولما لم يجدوا له أثراً دعا علي بن حمود النَّاس إلى بيعته فبايعوه، ولقبوه بالمتوكل على الله، وهو أول الدولة العلوية بالأندلس، وكانت هذه الدولة أشبه بحلم النائم فإنها لم تمكث كثيراً حتى لم يبق لها أثرٌ، وأخذت بين أيديها الدولة الأموية فلم يبق

---

(١) هو علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس من بقايا ملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى تلقب بالناصر لدين الله. انظر مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي (١/ ٣٥٠).

بالأندلس أمر خلافة منتظم وتفرَّقت البلاد، ووجد فيها ما يسميه التاريخ (ملوك الطوائف).

ملوك الطوائف

كان بـ (اشبيلية) دولة (بني عبَّاد).

وبـ (بطليوس) دولة (بني الأفطس) محمد بن عبد الله.

وبـ (طليطلة) دولة اسماعيل بن ذي النون.

وبـ (سرقسطة) دولة (بني هود).

وبـ (طُرطُوشة) لبيب العامري.

وبـ (بَلَنْسية) المنصور المغافري.

وغير هؤلاء ممن استقلوا بما بأيديهم من العظماء والولاة.

وكان هذا التَّفرق منعشاً لآمال ملوك إسبانيا في استرداد تلك البلاد التي نمت ثروتها وارتقت أحوال سكانها في عصر الخلافة العربية، والأيدي إذا تماسكت لم تقدر القُوى على تفريقها، فإذا تخاذلت سَهُل على العدو إخضاعها.

فكان أول ما استرد من البلاد (طُليطلة) استردَّها ألفونس السادس ملك (قشتالة) من يد صاحبها (القادر بالله بن المأمون بن يحيى) بعد حصارها سبع سنين.

وأخذوا يستردون بعد ذلك الحصون التي تحمي تلك الممالك ويتحكمون في الأمراء كما يشاؤون.

دولة الملثمين[1]

ولما رأى ذلك (المعتمد بن عبَّاد) أرسل إلى أمير المسلمين بالمغرب وكبير دولة الملثمين (يوسف بن تاشفين)[2] يستنجد به ويطلب منه الإعانة والنُّصرة، ثمَّ سار إليه بنفسه بعد ذلك، فقال له يوسف: ارجع إلى بلادك وتجهزوا إنِّي على أثرك.

ثم جهَّز يوسف الأساطيل، وجمع الجنود، وعَبَرَ البحر إلى الأندلس سنة (٤٧٩هـ) فاجتمعت قوته بقوة ابن عباد، وأقبل إليهم ألفونس السادس بجنوده، فكانت بينهم حرب هائلة، تُسمَّى في التاريخ بوقعة (الزلاقة)، وكانت نتيجتها هزيمة ألفونس وجنوده هزيمة منكرة.

ولما تمَّ النصر ليوسف رأى أوفق أمرٍ لحال الأندلس أن يستولي على بلادها من يد ملوكها لتشتت أمرهم.

فأخذ قرطبة وأشبيلية من يد ابن عباد، وأجلاه إلى المغرب، فحبسه بأغمات حتى مات بها.

وأخذ غرناطة وغيرها من البلاد، وبذلك استتب له الأمر وانقضت إمرة ملوك الطوائف.

وصارت بلاد الأندلس بعد ذلك إقليماً تابعاً لدولة الملثمين بالمغرب التي مقرها (مُراكش) وهي المدينة التي بناها (يوسف بن تاشفين) وجعلها عاصمة دولة الملثمين.

---

(١) سمي الملثمون بذلك لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، وكان موطنهم أرض الصحراء الجنوبية بين بلاد البربر وبلاد السودان (الاستقصا: ١/ ١٠٦).

(٢) هو أبو يعقوب، أمير المسلمين وملك الملثمين، وهو الذي اختط مدينة مراكش، وكان عظيم الشأن كبير السلطان، شذرات الذهب (٢/ ٤١٢).

وكان يوسف حازماً سائساً للأمور، وضابطاً لمصالح مملكته مؤثراً لأهل العلم والدين، وكثيراً ما يستشيرهم في أموره، توفي سنة (٥٠٠هـ).

وقام بأمر الملثمين بعده أخوه (علي) وفي عهده استولى الإفرنج على (سرقسطه) وكثيرٍ من حصون المسلمين، وتوفي سنة (٥٣٩هـ).

الدرس الرابع والعشرون

دولة الموحدين

ولم يأت بعده من يحمي تلك الدولة المتنائية الأطراف، إلا أنهم قام ضدهم دولة أُخرى في بدء شبابها وهي (دولة الموحدين) التي قامت بدعوة (المهدي عبد الله بن تومرت)[1] وكان يساعده (عبد المؤمن بن علي)، وهو الذي تمَّ على يديه الاستيلاء على (مراكش) وعلى جميع ما يملكه الملثمون، وبدء بيعته سنة (٥٤٢هـ).

ولما تمَّ له ملك المغرب أرسل جنوده تحملها الأساطيل لفتح بلاد الأندلس من أيدي بقايا الملثمين، فاستولوا عليها تماماً سنة (٥٤٥هـ)، واستردوا كثيراً من الحصون التي كان الإفرنج قد أخذوها وانتصروا على ألفونس ملك طليطلة، ولو مدَّ لعبد المؤمن في أجله لكان استرد مدينة طليطلة، ولكنَّ منيته وافته سنة (٥٥٨هـ).

ومن آثاره بناء مدينة جبل طارق التي يملكها الإنجليز الآن.

وكان أسطوله نحو (٤٠٠) قطعة.

وجاء بعده ابنه محمد، ولكنَّ أمره لم يتم لأنه كان متصفاً بما لا يليق بمن يَلُونَ أمر الأمة من اختلال الرأي والطَّيش وجبن النَّفس وشرب الخمر، فخلعتهُ أُمته بعد (٤٥ يوماً) من ولايته.

فخلفه أخوه يوسف بن عبد المؤمن، ولما تمَّ أمر بيعته أرسل

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن تومرت العلوي الحسني، وقبيلته من المصامدة في جبل السوس من بلاد المغرب، انظر الكامل في التاريخ (٩/ ٩٥).

الجيوش إلى جزيرة الأندلس فأنقذوا عدة مدائن كان يحاصرها الإسبانيون وفتحوا غيرها.

ثمَّ عبر إليها هو بنفسه سنة (٥٦١هـ) وتسلَّم شرق الأندلس من أولاد (محمد بن مردنيش)[١].

ورجع إلى إشبيلية وبنى بها مسجداً عظيماً.

ثمَّ رجع إلى إفريقية.

وعبر الأندلس ثانية لما بلغه أن ألفونس ينازل مدينة قرطبة، فسار ميمماً نحو الشمال يريد محاصرة شنترين، وبينما هو يحاصرها وقد فارقه جنده في إحدى لياليه إِذْ خرج عليه المحصورون وقاتلوه فجرح جرحاً بليغاً وعاد إلى مراكش فتوفي أثناء عودته سنة (٥٨٠هـ).

وكان ليوسف بن عبد المؤمن من الصفات العالية ما ينزله في منزلة كبار الملوك، فقد كان عالماً فقيهاً حافظاً، وكان يميل إلى الحكمة والفلسفة، ويكفيه فخراً أن كان من أصحابه الفيلسوف الإسلامي الكبير ابن رشد الذي كتب في الفلسفة كتباً عظيمة كان أهل أوروبا يرجعون إليها ويتعلمون منها.

وبعد وفاته بويع ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور.

وفي عهده كانت الحروب الصليبية محتدمة نيرانها بين صلاح الدين يوسف الأيوبي وبين أهل أوروبا في الشام ومصر، وكان لصلاح الدين على خصومه فضل قوة في البر إلا أن أسطوله لم يكن يمكنه أن

---

(١) هو محمد بن سعد بن محمد بن مردنيش الجذامي الأندلسي، الملك أبو عبد الله صاحب مرسية وبلنسية كان ممن يضرب بشجاعته المثل، انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٤٠).

يقاوم أسطول الإفرنج، فأرسل إلى يعقوب المنصور يستمده بأسطوله ليعاونه، ولكن للأسف أنَّه لم يخاطبه بأمير المؤمنين كما كان يلقَّب، فأخذته العزَّةُ بالإثم ولم يمدَّ صلاح الدين بشيء، وهذا نهاية ما يعرف من ضيق العقل وسوء الفكر.

وكان للمنصور أعداء في إفريقيا يقلقون راحته، فاشتغل عن الأندلس وقتاً فأدَّى ذلك إلى تقوي الإسبانيين والبرتغاليين وتوسيعهم حدود بلادهم مما يلي المسلمين.

ولما علم بذلك يعقوب عبر الأندلس سنة (٥٩١هـ) بعسكر ضخم، واتصل الخبر بألفونس التاسع ملك (قشتالة)، فجمع جمعاً كثيراً، وأقبل نحو المنصور فاجتمعا بمكان اسمه (الأراك)، وانتهت الموقعة بهزيمة الفرنج هزيمة منكرة.

وهذه الواقعة من أعظم الحروب التي كانت بين المسلمين والفرنج في بلاد الأندلس.

ثم تقدم بعد ذلك وفتح عدة حصون بجهات طليطلة مثل قلعة رباح ووادي الحجارة ومجريط (مدريد).

وقد شيَّد المنصور فوق ذلك بالأندلس والمغرب كثيراً من المباني الفاخرة كالمساجد والمدارس والمارستانات والحصون والصوامع والقناطر والآبار، ولولا ضنُّه على صلاح الدين بالمساعدة لكان معدوداً من أعظم ملوك المسلمين.

وفي سنة (٥٩٥هـ) اعتزل بنفسه أُبهة الملك فولّى ابنه محمد الناصر لدين الله.

وفي عهده تجمَّع ملوك الأندلس متحدين على غزو بلاد المسلمين، وساعدهم كثيرٌ من أهل أوروبا لأن (البابا أنوسان الثالث) بابا رومية نادى بحرب المسلمين بعد أن استنجده ملك قشتالة، فعبر إليهم الناصر بجند لم يجتمع لملك قبله، ولكن كان خليطاً من أجناس شتَّى غير متلائمة.

وقد تقابل الجيشان بمكان يقال له (حصن العقاب) شمال جيان، وانتهت بهزيمة الناصر ومن معه من جند الأندلس والبربر، وكان ذلك في ١٥ صفر سنة ٦٠٩هـ، وبتلك الهزيمة ذهبت قوة المسلمين بالأندلس.

ولما عاد الناصر إلى بلاد المغرب عقد البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر وفي زمن المنتصر فشل أمر الموحدين وأشرفت دولتهم على الهدم ثمَّ احتجب في قصره حتى مات سنة(٦١٠هـ).

استولى (ألفونس التاسع) ملك الإسبانيين على حصون المسلمين، وهزم حامية الأندلس.

ولما ضعف أمر الموحدين قامت بالأندلس آخر دولة بها وهي: (دولة بني الأحمر).

دولة بني الأحمر

ورأسها (محمد بن يوسف بن نصر) قام سنة ٦٢٩هـ ثائراً على ابن هود المتغلب بشرق الأندلس، وكانت بينهما خطوب شديدة.

وفي الوقت الذي كانا يتنازعان فيه كان عدوهما يستولي على البلاد شيئاً فشيئاً، فأخذ قرطبة سنة ٦٣٣هـ واشبيلية سنة ٦٤٦هـ بعد حصار دام سنتين، وكان ابن الأحمر يساعد الإسبانيين في هذا الحصار رجاء

أن يساعدوه على خصمه، ثمَّ استولى العدو على طُليطلة وشلب وطلبيرة سنة ٦٥٩هـ ثم مرسيه سنة ٦٦٥هـ، ولم يزل يستولي على البلاد شيئاً فشيئاً إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة غرباً والبيرة شرقاً ولم يبق للمسلمين غير سيف البحر البالغ عرضه مرحلة، وهذا الجزء هو مملكة (ابن الأحمر) وقاعدته غرناطة ولم يزل بنوه يتوارثون إمارة هذا الجزء وهم فيما بينهم متنازعون، وإذا أدركتهم صحوة من هذه الغفلة ورأوا قوة عدوهم استعانوا بملوك إفريقيا من (بني مرين) الذين ورثوا دولة الموحدين فيغيثونهم بعض الغوث، ولكنَّ الجسم إذا لم يكن مستعداً للحياة لم تنفعه حيَلُ الأطباء، إنما هو من نوع تلطيف آلام المرض وقتاً قليلاً، وهكذا كان حال (بني الأحمر) الذين أضروا بالمسلمين، وأضعفوا قوتهم وقد استولى الإسبانيون على مالقة منهم سنة (٨٩٢هـ) ثم وادي آش.

ثم عرض ملك الإسبانيين وهو (فرديننند الكاثوليكي) على صاحب غرناطة أن يدخل في طاعته مقابل أموال جزيلة يدفعها له وله الخيار أن يقيم في أي بلاد الأندلس شاء، فاستشار رعيته، فأبت عليه ذلك (وما جاءت الشورى إلا بعد أن خربت الدار) وحينذاك أقبل العدو وحاصر غرناطة سنة ٨٩٦هـ، فأفسد الزرع وقطع الأشجار وهدم القرى، وبعد سبعة أشهر من الحصار اشتد الحال على من بالبلاد، فمالوا إلى الصلح، وكتبوا بينهم وبين عدوهم شروطاً وكانت سبعاً وستين شرطاً أهمها:

١ ـ تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال.

٢ ـ وإبقاء النَّاس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم.

٣ ـ ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته.

٤ ـ وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك.

٥ ـ وألا يدخل النَّصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً.

٦ ـ وألا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي.

٧ ـ وأن يُفتكَّ جميعُ من أُسِر في غرناطة حيث كانوا، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز إلى العدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثمَّ بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء.

٨ ـ وألا يؤخذ أحد بذنب غيره.

٩ ـ وألا يُجبر من أسلم على الرجوع إلى النَّصارى، ولا يعاقب من قَتلَ نصرانياً أيام الحرب.

١٠ ـ ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى.

١١ ـ ولا يُسفر لجهة من الجهات، ولايزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة.

١٢ ـ ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم من أمور دينه.

١٣ ـ وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده.

وبذلك انتهى ملك المسلمين بالأندلس وصاروا رعية لصاحب قشتالة ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عنها.

وظلَّ الإسبانيون يُراعون الشروط مدة قليلة حتى تمكنت قدمهم، وعلموا أن لا ناصر للمسلمين، فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط، وأذاقوا من بقي منهم في تلك البلاد أنواع الاضطهاد خصوصاً لما

تشكلت تلك المحكمة المعروفة بمحكمة التحرير القسيسي أو (محكمة التفتيش)، فكان من القسوة والمعاملة الخالية من المروءة والإنسانية ما لا يستطيع قلم الواصف أن يسطره، وقد كان إنشاء هذه المحاكم بأمر الباباوات خلفاء المسيح وحفّاظ دينه.

ولما رأى المسلمون ما هالهم صاروا يتسللون إلى إفريقيا حتى انقضى أمرهم، ولم يبق في تلك البلاد موحد، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

وكل هذا نتيجة طبيعية لحال أمراء المسلمين في أواخر أمرهم وتباغضهم وتنافرهم.

الدرس الخامس والعشرون

عبرة من تاريخ الأندلس

رأيتَ كيف زالت دولة المسلمين بالأندلس بعد أن مضت عليها قرون كان ملوك أوربا يتسابقون إلى التقرب منها.

ورأيتَ كيف تحولت من بلادٍ إسلاميةٍ إلى بلاد مسيحيةٍ، بعد أن كان الدين فيها بأجمل مظاهره علماً وعملاً، ولم يبق لنا الآن منها إلا الاعتبار بما حصل من أهلها لأنفسهم أولاً ومن أعدائهم لهم ثانياً.

كان من بها متحدين متحابين، يُحس الفرد منهم بما يصيب أخاه، فيألم له إن كان مؤلماً، ويسرُّ به إن كان مفرحاً، بذلك كانت قوّتهم جميعاً على من يريدهم بسوء، فسارت الدولة وبسطت نفوذها على جميع الأقاليم الإسبانية، فهدأت القلوب وارتاحت الأنفس، وبذلك تفرَّغ النُّبهاء والعلماء لإظهار آثار مواهبهم التي منحها الله إياهم، فظهرت المؤلفات العجيبة، وارتقت حركة الفكر رقيّاً نفخر بآثاره حتى الآن، فمنهم الكتّاب الأدباء، والفلاسفة الحكماء، والصنّاع الماهرون الذين من آثارهم جامع قرطبة والحمراء والقناطر العجيبة.

ولم يزالوا كذلك حتى فرّق بينهم الشيطان، فعادى بعضهم بعضاً سعياً وراء سيادة وهمية، وتفرَّقوا شيعاً فكل بلد فيه أمير المؤمنين ومنبر.

كان من وراء ذلك أن استظهر عليهم عدوهم واحداً بعد واحد، وكان يستعين بهذا على ذاك ليفوز بضعف الاثنين، فصارت سلطتهم تتضاءل، وأطرافهم تنتقص، حتى آل أمرهم أن انكمشوا في إقليم

غرناطة بعد تلك الأقاليم الواسعة الأطراف، ولم يكن للعدو بعد ذلك كبير عناء في الاستيلاء على البقية الباقية والتحكم في هؤلاء المستضعفين كما شاء هواه وشاء تعصبه القبيح.

كل ذلك سببه أولئك الأمراء الطامعون في الألقاب الضخمة غير مهتمين بما وراء ذلك، لايهمهم سَعِدت الأمّة أم شقيت، فهم يسوقونها سوق الأنعام للحصول على أغراضهم، ولا يرون لأحد من الأمة حقاً معهم بل يرون أنَّ كلّ من تعرض لهم بنصح مستحق أليم العقاب، يسلطون عليه غضبهم وانتقامهم بكل ما يمكنهم، ولا يحسبون لمستقبلهم حساباً.

بذلك ينكمش النُّصحاء الصَّادقون، ويختفي النُّبهاء المخلصون، والفوز كل الفوز لمن غشّ أو خان، وحينذاك تختفي الحقائق عن العيون، ويموِّه بالباطل المموِّهون، فإذا حدث حادث أو ألمت كارثة أو جاش العدو بخيله ورجلِهِ كان الخذلان للأمة أقرب من حبل الوريد، أليس في ذلك من العبرة ما يلفت الأنظار وينبه القلوب، فيجعل أفراد الأمة ملتفتين إلى مصلحة هيئتها العامة ويجعلهم يتركون ما بينهم من التنافر لمصلحة بلادهم حتى لا يكونوا طعمة للآكلين ونهبة للناهبين، وحتى لا يتحملوا تبعة ما يحل بالأمة من المصائب، فيلعنهم الخلف لأنهم كانوا مصدر الشرور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

حال الأندلس في الملك الإسلامي

كانت الأندلس في عهد الخلافة الأموية وما بعدها سيدة الأقطار في الدنيا علماً وصناعةً وأدباً.

ساعد الخلفاء على إحياء العلم، فأخرجت البلاد سادة الفقهاء وسادة المحدثين وكبار الفلاسفة والأطباء والمنجِّمين:

فمنهم الإمام المحدث (يحيى بن يحيى الليثي) راوي الموطأ عن الإمام مالك، كان أميناً ديِّناً معظَّماً عند الأمراء، عفيفاً عن الولايات، وهو الذي نشر مذهب مالك بالأندلس، توفي سنة (٢٣٤هـ).

ومنهم الإمام الفقيه القاضي (منذر بن سعيد البلوطي) قاضي الجماعة بقرطبة، وكان قاضياً لا يخاف في العدل لومة لائم، ومن طريف ما جرى منه أنَّ الخليفة الناصر احتاج إلى شراء دار من قرطبة، فوقع استحسانه على دار كانت لأيتام يلي القاضي أمرهم، ويتَّصل بالدار حمَّام له غلة واسعة، فأرسل الخليفة من قوَّمها وأرسل أناساً لوصي الأيتام في بيعها، فقيل له: إنَّ البيع لا يجوز إلا بأمر القاضي، فأرسل الخليفة رسولاً إلى القاضي في ذلك، فقال للرسول: إنَّ البيع على الأيتام لا يجوز إلا لوجوه منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد، ومنها الغبطة، فأما الحاجة فلا حاجة بهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرتُ وصيهم بالبيع وإلا فلا، فنقل جوابه إلى الخليفة فأظهر الزّهد في شراء الدار طمعاً أنْ يتوخى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، فكانت قيمتها

أكثر مما قوِّمت به للسلطان، فاتصل به الخبر فعزَّ عليه خرابها، فأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنَّه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي (منذر) وقال له: أنت أمرت بنقض الدار؟ فقال: نعم، قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] مقوّموك لم يقوموها إلا بكذا، وبذلك تعلَّق وهمك، فقد نضَّ في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فضلٌ، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة (عبد الرحمن)، وقال: نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيراً.

توفي سنة (٣٥٥هـ).

ومنهم القارىء الشهير الإمام (أبو القاسم الشَّاطبي)[1] الضرير صاحب (حرز الأماني) المشهور بالشاطبية في القراءات، رحل إلى مصر القاهرة واستوطنها، وتصدَّر للإقراء بالمدرسة الفاضلية.

توفي سنة (٥٩٠هـ).

ومنهم الإمام الفقيه المفسّر القاضي (أبو بكر محمد بن العربي) قاضي قضاة كورة أشبيلية، وهو إمام في الأصول والفروع، رحل إلى المشرق مع أبيه، ودخل الشَّام والعراق وبغداد، وسمع بها من كبار العلماء، ولقي بمصر والإسكندرية منهم جملة.

توفي سنة (٥٤٣هـ).

---

(١) واسمه القاسم بن فِيره بن خلف الرعيني، وهو منسوب لـ (شاطبة) مدينة بالأندلس.

ومنهم الإمام النحوي (محمد بن مالك) صاحب الألفية والتسهيل وغيرهما من كتب النحو، كان في النحو بحراً لا يُشقُّ عُبابه، واطلاعه على أشعار العرب التي يُستشهد بها في النَّحو واللغة كان من أعجب العجب، وكان الأئمة الأعلام يتحيَّرون في أمره هذا، على ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة وحُسن السمت وكمال العقل، ارتحل من الأندلس إلى دمشق وبها توفي سنة (٦٧٢هـ).

ومن المشهورين بالطب منهم (عبد الملك بن أبي بكر ابن زهر)، رحل إلى المشرق، وتولّى رياسة الطب ببغداد ثمَّ بمصر ثمَّ القيروان، ثم استوطن مدينة (دانية) بالأندلس وطار ذكره، واشتهر بالتَّقدم في علم الطب حتى فاق أهل زمانه[1].

ومنهم الطبيب الماهر الشهير (عبد الله بن أحمد بن البيطار) المالقي صاحب الكتاب المشهور بمفردات ابن البيطار، كان واحد زمانه في معرفة النباتات، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى إلى بلاد الروم والمغرب، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن وعاين منابته وتحققها، وعاد بعد أسفاره، وكان طبيباً للملك الكامل ابن العادل صاحب مصر والشام، وجعله في الديار المصرية رئيساً على العشابين (الأجزائية) وانتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه.

توفي سنة (٦٤٦هـ) بدمشق.

ومن مشاهير علمائهم وصناعهم (أبو القاسم عباس بن فرناس) حكيم الأندلس، وهو أول من استنبط بها صناعة الزجاج من الحجارة،

---

(١) توفي سنة ٥٥٧هـ.

وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال، واحتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين، وطار في الجو مسافة بعيدة، ولكنهً لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذّى في مؤخره، ولم يدر أنَّ الطائر إنما يقع على زمكه[1] ولم يعمل له ذنباً، وصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود[2]..

ومن فلاسفتهم (ابن رشد) الذي عرفه الإفرنج كثيراً واستفادوا من فلسفته وحكمته[3].

وعلى الجملة فكانت البلاد ممتلئة بالعلم والحكمة والفلسفة، حتى كان طلاب العلم من البلاد المجاورة لهم من أهل أوروبا يجعلون الأندلس مدرستهم.

أما الأبنية العظيمة والقصور الفخيمة، فكان لهم فيها القدح المعلى مما بقيت للآن آثاره.

من ذلك جامع قرطبة، والزهراء، وحمراء غرناطة، والقناطر العظيمة التي شادوها على أنهرها.

كل ذلك كان بفضل الاتحاد والعمل للصالح العام، ثمَّ لما حلَّ التنافر محل الاتحاد وحب الأثرة والعمل للصالح الشخصي محل المصلحة العامة زال ذلك كله كأن لم يكن.

---

(١) زمكه: قال صاحب القاموس: الزِّمِكَّى: بكسر الزاي والميم مقصوراً: منبت ذنب الطائر أو ذنبه كله.

(٢) توفي سنة ٢٧٤هـ.

(٣) توفي سنة ٥٩٥هـ.

الدرس السادس والعشرون

الدولة العباسية

تنسب هذه الدولة إلى (العباس بن عبد المطلب بن عبد مناف) عمّ رسول الله ﷺ.

وبدء حكمها من سنة ١٣٢ من الهجرة، حين بويع (أبو العباس عبد الله السفاح) بالكوفة إلى سنة ٦٥٦هـ حين دخل التتار مدينة بغداد، وقتلوا عبد الله المستعصم آخر خلفائها.

ـ وعدد خلفائها سبعة وثلاثون.

وهذه سلسلتهم:

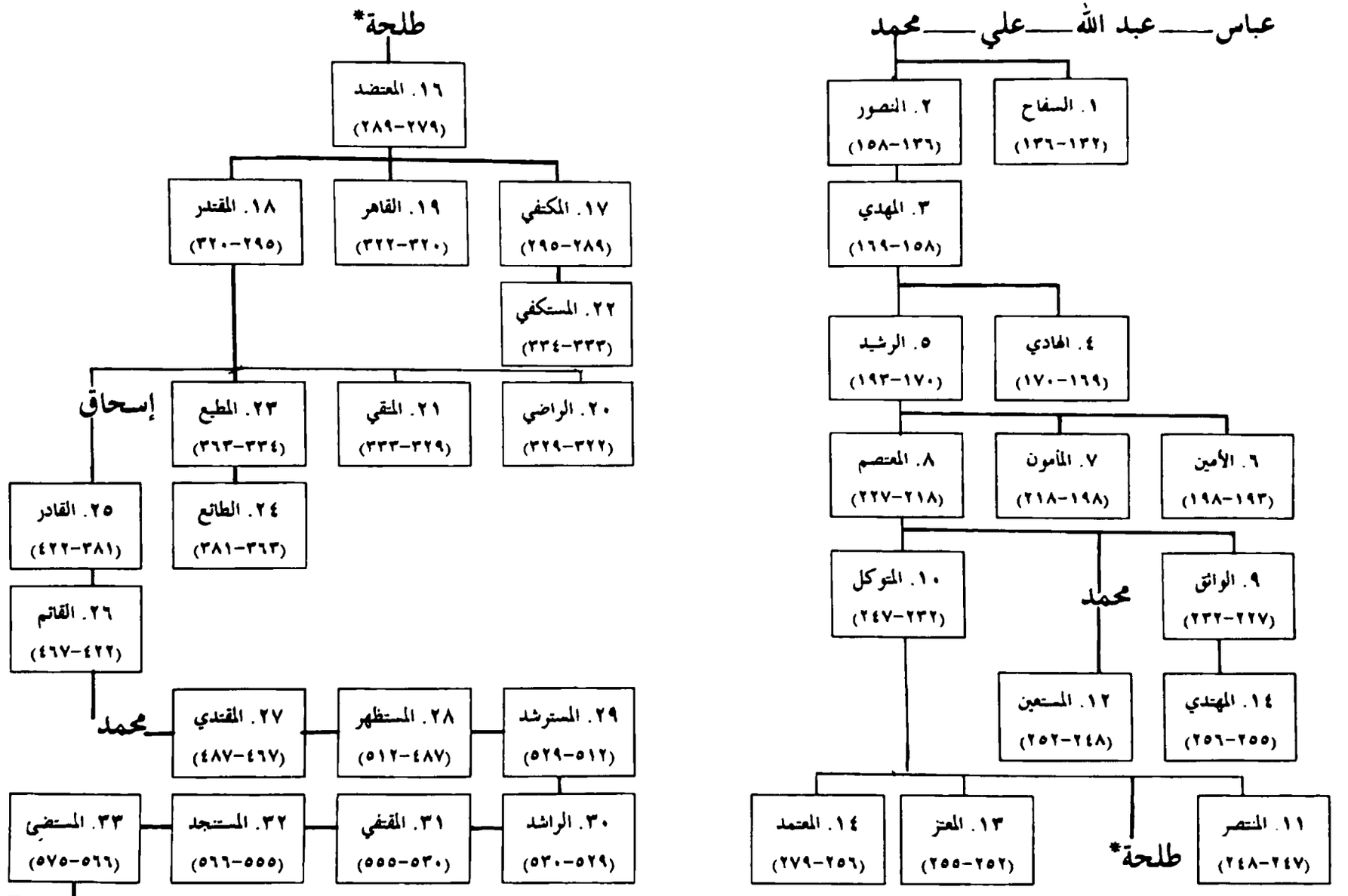

الشكل رقم (٣) سلسلة الخلفاء العباسيين

١ ـ محمد السفاح ١٣٢ - ١٣٦

بويع بالخلافة في سنة (١٣٢هـ) بمدينة الكوفة[١] وحين بويع خطب النَّاس خطبة طويلة بيَّن فيها قرابته هو وبني أبيه من رسول الله ﷺ وأنه أحق بخلافة المسلمين ممن عداهم، ومنَّى نُصراءه الخير من دولته ولقَّب نفسه وهو على المنبر حيث قال: (استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير)[٢] وهذا لقب مستبشع، وكان الأجدر به أن يكون رائد الخير للأمة الإسلامية، والمغضي عما كان من هفوات خصومه، ويقتدي برسول الله ﷺ الذي قال لأهل مكة يوم الفتح: (ما تظنون أني فاعل بكم) قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) عفا عنهم جميعاً، وقد آذوه وأخرجوه من داره.

فكان الأجدر بوارث خلافته أن يكون به مؤتسياً، فيعفو عند القدرة، ولكنَّه لم يفعل، فإنه بعد هزيمة (مروان بن محمد) آخر الأمويين وقتله شرَّد (بني أمية) وأوقع بمن ظفر به منهم، حتى تنازل عن مقامه السامي، فغدر بمن أمَّنه منهم، وقتله حينما دخل عليه مولى له اسمه سديف وأنشده:

لايغرنَّك مَا ترى مِن أناسٍ
إنَّ تحتَ الضُلوعِ داء دوياً
فضعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حَتى
لا تَرى فوقَ ظَهرِها أُمويا

---

(١) بويع في ١٣/ربيع الأول/ ١٣٢هـ قبل مقتل آخر الخلفاء الأمويين (مروان بن محمد).

(٢) في الأصل (المنيح) ولا معنى لها، والتصحيح من تاريخ الخلفاء للسيوطي، والمبير: المهلك الذي يسرف في إهلاك الناس (اللسان/ مادة بور).

وله في هذه الشدة المتناهية أخبار لا يستطاع ذكرها، ولم ينلهم الأمن إلا بواسطة (سليمان بن علي) عم السفاح، فإنه دخل عليه أحد بني أمية[1] الذين شردهم الخوف، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فقال: (لفظتني البلاد إليك، ودلَّني فضلك عليك، فإمَّا قتلتني فاسترحت، وإما رددتني سالماً فأمنت).

قال له: فمن أنت؟ فعرَّفه بنفسه، فقال سليمان: مرحباً بك، ما حاجتك؟ فقال الأموي: إن الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهنَّ وأقربهم إليهنَّ قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه، فبكى سليمان وقال: يحقن الله دمك، ويوفر مالك، ويحفظ حرمك.

ثمَّ كتب إلى السفاح: يا أمير المؤمنين، إنَّه قد وفد وافدٌ من بني أميَّة علينا، وإنَّا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم (عبد مناف)، والرحم تُبَلُّ ولاتقتل، وتُرفع ولا توضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإنْ فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان فيشكر الله تعالى على نعمته عندنا وإحسانه إلينا، فأجابه إلى ما سأل، وكان هذا أول أمان بني أمية[2].

وكان زمن أبي العباس مملوءاً بالاضطرابات الدَّاخلية لأنه في بدء دولة يريد تأسيسها بالقوة، وقد استعمل أعوانه من القوة أكثر مما يلزم لقمع هذه الفتن، وكان ذلك الاضطراب سبباً في مجيء قسطنطين ملك الروم إلى ملطية[3]، وهي من ثغور المسلمين، ففتحها وأجلى أهلها،

---

(١) هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان.

(٢) لم يقتصر السفاح في معاملته القاسية على الأمويين بل كان يقتل أكثر الناس موالاة له لأقل تهمة، فقد قتل كلا من أبي سلمة الخلال وسليمان بن كثير وهما من أركان دولته ومن موطدي دعائمها لريبة حصلت له من طرفهما.

(٣) بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام.

ثم سار عنها إلى قاليقلا[1] ونزل قريباً منها وأرسل قائداً أرمينياً ففتحها وقتل رجالها.

توفي السفاح في منتصف ذي الحجة سنة (١٣٦هـ)[2].

٢ ـ أبو جعفر عبد الله المنصور ١٣٦ - ١٥٨

تولّى بعد وفاة أخيه بعهد منه، وكان المنصور كما قال عنه من وصفه[3]: من أحسن النَّاس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس، وأشدهم احتمالاً لما يكون من عبث أولاده الصِّغار، فإذا لبس ثوبه اربدّ لونه، واحمرت عيناه، فيخرج منه ما يكون.

وكان يقول: ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم، أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقضي ولا يظلم، ثمَّ عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه آه، قيل: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصّحة.

وكان شغله في صدر النَّهار بالأمر والنَّهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنَّظر في الخَراج والنَّفقات ومصلحة معاش الرعية والتَّلطف بسكونهم وهديهم، فإذا صلَّى العصر جلس لأهل بيته، فإذا صلَّى العشاء جلس ينظر فيما ورد من كتب

---

(١) قاليقلا: بلدة بأرمينية العظمى من نواحي خلاط، بنتها ملكة أرمينيا (قالي) وسمتها قالي قاله، أي إحسان قالي، ثم عربت فقالوا: (قاليقلا).

(٢) وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة فقط.

(٣) وصفه بذلك سلامة الأبرش.

الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره، فإذا مضى ثُلثُ الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمَّاره، وإذا مضى الثلث الثاني قام فتوضأ وصلَّى حتى مطلع الفجر، ثمَّ يخرج فيصلِّي بالنَّاس، ثمَّ يدخل فيجلس في إيوانه.

وهو الذي مكَّن لبني العبَّاس المُلك، وضرب على أيدي من يخالفهم، إلا أنَّ ذلك كان بشدةٍ زائدة.

وفي أول ولايته خالف عليه (عبد الله بن علي) عمُّه، وكان بناحية (نصيبين)[1] يستعد لغزو الصائفة[2]، فأرسل إليه المنصور جيشاً يقوده (أبو مسلم الخراساني)، فالتقى الجيشان بنواحي نُصيبين، ودام القتال بينهما نحو ستة أشهر، وكانت الهزيمة آخر الأمر على (عبد الله بن علي)، فهرب نحو البصرة حتى أمَّنه المنصور.

وبعد رجوع أبي مسلم من هذا النَّصر المبين مكرَ به أبو جعفر حتى حضر عنده فقتله غدراً[3]، وهو الذي أقام لهم دعامة الملك، ومكَّن لهم في الأرض.

وأبو مسلم في الدولة العباسية شبيه الحجاج بن يوسف الثقفي في الدولة الأموية، كلاهما ظالم غاشم لا يبالي بدم يسفك مادام في ذلك رضا الملك وتقوية سلطانه، ولكن الله يسلط بعض الظالمين على بعض رأفةً بعباده ورحمةً.

---

(١) نصيبين: مدينة من مدن الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام.

(٢) الصائفة: مفردة الصوائف، والصوائف يقصد بها الغزوات التي كان يقوم بها أمراء المسلمين في فصل الصيف على حدود الروم في شمال بلاد الشام، كما تطلق كلمة الشواتي على الغزوات التي كانوا يقومون بها ضد الروم في الشتاء وأول من غزا الصوائف من قواد المسلمين عبد الله بن قيس الكندي ومن الخلفاء سيدنا معاوية بن أبي سفيان. (انظر الأعلاق الخطيرة ج١ قسم٢ ص١٩٧ وما بعدها).

(٣) وذلك سنة (١٣٧)هـ.

وخرج على المنصور بعد ذلك خوارج كثيرون تغلَّب عليهم بالقوة، ولكن أعظم ما أصابه حين خرج عليه محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1]، ولما علم المنصور بخروجهما أرسل إلى المدينة فأحضر جميع من كانوا بها من ولد (الحسن بن علي بن أبي طالب) فحبسهم وضيَّق عليهم، وقد ماتوا في حبوسهم وأصفادهم، ولم ينج منهم إلا القليل.

أما (محمد بن عبد الله بن الحسن) فإنَّه خرج بالمدينة بعد أن بايعه أكثر أهلها، وأخذ أميرَ المدينة من قبل المنصور، فأرسل إليه المنصور جنداً تحت قيادة ابن أخيه (عيسى بن موسى)، وكان بين الفريقين قتال شديدٌ جداً، ولكن انتهى بقتل (محمد بن عبد الله الحسني) وحُمل رأسهُ إلى المنصور.

وأما (إبراهيم) أخوه فخرج بالبصرة، وكانا متفقين أَنْ يخرجا معاً في وقت واحد، ولكن تأخر لجدريّ أصابه فأرسل المنصور إلى (عيسى بن موسى) فاستقدمه ووجهه إلى إبراهيم بالبصرة، وكان إبراهيم سائراً إليه فتقابلا على نحو ١٦ فرسخاً من الكوفة، وتقاتلا قتالاً شديداً انتهى بقتل إبراهيم وأكثر من معه[2].

ولم يزل المنصور يرتق هذه الفتوق كلّما بدرت حتى استقام له الأمر بعد عناء شديد.

---

(١) كانت ثورتهما سنة (١٤٥هـ).

(٢) وقد كافأ المنصور ابن أخيه (عيسى) على انتصاره على محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بخلعه من ولاية العهد وعهد بالخلافة من بعده إلى ابنه المهدي.

ومن الآثار العظيمة للمنصور بناء مدينة بغداد[1] سيدة الحواضر الإسلامية، وعمل لها سورين السُّور الداخل أعلى من الخارج، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجوار قصره، وكان اللَّبن الذي يُبنى به ذراعاً في ذراع، ووُزِنَ بعضها لمَّا نقض فكان وزنُ لبنة منه مائة رطل وستة عشر رطلاً، وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسجد والقصر والأسواق (٨٣٣.٠٠٠.٤) درهماً، وجعل الطريق فيها أربعين ذراعاً، وكان ذلك سنة (١٤٦هـ).

وفي سنة (١٥١هـ) بنى الرصافة للمهدي، وهي في الجانب الثاني من دجلة.

وقد ارتقت بعد ذلك حضارة بغداد حتى صارت أعظم بلدان المسلمين، وكثر سكانها حتى زادوا عن المليونين عداً، وتقدمت فيها العلوم والصناعات.

وفي عهده غزا (صالح بن علي العباسي) الرَّوم وأصلح ما كان خرَّبه ملك الروم من سور ملطية، ثمَّ عمر قاليقلا، ورد إليها أهلها، وندب إليها جنداً من الجزيرة وغيرها فأقاموا بها وحموها.

ولم يكن في عهد المنصور فتح جديد وإنما هو قمع فتن وتمكين ملك.

توفي المنصور سنة (١٥٨هـ) بمكة وهو حاجّ، ودفن هناك[2].

---

(١) بدء ببناء بغداد سنة (١٤٠)هـ وتم البناء سنة (١٤٩)هـ.

(٢) في مكان يسمى (بئر ميمون) قرب مكة، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

٣ ـ محمد المهدي ١٥٨ ـ ١٦٩

تولّى بعد وفاة أبيه بعهد منه، وقد جاءته والدنيا هادئة مطمئنة، وقد سكّن أبوه عجاجتها[١] فكان في قلبه رأفة ورحمة على رعيته.

ولما زار مسجد رسول الله ﷺ وجد بحيطانه اسم (الوليد بن عبد الملك الأموي) لأنّه هو الذي جدده ووسعه فأمر أن يمحى ويكتب اسمه موضعه، وهذا من الاختلاس الذي شُغف به الملوك والأمراء فإن كل واحد منهم يودّ لو نُسب كلّ عمل صالح ممن تقدمه له، وهذا بدون ريب مفسد للتاريخ وفيه تبعة عظيمة.

وللمهدي إصلاحات داخلية عظيمة، فقد أجرى الأرزاق على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق.

وخرج المهدي بنفسه غازياً الروم ومعه ابنه الرشيد، فسار حتى جاز الدروب وبلغ جيحان ثم سيَّر منه ابنه الرشيد، فنزل هو وجنده على حصن (سمالو)[٢] وحصره حتى فتح بالأمان، ثم فتح فتوحاً كثيرة وقفل سالماً.

ثم سيَّره مرة أخرى فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية، ولكنه رجع عنها لأنَّ ملكها صالحه ورضي بدفع الجزية.

توفي المهدي بماسبذان[٣] سنة ١٦٩ هـ.

---

(١) العَجَاج: هو من الغبار ماثوَّرته الريح. اللسان(عجج).

(٢) حصن سمالو: في ثغور الشام قرب المصيصة وطرسوس.

(٣) ماسبذان: من بلاد ما وراء النهر قريبة من الرذ وقد فتحها ضرار بن الخطاب الفهري سنة ١٧هـ.

٤ ـ موسى الهادي ١٦٩ ـ ١٧٠

ولي بعد وفاة أبيه بعهد منه، ولم تطل مدته حتى يظهر له كبير عمل، يكون قد أراد خلعَ أخيه الرشيد، لأنَّ أباه كان قد ولاهما عهده الهادي ثم الرشيد، ولكن ذلك لم يتم للهادي لأن المنية عاجلته سنة ١٧٠هـ فلم يَقم إلا سنة واحدة وثلاثة أشهر.

الدرس السابع والعشرون

٥ ـ هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣

ولي بعد وفاة أخيه بعهد أبيه.

ولما تولى استوزر (يحيى بن خالد البرمكي)، وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، فاحكم فيها بما ترى، واعزل من رأيت، واستعمل من رأيت، ودفع إليه خاتمه.

ويحيى هذا هو والد جعفر والفضل البرمكيين غرتي مُلك الرَّشيد.

وكان عصر الرشيد العصر الذهبي لبني العباس، فقد تناهت فيه قوتهم وهيبتهم، كما اتسعت فيه معارف الأمة وآدابها.

وكان يلي الرُّوم في عهده الملكة (إريني)، وكانت على صلح معه وتدفع مقابل ذلك الجزية، فلما ماتت ولي الروم (نقفور) فكتب إلى الرشيد: (من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ[١]، وأقامت نفسها مكان البيدق[٢]، فحملت إليك من أموالها ماكنتَ حقيقاً بحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي هذا، فاردد ما حُصِّلَ لك من أموالها، وافتد نفسك وإلا فالسيف بيننا وبينك).

فلمَّا قرأ الرَّشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

---

(١) الرخ: طائر خرافي بالغ القدامى في وصفه، وهو قطعة من قطع الشطرنج.

(٢) البيدق: أي الجندي ومنه بيدق الشطرنج.

(بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه).

ثمَّ سار من يومه حتى بلغ هرقلة[1] ففتحها.

ولمَّا جاس خلال الديار سأله نقفور الصّلح على خراج يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك.

ولما رجع الرشيد ووصل إلى الرَّقة نقض نقفور العهد، وكان البرد شديداً فأمن رجعة الرشيد، ولما جاء الخبر لم يقدر أحد أن يخبر به الرشيد حتى احتالوا عليه بأحد الشعراء[2]، فمثل بين يديه وقال:

نَقَضَ الذي أَعطيتَه نقفورُ
فعليهِ دائرةُ البوارِ تدورُ
أبشرْ أميرَ المؤمنينَ فإنَّهُ
فتحٌ أتاكَ به الإلهُ كبيرُ
فتحٌ يزيدُ على الفتوحِ يَؤُمّنا
بالنصرِ فيه لِواؤكَ المنصورُ

فلما سمع الرشيد ذلك قال: أو قد فعل ذلك نقفور؟ فرجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة، حتى بلغ بلادهم، فأقام بها حتى شفى واشتفى وبلغ ما أراد.

ومما يؤخذ على الرَّشيد إيقاعه بالبرامكة[3]، وقتله لجعفر بن يحيى، وحبسه لأخيه الفضل وأبيه يحيى وكانوا غرّة ملكه.

---

(١) هرقلة: مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم.

(٢) هو أبو محمد، محمد بن عبد الله بن يوسف.

(٣) كانت نكبة البرامكة سنة ١٨٧هـ وللمؤرخين في أسباب هذه النكبة ودواعيها تفسيرات لا تخلو من غرابة، والله أعلم بحقيقة الحال.

فقد كان لهم جود سارت به الأمثال، وكان لهم فصاحة وأدب ومروءة لم يعطها الله غيرهم من أهل زمنهم، ولكن كان لهم منافسون يزدادون لهم حقداً كلما ازدادوا رفعة، فأوغروا صدر الرشيد عليهم، حتى فعل بهم ما فعل، وصادر أملاكهم، وأخذ كل شيء لهم، وذهبوا كأنهم لم يكونوا. لأبي نواس بعد نكبتهم:

الآن استرحْنا واستراحتْ ركابُنا
وأمسكَ من يجدِي ومن كان يجْتَدي

فقُلْ للمطايا قد أَمِنتِ من السَّرَى
وطيِّ الفَيَافي فَدفَداً بعد فَدفَدِ

وقُلْ للمنايا قد ظفرتِ بجعفر
ولن تظفري مِن بَعدِه بمسودِ

وقُلْ للعطايا بعدَ فَضلٍ تفضَّلي
وقُلْ للرزايا كلَّ يومٍ تَجدَّدي

ودونَك سيفاً برمكياً مهنَّداً
أصيبَ بسيفٍ هاشمي مهنَّدِ

ولم يُرَ خليفةٌ قطُّ كان أعطى للمال من الرَّشيد.

وكان لا يضيع عنده إحسان محسن.

وكان يميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين.

توفي الرشيد[1] في أوائل جمادى الأولى سنة ١٩٣هـ بطوس[2].

---

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن قيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كان زمن الرشيد.

(٢) طوس مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ.

٦ ـ محمد الأمين ١٩٣ ـ ١٩٨

ولي بعد أبيه، وكان أبوه قد ولّى عهده ولديه الأمين ثمَّ المأمون، وكان المأمون أمير خراسان حسب شريطة أبيه، وقد أراد الأمين لسوء رأيه وعدم النُّصحاء من وزرائه أن يخلع المأمون ويولي موسى ابنه العهد، وقد استشار كثيراً من القواد فوافقوه على رأيه[١] إلا خزيمة بن خازم، فإنَّه قال له: يا أمير المؤمنين، لم ينصحك من كذبك، ولم يغشك من صدقك، لا تجريء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول والناكث مغلول، ولكن لم يسمع له.

ولما علم المأمون ذلك لم يرضه بالطبع، وحينئذ أرسل الأمين لحرب أخيه جنداً يقوده (علي بن عيسى بن ماهان)، وأرسل المأمون جنداً آخر يقوده (طاهر بن الحسين) فالتقى الجيشان خارج الري[٢] وكان النصر لطاهر، فكتب إلى المأمون (بسم الله الرحمن الرحيم، كتابي إلى أمير المؤمنين، ورأسُ علي بن عيسى في يدي، وخاتمه في أصبعي، وجنده مصرفون تحت أمري والسلام).

وبعد ذلك خُوطب المأمون بالخلافة، ونودي بخلع الأمين ودخل في بيعته عاملا مكة والمدينة[٣]، فأمر المأمون طاهراً أن يسير إلى بغداد، فسار إليها وحاصرها حتى استولى عليها وقتل الأمين.

---

(١) ومن أشد الموافقين له على هذا الأمر وزيره الفضل بن الربيع.

(٢) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً.

(٣) هما: داود بن عيسى عامل مكة، وابنه سليمان عامل المدينة.

وكان ذلك سنة (١٩٨هـ) وهو أول خليفة مقتول من بني العباس.

٧ ـ عبد الله المأمون ١٩٨ ـ ٢١٨

بعد أنْ قُتِلَ الأمين صفت البلاد للمأمون، وبويع بالخلافة بيعة عامة، وهو لا يزال مقيماً بخراسان.

وفي سنة (٢٠٤هـ) سار إلى بغداد وقد ثار بها (إبراهيم بن المهدي) عمُّه مريداً أخذَ الخلافة لنفسه فعوجل وأسر، ولكنَّ المأمون عفا عنه.

وبمجيء المأمون إلى بغداد انقطعت الفتن وهدأت النَّاس.

وكان المأمون أحسن بني العباس خُلقاً وأكثرهم علماً، يميل إلى العلماء والأدباء، ويشجعهم بالعطايا الوافرة، فراجت في زمنه سوق العلم رواجاً لم يكن له مثيل، وترجمت كتب العلم المختلفة من اليونانية وغيرها، وهو أول من قاس الدرجة الأرضية بنواحي العراق.

وكانت مالية الدولة في زمنه أعظم منها في أي زمن آخر، لأنَّ البلاد كانت مستقيمة، والرعية هادئة مطمئنة فالتفتت إلى ما بيدها من زراعة الأرض وإتقان الصناعة، فاستفادوا وأفادوا، وكان من خلقه العفو عمن أساء، والإحسان لمن أحسن، فأحبته رعيته وانصرفت إليه بقلوبها، فقوي بها، وأقوى الأمراء دولة من كانت قلوب رعيته معه، ولا تكون معه إلا بالإحسان إليها والعدل فيها، والابتعاد عما يخالف أخلاق الملوك مِنَ الشح والشره والنفاق وإيقاع النفرة بين الأفراد، وهكذا كان المأمون رحمه الله.

وفي عهده سنة (٢١٢هـ) جهَّز (زيادة الله بن الأغلب) أمير إفريقية جنداً عظيماً لفتح صقلية، فسار إليها وفتح أكثر مدنها وفتحوا بَلرم[١] سنة (٢١٦هـ).

وفي سنة (٢١٥هـ) سار المأمون بنفسه غازياً إلى بلاد الروم، فمرَّ على منبج، ودابق، وأنطاكية، والمصيصة، وطرسوس، ودخل منها إلى بلاد الروم، ودخل ابنه العباس من ملطية فأقام المأمون على حصن قرة فافتتحه عنوة وفتح جندُه حصوناً أخرى.

توفي المأمون سنة (٢١٨هـ) في أواخر رجب[٢].

٨ ـ محمد المعتصم ٢١٨ ـ ٢٢٧

تولّى بعد أخيه بعهد منه، وفي ولايته استكثر من الأتراك الموالي، وجعل منهم جنداً عظيماً، وبنى لأجلهم مدينة (سامرا)، وجعلها مصيفاً له، وابتدأ عمارتها سنة (٢٢١هـ).

وفي عهده خرج ملك الروم (توفيل بن ميخائيل) إلى بلاد الإسلام بجند عظيم حتى بلغ (زبطرة)[٣] فقتل من بها من الرجال، وسبى الذرية والنِّساء وأغار بعد ذلك على أهل ملطية، ومثل بمن صار في يده من الأسرى وسمل أعينهم، وقطع أنوفهم وآذانهم، فبلغ ذلك المعتصم، وبلغه أنَّ إحدى الأسيرات نادت وهي سائرة: (وامعتصماه)، فقال: (لبيك لبيكِ) وهو على سريره، ونهض من ساعته وصاح في قصره

---

(١) بلرم أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطىء البحر.

(٢) كان المأمون يميل إلى آل البيت حتى اتهم بالتشيع، وفي أيامه ابتدأت فتنة القول بخلق القرآن التي حمل لوائها المعتزلة ولقي العلماء فيها شدة عظيمة.

(٣) زبطرة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلد الروم.

(النَّفير النَّفير)، وسأل: أي بلاد الروم أمنع؟ فقيل له: (عمورية) لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية.

فسار المعتصم من (سامرا) وتجهَّز جهازاً لم يتجهزه خليفة قطّ قبله، وسار ذلك الجيش العظيم حتى بلغ (عمورية) ـ وهي على سبعة مراحل من أنقرة شمالاً ـ وهناك حصل قتال شديد جداً بين الروم الذي في البلد وبين عسكر المعتصم، وانتهى الأمر بفتح ذلك البلد العظيم.

وكان المعتصم حربياً أكثر منه إدارياً ولم يكن له لذَّة في تزيين البناء ولم يكن بالنفقة أسمح منه بها في الحرب[1].

ومما يورد عبرة في استصناع النَّاس أنَّ المعتصم قال لإسحاق بن إبراهيم المصعبي: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا، واصطنعت أربعة فلم يفلح واحد منهم.

اصطنع المأمون (طاهر بن الحسين) فقد رأيت وسمعت، وابنه (عبد الله بن طاهر) فهو الرَّجل الذي لم ير مثله، وأنت فأنت والله الرجل الذي لا يتعاصى السلطان عنك أبداً، وأخوك (محمد بن إبراهيم) وأين مثل محمد.

وأنا اصطنعت (الأفشين) فقد رأيت إلى ما صار أمره، وكان قد ظهرت عليه خيانة، و(أشناس) ففشل، و(إيتاخ) فلا شيء، و(صيف)

---

(١) كان المعتصم آخر خليفة غزا الروم بنفسه، وفي أيامه في سنة (٢٢٣هـ) كان القضاء على بابك الخرمي المجوسي الذي خرج بـ (أذربيجان) وبقي أكثر من عشرين عاماً، وكذلك في أيامه كانت نهاية (مازيار بن بندار المجوسي) سنة (٢٢٤)هـ.

فلا معنى له، وكل هؤلاء من الموالي الأتراك، فقال إسحق: أجيب على أمان من غضبك، قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول لها، فقال المعتصم: يا إسحق لمقاساة ما مرَّ بي طول هذه المدة أيسر عليَّ من هذا الجواب.

وقد ترك المعتصم لمن بعده العناء والشقاء بهؤلاء الموالي الذين لا يعرف لهم أصل في الأمة، وسيمر بك شيء من فعلاتهم.

توفي المعتصم في ربيع الأول سنة(٢٢٧هـ).

الدرس الثامن والعشرون

٩ ـ هارون الواثق ٢٢٧ ـ ٢٣٢

ولي بعد أبيه بعهد منه فأحسن إلى النَّاس، واشتمل على العلويين[١] وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم والتَّعهد لهم بالأموال، وفرَّق في أهل الحرمين أموالاً جزيلة، حتى إنَّه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل.

وأطلق في خلافته أعشار سُفن البحر وكانت مالاً عظيماً[٢].

وفي عهده سنة (٢٢٨هـ) فتحت مدينة مسينة[٣]، فتحها الفضل بن جعفر الهمداني، واستأمن إليه أهل نابل[٤] وصاروا معه، توفي الواثق في ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ).

١٠ ـ جعفر المتوكل ٢٣٢ ـ ٢٤٧

بويع بعد وفاة أخيه الواثق، ولاَّه كبار الدولة إذ لم يكن لأخيه عهد.

وفي أول ولايته نكبَ وزير أخيه الواثق (محمد بن عبد الملك

---

(١) العلويون: هم آل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه من ولديه الحسن والحسين، وكان مقدمهم في زمن الواثق أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضى وهو الذي يعده الإمامية الإثنا عشرية إمامهم العاشر.

(٢) أي: أعفاهم من ضريبة العشر.

(٣) مسينة: بلدة على ساحل جزيرة صقليَّة مما يلي الروم.

(٤) نابل: إقليم من أقاليم إفريقيا بين تونس وسوسة.

الزيات)[1] واستصفى أمواله وأملاكه بجميع البلاد ثمَّ عذَّبه تعذيباً شديداً حتى مات، وكان ابن الزيات في أيام وزارته ظالماً غاشماً، فسلّط عليه أظلم منه، فليعتبر الظالمون!!

ولم يقتصر الأمر على هذا بل صادر المتوكل كثيراً من عُمَّال أبيه وأذاقهم نكالاً.

وكان المتوكل يبغض العلويين بُغضاً شديداً على الضد مما كان يفعل المأمون، وكان كل ندماء المتوكل وسمَّاره على رأيه[2].

وفي عهده[3] فتح (قصريانة) وهو حاضرة صقلية بعد سرقوسة[4].

وفي سنة (٢٤٥هـ) بنى المتوكل مدينته التي سمَّاها (الجعفرية) و(المتوكلية) وأنفق على بنائها أكثر من ألفي ألف دينار، وحفر لها نهراً لسقي ما حولها.

وفي آخر أيامه حصلت بينه وبين ابنه وولي عهده (محمد المنتصر) وحشة، فاتفق المنتصر مع كبار الأتراك أن يفتكوا بالمتوكل، وقد نفذوا هذا الرأي لأربع خلون من شوال سنة (٢٤٧هـ).

وهو ثاني من قتل من بني العباس.

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيين، عالم باللغة والأدب ومن بلغاء الكتاب والشعراء له ديوان شعر توفي في سنة ٢٣٣هـ (الأعلام ج٦ ص٢٤٨).

(٢) كان المتوكل ناصبياً مظهراً كراهيته لسيدنا (علي) رضي الله عنه حتى كان من أمره أن أمر بهدم قبر سيدنا الحسين رضي الله عنه سنة ٢٣٦هـ.

(٣) وفي أيامه كانت نهاية فتنة خلق القرآن التي ابتدأت أيام المأمون.

(٤) قصريانة وسرقوسة: مدينتان كبيرتان في جزيرة صقلية.

١١ ـ محمد المنتصر ٢٤٧ ـ ٢٤٨

تولى بعد قتل أبيه، ولم يمتعه الله بملكه جزاء قتله لأبيه، فلم يمكث فيه إلا سنة واحدة[١].

وقاتل الله هذا الملك العقيم الذي يفرِّق بين الولد وأبيه، بل قاتل الله مطامع الدنيا، فإنها كثيراً ما تُطغي الإنسان وتعميه عمَّا هو خير له في دينه ودنياه.

١٢ ـ أحمد المستعين بن محمد بن المعتصم[٢] ٢٤٨ ـ ٢٥٢

ولاه موالي الأتراك الذين صار بيدهم زمام الجيش وهم مصدر القوة.

ومن ذلك الحين إلى انتهاء الدولة صار بيدهم زمامها يولّون من شاؤوا ويعزلون من شاؤوا حسب أهوائهم.

وهذا من أعظم الفساد الذي جرَّه (المعتصم) على بنيه بل وعلى الأمة من بعده.

ماذا ينتظر من قوم أقوياء يدعوهم الهوى فيجيبون، وهم في وسط لا قانون فيه يراعى لتنصيب الخلفاء، وتدافع الأمة عن الإخلال به؟ اللهم لا ينتظر منهم إلا منتهى الشرِّ وسوء الرأي.

والأشد من ذلك أنهم كانوا فيما بينهم مختلفين لاختلاف أهوائهم،

---

(١) الصحيح أنّ خلافته كانت ستة أشهر.

(٢) وفي أيام المستعين ثار (يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين السبط) بالكوفة فقتل في سنة (٢٥٠هـ) وفي نفس السنة خرج (الحسن بن زيد الداعي) بطبرستان وأسس الدولة فيها (الدولة الزيدية) التي استمرت إلى (٣٥٠هـ).

فكثيراً ما كانت تقع بينهم الشرور، والأمة هي التي تبتئس بكل ذلك، والخلافة تضعف هيبتها.

كان ذلك سبباً لتقوي الرُّوم وطغيانهم على بلاد المسلمين من جهة الشمال، وابتداء الاستقلال في الأطراف، وسترى كيف تفرقت هذه الدولة.

خُلع المستعين من الخلافة في أوائل سنة (٢٥٢هـ) وفي خلعه قال بعض شعرائهم:

خُلِعَ الخَليفةُ أحمدُ بنُ محمَّدِ
وسيُقتلُ التالي لَه أو يُخلَعُ
ويَزولُ مُلْكُ بني أبيه ولا نَرى
أحداً بملكٍ منهم يَتَمتَعُ
إيهاً بني العبَّاسِ إنَّ سَبيلَكُم
في قَتلِ أَعبدِكُم سبيلٌ مَهيعُ[1]
رفعْتكُم دُنياكم فتمزَّقتْ
بكم الحَياةُ تَمزقاً لا يُرْقَعُ

١٣ ـ محمد المعتز ٢٥٢ ـ ٢٥٥

خطب له بعد خلع ابن عمه المُستعين، ولم يلبث أَنْ أمر بقتل المستعين[2]، وجاءته رأسه وهو يلعب الشِّطرنج، فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست، فلمَّا فرغ نظر إليه وأمر بدفنه.

---

(١) الهيع: واضح واسع بيّن. اللسان (هيع).

(٢) خلع المستعين في ٤/ محرم/ ٢٥٢هـ، وقتل في ٣ شوال/ ٢٥٢هـ.

وفي عهده ابتدأت الدولة الصفَّارية بسجستان، والدولة الطولونية بمصر[1].

وفي أواخر رجب سنة (٢٥٥هـ) خُلع المعتز، خلعه الأتراك[2] وسلَّموه إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب حتى مات.

١٤ ـ محمد المهتدي بن الواثق ٢٥٥ ـ ٢٥٦

ولي بعد ابن عمه المعتز وفي عهده خرج بالبصرة صاحب الزنج المدعو (علي بن محمد) وهو الذي عاث في الأرض فساداً.

وقاسى العباسيون في إخضاعه الأمرّين.

وكان أمر الناس في حياة المهتدي مضطرباً ولا أمن للنَّاس على أموالهم ولا على أنفسهم.

وفي منتصف رجب سنة (٢٥٦هـ) خلع المهتدي وقُتل كما هي العادة، مع أنَّ صفاته الشخصية كانت حسنة[3] ولكن ذوي الأهواء قلَّما يرضيهم إنسان.

١٥ ـ أحمد المعتمد بن المتوكل ٢٥٦ ـ ٢٧٩

ولي بعد ابن عمه المهتدي، وفي أيامه استفحل أمر الزنج بالبصرة وفارس.

---

(١) انظر الدرس الخامس والثلاثين من هذا الكتاب.

(٢) قام بخلعه أحد كبراء الأتراك واسمه (صالح بن وصيف) قيل: إنه أدخله في حمَّام وسدَّ عليه بابه حتى مات.

(٣) كان المهتدي في العباسيين كـ (عمر بن عبد العزيز) في الأمويين، وصفه السيوطي فقال عنه: (كان.. ورعاً متعبداً عادلاً قوياً في أمر الله شجاعاً لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً).

واستولى يعقوب بن اللَّيث الصفار على نيسابور وطبرستان.

وفي عهده ابتدأت الدولة السامانية بما وراء النَّهر، وأولها (نصر بن أحمد بن أسد بن سامان) من أصل تركي.

وفي سنة (٢٧٠هـ) انتهى أمر الزنج بقتل كبيرهم بعد حروب شديدة كانت بينهم وبين القائمين بأمر الدولة[١].

وفي عهد المعتمد ظهرت القرامطة بسواد الكوفة، وهم قومٌ ملحدون في الدين، ورئيسهم رجلٌ لقبه (قرمط) واسمه (حمدون)، وكانت مصيبة المسلمين منهم شديدة، فإنهم كانوا يستحلِّون دم من خالفهم وماله، وطالما هاجموا الحاجّ وهم سائرون إلى بيت الله وحَرَمه فيقتلونهم ويأخذون أموالهم.

توفي المعتمد سنة (٢٧٩هـ).

١٦ ـ أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل ٢٧٩ ـ ٢٨٩

بويع بعد وفاة عمه المعتمد بعهد منه.

وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزمٍ عفيفاً.

وكان مهيباً عند أصحابه يخشون سطوته.

وفي عهده اشتد أمر القرامطة وعظمت أضرارهم بالشَّام والعراق والبحرين.

---

(١) كان خروج (علي بن محمد الوزريني) الملقب بـ (صاحب الزنج) بالبصرة سنة (٢٥٥هـ) أيام المهتدي كما مرَّ، فالتف حوله عبيد البصرة وامتد سلطانه إلى الأهواز وأغار على واسط وتعاظمت فتنته حتى أصبح عنده من الجند أكثر من (٣٠٠ ألف) وبنى لنفسه مدينة حصينة سماها المختارة، ثم تصدى لقتاله (أبو أحمد الموفق) أخو المعتمد وتمكن من القضاء عليه سنة (٢٧٠هـ) وأرسل رأسه إلى بغداد.

توفي سنة (٢٨٩هـ).

١٧ ـ علي المكتفي بن المعتضد ٢٨٩ ـ ٢٩٥

بويع بعد وفاة أبيه بعهد منه.

وفي عهده انقضى أمر (الدولة الطولونية) بمصر وعادت ولاية عباسية كما كانت.

وفي عهده ظهر (بنو حمدان) بالموصل، وهم قوم من عرب تغلب، وكان رئيسهم (أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان) ولاّه المكتفي الموصل، وكان لبني حمدان وقائع مشهورة في الحرب مع الصليبين الذين كانوا يودون الاستيلاء على بلاد المسلمين المقدسة، وهم الذين كان يمدحهم المتنبي الشاعر المشهور.

توفي المكتفي في ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ.

١٨ ـ جعفر المقتدر بن المعتضد ٢٩٥ ـ ٣٢٠

بويع بعد وفاة أخيه المكتفي، ولاَّه وزراء الدولة من غير عهد، ولكنَّ المكتفي كان أشار به وهو شديد المرض.

وفي عهده ابتدأت الدولة العلوية بإفريقية وهي الدولة الفاطمية التي ملكت مصر[١].

وقد طالت مدة المقتدر في الخلافة فإنَّه قتل سنة (٣٢٠هـ) حيث استوحش منه الأتراك فقتلوه.

---

(١) انظر الدرس السادس والثلاثين والدرس السابع والثلاثين من هذا الكتاب.

١٩ ـ محمد القاهر بن المعتضد ٣٢٠ ـ ٣٢٢

بايعه كـ ـ الدولة بعد قتل أخيه المقتدر.

وفي ابتدأت دولة بني بويه ببلاد الفرس.

ولم يمكث القاهر في الخلافة إلا سنتين فإنَّه خُلع في جمادى الأولى سنة (٣٢٢هـ)[١].

٢٠ ـ أحمد الراضي بن المقتدر ٣٢٢ ـ ٣٢٩

ولي بعد عمه القاهر، ولاَّه كبار الدولة.

وفي عهده اتسع ملك بني بويه وصاروا يفتتحون البلاد حتى قاربوا بغداد[٢].

توفي الراضي في ربيع الأول سنة (٣٢٩هـ).

٢١ ـ إبراهيم المتقي ٣٢٩ ـ ٣٣٣

بويع بعد وفاة أخيه الراضي.

وعهده مملوء بالاضطرابات والفتن والحروب بين رؤساء الدولة، كل يود أنْ تكون له السلطة، والدولة تنتقص أطرافها شيئاً فشيئاً، وهم لا يدفعون عن أنفسهم ولا عن الخلافة.

---

(١) خلع وسُملت عيناه، وبقي على هذه الحال إلى أن توفي سنة (٣٣٩هـ) ومن عجيب المقادير أن هذا الخليفة بعد أن كان ظالماً فاتكاً في أثناء خلافته إذا به يستجدي الناس ويسألهم بعد أن خلع من الخلافة ويقول: (تصدَّقوا عليَّ فأنا من قد عرفتم).

(٢) وفي عهده ظهرت الدولة (الإخشيدية) في مصر على يد (محمد بن طُغج الإخشيدي) سنة (٣٢٣هـ). واستمرت حتى دخول الفاطميين إلى مصر سنة (٣٥٨هـ).

وفي سنة (٣٣٣هـ) خلع المتقي[١].

ومن أقبح ما فعل معه سمل عينيه، فيا بؤس خلافة وصلت حالها إلى مثل هذا الحد.

٢٢ ـ عبد الله المستكفي بن المكتفي ٣٣٣ ـ ٣٣٤

بويع بعد خلع ابن عمه المتقي.

وفي عهده استولى معزّ الدولة ابن بويه[٢] على بغداد، وبذلك لقَّبه المستكفي كما لقَّب أخويه عماد الدولة، وركن الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير، ولم يعد بعد ذلك للخليفة إلا الاسم.

ولم يمض على ذلك كبير وقت حتى خلعَ معزُّ الدولةِ المستكفيَ من الخلافة سنة (٣٣٤هـ)[٣].

٢٣ ـ الفضل المطيع بن المقتدر ٣٣٤ ـ ٣٦٣

بويع بعد خلع ابن عمه.

وفي أيامه ازداد أمر الخلافة إدباراً بحيث لم يكن للخليفة وزير بل كان له كاتب يدَّبر إقطاعاته وإخراجاته لا غير.

وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، فكان بنو بويه يعتقدون أنَّ الأحق بالخلافة العلويون، فلم يكن هناك باعث ديني يبعثهم على الطَّاعة والانقياد لبني العباس.

وفي أيامه ابتدأ الخراب في قرى العراق ومزارعها لأنَّ معز الدولة

---

(١) وعاش مخلوعاً إلى أن مات في شعبان سنة (٣٥٧هـ).

(٢) انظر فيما يتعلق بدولة البويهيين (الدرس الحادي والثلاثين) من هذا الكتاب.

(٣) وعاش مخلوعاً إلى أن مات سنة (٣٣٨هـ).

أقطع الأجناد كثيراً منها فلم يلتفتوا لعمارتها.

وفي عهده ملك الروم مدينتي طرسوس والمصيصة[1] سنة (٣٥٤هـ).

وفي عهده ملك المعزّ العلوي مصر سنة (٣٥٨هـ).

وفي هذه السنة خرج ملك الروم إلى بلاد الشَّام فلم يمنعه أحد، فسار إلى طرابلس وأحرقها وسبى من فيها، ثمَّ فعل مثل ذلك بحمصَ، ثمَّ رجع إلى بلاد الساحل، فأتى عليها نهباً وتحريقاً، وملك ثمانية عشر منبراً، فأمَّا القرى فكثير، وأقام بالشام شهرين يقصد أي موضع شاء فلا يمنعه أحد.

وفي سنة (٣٥٩هـ) ملك الروم مدينة أنطاكية، ثمَّ أنفذوا جيشاً إلى حلب فملكها ولكنَّ أميرها صالحهم بعدُ على أنْ يخرجوا منها على مال يؤديه.

وفي سنة (٣٦١هـ) أغاروا على بلاد الجزيرة حتى بلغوا نصيبين.

ولما رأى ذلك أهل الجزيرة ذهب وفد منهم إلى بغداد مستغيثين، فذُعر النَّاس من أخبارهم، وقصدوا دار الخليفة وقالوا: كيف يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، ويدعون الروم يفعلون بالبلاد ما شاؤوا؟ فوعدوا بأنَّ الجيوش سُتجرَّد لذلك، وكتبوا إلى ابن حمدان يأمرونه بالتَّجهز فأعدَّ جنده، وكان بينه وبين الروم واقعة في ميافارقين[2] غُلب فيها الروم.

وفي سنة (٣٦٣هـ) خلع المطيع[3].

---

(١) طرسُوس: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.
والمصيصة: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد ا لروم تقرب طرسوس.

(٢) ميافارقين: أشهر مدينة في (ديار بكر).

(٣) وتوفي سنة (٣٦٤هـ) في ولاية ابنه الطائع.

الدرس التاسع والعشرون

٢٤ ـ عبد الكريم الطائع ٣٦٣ ـ ٣٨١

ولي بعد وفاة[١] أبيه المطيع.

وفي عهده ابتدأت دولة آل سبكتكين[٢] بغزنة[٣] وأعمالها ورأسها سبكتكين، وهذه الدولة كان لها أعظم أثر في فتح الهند ودخول الإسلام فيه.

خلع الطائع سنة (٣٨١هـ)[٤].

٢٥ ـ أحمد القادر بن إسحاق بن المقتدر ٣٨١ ـ ٤٢٢

بويع بعد خلع ابن عمه.

وفي عهده امتدت الدولة السبكتكينية إلى خراسان وملكتها.

وفي عهده سنة (٣٨٩هـ) انقرضت الدولة السامانية ببُخارى وصارت إلى الترك.

وفي عهد خلافة القادر عاد إلى الخلافة شيء من أُبَّهتها.

وكان حليماً كريماً، يحب الخير ويأمر به، وينهى عن الشَّر ويبغض أهله.

توفي سنة (٤٢٢هـ).

---

(١) بل ولي في حياة أبيه الذي خلع كما مرَّ.

(٢) انظر في شأن هذه الدولة الدرس الثالث والثلاثين من هذ الكتاب.

(٣) غزنة: مدينة عظيمة في طرف خراسان وهو الحد بين خراسان والهند.

(٤) وعاش مخلوعاً إلى أن مات سنة (٣٩٣هـ).

٢٦ ـ عبد الله القائم ٤٢٢ ـ ٤٦٧

بويع بعد وفاة أبيه القادر.

وفي عهده ساءت الحال جداً وفُقد الأمن ولم يعد لأحد القدرة على معاقبة العيَّارين[١] والسَّلابين لأنَّ بني بويه ضعف أمرهم جداً.

وفي مدة القائم ابتدأت دولة آل سلجوق[٢]، وأول من اشتهر منهم طغرل بك (محمد بن ميكائيل بن سلجوق).

وفي سنة (٤٤٧هـ) ملكوا بغداد وسقطت دولة بني بويه وانتهت كأنْ لم تكن.

ومما عدّ من غرائب التاريخ أنَّ طغرلبك صاهر الخليفة، فتزوَّج ابنته وهذا أمرٌ لم يجرأ أحدٌ ممن سبقه من الملوك على طلبه مع ما كانوا عليه من القوة.

وفي عهده كانت موقعة عظيمة بين السلطان ألب أرسلان السلجوقي وبين ملك الروم بناحية خلاط[٣]، وكان هذا خرج بجموع عظيمة فقابله ألب أرسلان بجنده المخلص القليل، فأوقعوا بالروم أيما إيقاع، حتى هزموهم وأسروا ملكهم، وقد افتدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وأنْ يُطلق كلُّ أسير في بلاد الروم، وهادنه السُّلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده وسيَّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه، وشيَّعه السلطان فرسخاً.

---

(١) العيارون: جمع عيّار وهو الرجل الذي يخلي نفسه على هواها لا يردعها ولا يزجرها.

(٢) انظر أخبار هذه الدولة (الدرس الثاني والثلاثين) من هذا الكتاب.

(٣) وهي الموقعة التي اشتهرت بموقعة (ملاذ كرد) في ٧ ذي القعدة ٤٦٣هـ.

وفي سنة (٤٦٧هـ) توفي القائم بأمر الله.

٢٧ ـ عبد الله المقتدي بن محمد بن القائم ٤٦٧ ـ ٤٨٧

بويع بعد وفاة جده القائم ولم يكن للقائم ولد ذكر من صلبه سواه.

وفي عهده استُردت انطاكية من الروم، استردَّها سليمان بن قتلمش صاحب قونية وكانت بيد الروم من سنة (٣٥٨هـ).

وفي سنة (٤٨٤هـ) استولى الإفرنج على جزيرة صقلية من أيدي المسلمين.

وفي أوائل سنة (٤٨٧هـ) توفي المقتدي.

٢٨ ـ أحمد المستظهر ٤٨٧ ـ ٥١٢هـ

بويع بعد وفاة أبيه، وفي أيامه ابتدأت دولة (محمد بن أنوشتكين) الملقب بخوارزمشاه، وأول أمره بخوارزم.

وفي عهده ابتدأ اشتداد الحروب الصليبية وخروج الإفرنج إلى بلاد المسلمين فملكوا أنطاكية، ثم ملكوا معرَّة النعمان.

وفي سنة (٤٩٢هـ) ملكوا بيت المقدس[1].

وفي كل بلد يفتحها الصليبيون يسومون المسلمين سوء العذاب، فيقتلون ويسبون ولا يراعون عهداً ولا ذمة.

كل ذلك وأمراء المسلمين لاهون بأنفسهم، والخصومة بينهم في كل يوم تزيد.

---

(١) وقتلوا من المسلمين (٩٠ ألف نفس) وكانت مجزرة عظيمة تشيب لهولها الولدان.

وكان يناوئهم أهل مصر حيناً بعد حين، فأحياناً ينالون منهم بعض الشيء، وأحياناً ينهزمون.

وفي سنة (٤٩٧) ملك الفرنج جبيل[١] وعكا من بلاد الشام، ثمَّ ملكوا حصن أفاميا[٢].

وفي سنة (٥٠٣) ملكوا طرابلس وبيروت ثم جبيل وبانياس ثم صيدا.

وفي سنة (٥٠٥) جرَّد السلطان الجنود لحربهم فكانت سجالاً.

وفي سنة (٥١٢) توفي المستظهر بالله.

٢٩ ـ الفضل المسترشد ٥١٢ ـ ٥٢٩

بويع بعد وفاة أبيه بعهد منه، وفي مدته ملك الفرنج مدينة صور، والمسلمون فيما بينهم يتنازعون يحارب بعضهم بعضاً، كلٌّ يود أن يغلب الآخر على ما بيده.

وفي سنة (٥٢٩هـ) قُتل الخليفة المسترشد، قتله السلطان مسعود السلجوقي إثر حرب كانت بينهما[٣].

---

(١) جبيل: مدينة على ساحل بحر الشام. معجم البلدان (٥/٣٦٣) ولعلها في لبنان اليوم.

(٢) أفاميا: مدينة حصينة من بلاد الشام وكورة من كور حمص.

(٣) السلطان مسعود ليس هو من قتل الخليفة المسترشد، ولكنه اعتقله وأخذه معه يريد دخول بغداد به، فلما كانوا على باب مراغه دخل عليه جمعٌ من الباطنية أرسلهم السلطان سنجر السلجوقي لقتله، فقتلوه ومثّلوا به.

٣٠ ـ المنصور الراشد ٥٢٩ ـ ٥٣٠

بويع بعد وفاة أبيه.

ولم تطل مدته فإنه خلع سنة (٥٣٠هـ).

٣١ ـ محمد المقتفي ٥٣٠ ـ ٥٥٥

بويع بعد خلع ابن أخيه الرَّاشد.

وفي عهده عظُم أمر أتابك زنكي ـ والد محمود نور الدين صاحب الأثر المحمود في حروب الصليبيين، وكان بالموصل وما جاورها، وهو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد امتدت مملكة نور الدين إلى أغلب مدن الجزيرة والشام ويبتدىء ملك محمود نور الدين من سنة (٥٤٦هـ) بعد قتل والده، وقد استرد من الإفرنج كثيراً من البلدان التي أخذوها من المسلمين.

وفي عهد المقتفي انقرضت دولة آل سبكتكين.

وتوفي المقتفي سنة (٥٥٥هـ).

٣٢ ـ يوسف المستنجد بن المقتفي ٥٥٥ ـ ٥٦٦

بويع بعد وفاة والده.

وفي عهده انقرضت دولة الفاطميين بمصر وملكها (أسد الدين شيركوه) نائباً عن محمود نور الدين.

ولما مات أسد الدين خلفه بها صلاح الدين يوسف بن أيوب رأس الدولة الأيوبية.

توفي المستنجد سنة (٥٦٦هـ).

٣٣ ـ الحسن المستضيء ٥٦٦ ـ ٥٧٥

بويع بعد وفاة والده.

وفي عهده توفي نور الدين، وخلفه في جهاده وحسن أثره صلاح الدين يوسف، وهو الذي استرد من الإفرنج بيت المقدس وكثيراً مما بأيديهم من المدن الإسلامية كما يجيء.

توفي المستضيء سنة (٥٧٥هـ).

٣٤ ـ أحمد الناصر ٥٧٥ ـ ٦٢٢

بويع بعد وفاة والده.

وفي عهده اتسعت جداً سلطة صلاح الدين وعظُم أمره وفتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ)، ويظهر الفرق بين ملك المسلمين وملك الإفرنج بما كان يفعله صلاح الدين مع من يفتح بلادهم من الوفاء بالعهد وكرم الأخلاق والعفو على عكس ما كان يفعله الإفرنج إذا غلبوا.

وقد توفي صلاح الدين في عهد الناصر سنة (٥٨٩هـ).

وفي مدته ابتدأ خروج التتار من بلادهم مغيرين على بلاد الإسلام.

توفي النَّاصر سنة (٦٢٢هـ) وهو أطول ملوك بني العباس خلافة بل أطول ملوك المسلمين قاطبة إلا ما كان من (المستنصر بالله العلوي) فإنه ولي ستين سنة ولكنه تولى وسنه سبع سنين.

وكان النَّاصر قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرب في أيامه العراق وتفرَّق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم، ويقال: إنَّه هو الذي أطمع التتار في بلاد المسلمين وراسلهم في ذلك، وتلك هي الطامة

الكبرى التي يصغر أمامها كل ذنب عظيم.

٣٥ ـ محمد الظاهر ٦٢٢ ـ ٦٢٣

بويع بعد وفاة أبيه.

ولم يطل أمره فإنه توفي سنة (٦٢٣هـ).

الدرس الثلاثون

٣٦ ـ المنصور المستنصر بالله ٦٢٣ ـ ٦٤٠

بويع بعد وفاة والده.

وفي عهده تسلم الإفرنج ثانية بيت المقدس صلحاً سنة (٦٢٦هـ) لما كان من الخلاف والشقاق بين أسرة صلاح الدين الأيوبي.

وكان المستنصر حسن السيرة في الرعية عادلاً، وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وجعل لها أوقافاً جليلة على أنواع البر.

٣٧ ـ المستعصم بن المستنصر ٦٤٠ ـ ٦٥٦

بويع بعد وفاة أبيه المستنصر.

وهو الذي كان على يده انتهاء الدولة العباسية، فقد كان وزيره (ابن العلقمي) وهو رافضي يحب (بني علي) ويكره بني العباس، فأراد أن يحول الخلافة إلى من يحبهم، فأرسل إلى التتار يطمعهم في بغداد، وكانوا قد استولوا على جميع البلاد الفارسية وما وراء النهر وغير ذلك، ورتَّب الوزير الأمر حتى لا تكون هناك مقاومة، فجاء التتار وأخذوا بغداد وقتلوا الخليفة وأفسدوا في بغداد إفساداً لم يُعهد في أي التواريخ مثله، فقد قتلوا من أهلها معظمهم، ولم يرحموا صغيراً لصغره، ولا كبيراً لعجزه، وأتلفوا ما كان بها من الكتب العظيمة، ولم ير ابن العلقمي ما كان طمع فيه بل أهين ثم قتل، وهكذا يُجزى الخائنون.

عموميات في الدولة العباسية

كانت الدولة العباسية من أول أمرها قائمة على أيدي الموالي من خراسان وبلاد فارس، فكان لهم في إقامة معالمها الشأن الأول، ولذلك كان منهم أعاظم الأمراء والقواد كأبي مسلم الخراساني وبني برمك وغيرهم، وكانت قوة الخلفاء في أول الأمر غالبة عليهم، فإذا رأوا منهم قوة عاجلوهم وبطشوا بهم، فلما كثُر هؤلاء الموالي استفحل أمرهم وصارت الخلافة بيدهم من غير قانون يرجع إليه فكان هذا بدء الانحطاط في أمر الدولة بعد وفاة المعتصم ثامن بني العباس.

وكانت هذه الدولة دولة العلم، لأنَّه في زمنها كان الاختلاط بين العرب وغيرهم من الفرس والروم، فتُرجمت الكتب في الفنون المختلفة.

قام بأمر ترجمتها مهرة الكتَّاب من المسلمين وغيرهم، فاتسع نطاق العلم، وكان للطب والفلسفة والهيئة الحظ الوافر من هذا التقدم.

أما العلوم العربية فقد اشتهر في النبوغ فيها الكثير من العلماء الأعلام كالخليل وسيبويه ومن قفا أثرهما في النحو.

وكتب سيبويه في النحو كتابه المشهور الذي منه استقى جميع الكتَّاب فن النحو والصرف.

أما في اللغة فحدِّث عن تقدمها ولا حرج، إذ كان الخلفاء يفيضون العطايا الواسعة على حفَّاظها وحفاظ آدابها.

فهذا شاعر ينال على إجادته فوق ما ينال الوزير على وزارته، وهذا راوية ينال من حسن حفظه وحسن إلقائه ما لا يطمع فيه مثله.

وقد كان للأصمعي وأضرابه وأبي نواس وأمثاله حظوظ وعطايا

نستعظمها نحن إذا ذكرت، لأنها إنَّما كانت تعد بعشرات الألوف، فكيف لا ترتقي بعد ذلك اللغة ويكون لها سوق نافقة.

كان للأغاني من الحظ في زمنهم غاية، فكان المحسنون من المغنين ذوي ثروة طائلة، ولم تكن أغانيهم كما هي عندنا الآن من السخافة وهجر القول، بل كانوا يتفننون فيها يغنون بالشعر الحماسي والأدبي، وقليلاً ما كانوا يغنون بالغزل والنسيب على العكس مما نحن عليه الآن فإنَّ أغانينا لا يفهم لها معنى، وإنْ فهم فهو هجر من القول.

والأغاني إذا ارتقت ارتقت معها الأخلاق، وإذا انحطت انحطت معها الأخلاق.

أما العلوم الدينية فقد ارتفع في زمنهم شأن الفقه والفقهاء، وشاع اسم الأئمة الأربعة المجتهدين: الإمام أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة (١٥٠هـ)، والإمام مالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩هـ)، والإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى بمصر سنة (٢٠٤هـ)، والإمام أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ)، ومن تلقى عنهم من الأئمة الأعلام.

وكتبت الكتب العظيمة في الفقه.

كما كتبت الصِّحاح التي جمعت فيها أحاديث رسول الله ﷺ كصحيحي الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما.

وكتب من كتب التفسير شيء كثير، وبالجملة فقد كان للعلماء القدح المعلَّى في كل فنٍ من الفنون، ومعظم ذلك في النصف الأول من تاريخ هذه الدولة.

أما في النصف الثاني فقد ضعفت الهمم، لما كان عليه الأمراء من

الاختلاف واستيلاء الأحقاد والأضغان على قلوبهم، فلم يعودوا يلتفتون لتقدم العلم ولا مساعدة العلماء، فكاد ينطفىء ذلك المصباح، لولا أن كان يساعدهم الله سبحانه من وقت لآخر ببعض الأمراء الذين يحبون العلم، فيبذلون مساعدتهم في إقامة أمور العلم ومساعدة طلابه.

كانت الدولة العباسية في القرن الأول من ملكها أكثر دول الدنيا مالاً، فقد كان جميع الأقطار الإسلامية تحت ملكها وعمرانه تام، فكان الخراج يأتيها وهم يبذلون منه كثيراً لمحتاجيه فتتوزع الثروة بين أفراد الأمة، ويقلُّ الفقر والحاجة، فلمَّا ابتدأ استقلال الأطراف وظهر الخارجون عليها بدأ الفقر يغالبها حتى غلبها، وحتى لم يكن للخليفة في آخر الأمر إلا ما يتبلَّغ به.

وكان شعار بني العباس (السواد) فكانت عمائمهم سوداء، وكذلك طيالسهم، وهو الزي الرسمي في المجتمعات العمومية وذلك لأن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح معتّماً بعمة سوداء ورديفه الفضل بن العباس.

الدرس الحادي والثلاثون

الدول والإمارات التي ظهرت زمن العباسيين

تقدَّم في تاريخ بني العباس اسم كثير من الدول التي كانت لها سلطة ملك أو خلافة في أيامهم، ونحن الآن نورد فصلاً مجملاً في بيان هذه الدول، وكيف ابتدأت وانتهت ومكان نشأتها.

الذين استقلوا بالأحكام في عهد الدولة العباسية كثيرون، ولكن منهم من لم تطل أيامه ومنهم من أورث بنيه من بعده ملكاً، وهؤلاء هم الذين نشتغل بهم ونبين مصاير أحوالهم.

قام بالشرق في عهد هذه الدولة أربع دول كبار، منها ثلاث تغلبت على بغداد وصارت هي الحاكمة فعلاً بالسلطة التي تستمدها من الخليفة ظاهراً، فكأنها تفعل ما تشاء باسمه.

سلطة شرعية لها اسم الخلافة، وسلطة حاكمة لها اسم الملك من الخليفة قهراً عنه.

وهذا مما يعدُّ في التاريخ شكلاً عجيباً من أشكال الحكومة الإسلامية وكان سبب ضعفها أو اضمحلالها وذهاب بهجتها وضياع هيبتها.

ولنتكلم عن هذه الدول الثلاث مرتبة بحسب استيلائها على بغداد، ثمَّ نتكلم على الدولة الرابعة.

ثلاثة أخوة من الديلم[1]. (علي، والحسن، وأحمد) أولاد أبي شجاع بويه هم الذين أسسوا هذه الدولة.

كان أكبرهم وأقدرهم (علي) يتولى الكرج[2] لمرداويج الديلمي أحد المتغلبين على بلاد الري، فأحسن (علي) إلى من يتولى أمرهم حتى أحبوه، وكان ميالاً إلى الرفعة والعلو، فذهب إلى أصبهان وملكها مع قلة جنده، ولما بلغ ذلك (مرداويج) خشي عاقبة الأمر، فأرسل إليه جنداً أخذه بأصبهان على غرَّة، فعلم بذلك (علي)، فسار عن أصبهان إلى أرجان فملكها، واستخرج منها أموالاً قوي بها.

وفي سنة (٣٢٢هـ) ملك شيراز، وكان يعامل من يغلبهم بالحسنى، ويبث بينهم العدل.

ولما ثبتت قدمه بشيراز كتب إلى الخليفة الطائع يُعلمه أنَّه على الطاعة، فأرسل إليه عهد الولاية.

وفي سنة (٣٢٦هـ) استولى أحمد بن بويه على الأهواز فأخذ (عَسْكَرْ مكرم)[3] و(تستر).

وفي سنة (٣٣٠هـ) سار الحسن بن بويه إلى الري فملكها.

هكذا كوَّن هؤلاء الأخوة هذا الملك واقتسموه بينهم مع إعطائهم لقب (أمير الأمراء) لأخيهم الأكبر (علي).

---

(١) الديلم: إقليم من أقاليم فارس.

(٢) الكرج: من قرى الري.

(٣) عسكر مكرم: بلد مشهور من نواحي خوزستان وانظر معجم البلدان (٤/ ١٢٣)

وفي سنة (٣٣٤هـ) سار أحمد بن بويه إلى بغداد واستولى عليها، وقابل الخليفة المستكفي بالله، فولاه الخراج وجباية الأموال، ولقبه (معز الدولة).

ولقَّب أخاه علياً (عماد الدولة).

ولقَّب أخاه الحسن (ركن الدولة).

وأمر أنْ تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم.

ولما كان الذي يهمنا من هذه الدولة هو ما لَهُ تمام العلاقة بالخلافة العباسية ببغداد جعلنا الكلام عليها قاصراً على الأحد عشر الذين تولوا ملك بغداد، غاضين النظر عن بقية من تشعب منهم واستقلَّ بملك جهة من الجهات، لأنَّ شأنهم ضعيف، وهذا نسق ملوك (بني بويه) ببغداد.

١ ـ معزّ الدَّولة ٣٣٤ - ٣٥٦

ظلَّ معزّ الدولة مالكاً ببغداد وهو كالنائب عن أخويه حتى توفي سنة (٣٥٦هـ).

٢ ـ بختيار بن معزّ الدَّولة ٣٥٦ - ٣٦٧

ولي أمر بغداد بعد أبيه بوصية منه.

وكان من أمر أبيه له أَنْ يطيع عمه (ركن الدولة)، ويستشيره في كل ما يفعل، وأَنْ يطيع ابن عمه (عضد الدولة)، لأنه أكبر منه سناً، وأقوم بالسياسة وكان عضد الدولة يلي أمر فارس بعد وفاة عماد الدولة، لأنه لم يكن له ولد ذكر، وأوصى معزّ الدولة ابنه بختيار بالإحسان إلى الجند، ولكن لم يفعل شيئاً مما أوصي به واشتغل باللهو واللَّعب، وأوحش المخلصين له، وأبعد كبار الديلم عن مملكته شرهاً إلى

إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتَّصلين بهم، ففسدت حاله، وبالطبع في مثل هذه الأحوال تسود الفتن، ويقلُ أمن النَّاس على أنفسهم وأموالهم، فسار إليه ابن عمه عضد الدولة وقبض عليه واستولى على بغداد، فأنكر عليه ذلك أبوه ركن الدولة أمير الأمراء وأمره برد (بختيار) إلى ملكه ففعل.

وفي سنة ٣٦٦ توفي ركن الدولة، فآلت مملكته إلى ابنه عضد الدولة، فاتسع ملكه ولم يبق من ينازعه فيما يريده، فسار إلى بغداد واستولى عليها، وخطب له بها، وهو أول من خُطب له من بني بويه على منابر بغداد، وكانوا قبل ذلك لايخطبون لأحد، ونَفَى (بختيار)، عن بغداد وذلك سنة (٣٦٧هـ).

٣ ـ فنَّا خُسرو عضد الدولة ٣٦٧ - ٣٧٢

ولي بعد خلع ابن عمه (بختيار)، ثم ملك الموصل من يد (بني حمدان)، ثمَّ ميافارقين وآمد[1] وغيرهما من ديار بكر، ولعضد الدولة آثار حسانٌ في بناء بغداد وإعادة بهجتها إليها بعد أنْ كادت تخرب بتوالي الفتن عليها.

وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمّة، ثاقب الرأي، محباً للفضائل وأهلها، باذلاً في موضع العطاء، مانعاً في أماكن الحزم، ناظراً في عواقب الأمور.

ومن أجلِّ صفاته أنَّهُ لا يعول في أمره إلا على الكفاءة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به.

حُكي عنه أنَّ مقدَّم جيشه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى

---

(١) ميافارقين وآمد: من أعظم مدن ديار بكر، وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً

القاضي ليسمع تزكيته ويعدِّله، فقال: هذا ليس من أشغالك، إنَّما الذي يتعلَّق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل مرتبة جندي، وما يتعلَّق بهم، وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي وليس لنا ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة.

وعمل عضد الدولة المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات[1] والقناطر[2] وغير ذلك من المصالح العامة، إلا أنه أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة، ومنع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجراً للخاص، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق.

توفي في شوال سنة (٣٧٢هـ).

٤ ـ المرزبان صمصام الدولة ٣٧٢ - ٣٧٦

ولي بعد وفاة أبيه عضد الدولة.

ولم تطل مدته إلا ثلاث سنين، فإنه سار إليه أخوه شرف الدولة من الأهواز فقبض عليه واعتقله وأخذ الملك منه سنة (٣٧٦هـ).

٥ ـ شيرزيل شرف الدولة ٣٧٦ - ٣٧٩

ولي الملك ببغداد بعد اعتقال أخيه.

ومن معايبه أنَّه أمر بسَمْلِ عَيني أخيه صمصام الدولة بعد اعتقاله.

---

(١) البيمارستانات: جمع بيمارستان، وهي كلمة فارسية الأصل تعني المستشفى.

(٢) القناطر: جمع قنطرة وهي جسر متقوس يبنى فوق النهر يعبر عليه.

ولم يتمتع كثيراً بهذا الملك الذي هوَّن عليه شنيع فعله، فإنَّه توفي سنة (٣٧٩هـ).

٦ ـ أبو نصر بهاء الدولة ٣٧٩ - ٤٠٣

ولي بغداد بعد وفاة أخيه.

خلع عليه الطائع وقلَّده السلطنة.

وفي سنة (٣٨٠هـ) طمع بمال الخليفة الطائع فقبض عليه بأن أرسل إليه وسأله الإذن بتجديد العهد به، فجلس الطائع على كرسي، ودخل بعض الدَّيلم كأنَّه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه عن سريره والخليفة يقول: (إنا لله وإنَّا إليه راجعون) ويستغيث فلا يغاث.

وكان الشريف الرضي فيمن حضر ذلك فخرج يقول:

أمسيتُ أرحمُ من قد كنتُ أَغبِطُه
لقد تقاربَ بين العِزِّ والهُونِ
ومنظرٌ كان بالسَّراءِ يُضحكُني
يا قُرْبَ ما عاد بالضَّراء يُبكيني
هيهاتَ أعتزُّ بالسلطانِ ثانيةً
قد ضلَّ عندي ولاّج السَّلاطينِ

وأقام بهاء الدولة بملك العراق أربعاً وعشرين سنة.

توفي سنة (٤٠٣هـ).

٧ ـ أبو شجاع سلطان الدولة ٤٠٣ - ٤١١

ولي الملك بعد وفاة أبيه، وفي عهده ضعف أمر دولة الديلم ببغداد، وطمعت فيهم العامة، وكُثر العيَّارون والمفسدون.

وفي سنة (٤١١هـ) شغب الجند على سلطان الدولة فانحدر عنها إلى واسط وترك بها أخاه مشرف الدولة، فاستولى عليها، وقد أراد بعد ذلك سلطان الدولة أن يسترجع ملكاً ضيَّعه فلم يقدر.

٨ ـ أبو علي مشرف الدولة ٤١١ - ٤١٦

استقر مشرف الدولة في ملك العراق بعد أخيه، وخُطب له به في أواخر المحرم سنة (٤١٢هـ)، ولم يمكث في المملكة إلا خمس سنوات فإنَّه توفي سنة (٤١٦هـ).

وكان عادلاً حسن السيرة.

وكانت سنُّه حين مات ٢٣ سنة.

وبموت (مشرف الدولة) خلت بغداد من سُلطان، فكثر الفساد فيها نحواً من سنتين فاستدعى الجند بها (أبا طاهر جلال الدولة).

٩ ـ أبو طاهر جلال الدولة ٤١٨ - ٤٣٥

فدخل بغداد سنة (٤١٨هـ)، وخرج الخليفة القادر لملتقاه وخلّفه واستوثق منه واستقرَّ ببغداد.

وفي عهده استفحل أمر العيَّارين ببغداد، وصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم، والسلطان (جلال الدولة) عاجزٌ عنهم لعدم امتثال أمره، والخليفة أعجز منه، وانتشر العرب[1] في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق.

وفي سنة (٤٣٥هـ) توفي جلال الدولة.

---

(١) العرب أي الأعراب: وهم سكان البادية الذين كانوا يقطعون الطرق.

١٠ ـ الملك أبو كاليجار المرزبان ٤٣٥ – ٤٤٠

ولاه الجند بعد وفاة أبيه، وخُطب له ببغداد سنة (٤٣٦هـ).

وهو الذي بنى سور مدينة شيراز، وأحكم بناءه، ودَوره اثنا عشر ألف ذراع في ارتفاع ثمانية أذرع، وله أحد عشر باباً.

وفي عهده حصل بالعراق غلاءٌ عظيم حتى أكل النَّاس الميتة ببغداد، وخلت الأسواق مما يطعم.

توفي أبو كاليجار سنة (٤٤٠هـ).

١١ ـ خسرو فيروز ٤٤٠ – ٤٤٧

ولاه جند بغداد، بعد وفاة أبيه، وطلب من الخليفة أنْ يلقبه بـ (الملك الرحيم)، فأجاب على كره منه.

وهو آخر ملوك بني بويه بالعراق، وبموته مُحيَ أثرهم على يد السُّلطان طُغْرُلبك السَّلجوقي.

وهذه الدولة لم تفد الخلافة العباسية ولا المسلمين شيئاً، بل زادت الخلافة ضعفاً على ضعفها، فضعف الأمن، واختلَّت السُّبل.

على أن لها بعض الحسنات الدَّاخلية في بناء المستشفيات والمدارس.

وكان بعصرها من العلماء البغداديين والفارسيين من كانت فائدتهم في المسلمين عظيمة.

الدرس الثاني والثلاثون

الدولة السلجوقية

كوّن هذه الدولة رجلان هما طُغْرُلبك محمد، وأخوه جغري بك داود، ولدا ميكائيل بن سلجوق.

وهما من أصل تُركي من بلاد التركستان، اعتنق جدهما (سلجوق) الإسلام، وارتحل بمن تبعه من جنود الأتراكِ إلى البلاد الإسلامية بما وراء النهر، ولم يزل في تنقله يختار مأمناً يأوي إليه هو ومن معه، وتوفي في هذه الحركات (سلجوق) ثم (ميكائيل)، وآل أمر عشائرهما إلى سلطة ولديه (طغرلبك) و(داود)، فقاسيا الصعاب والمشقّات مع الدولة السبكتكينية وغيرها من المتغلبين بتلك النواحي، وأخيراً استوليا على بلاد خراسان، وخُطب لداود بمرو سنة (٤٢٨هـ)، ولقب في الخطبة بملك الملوك، ودخل طُغْرُلبك نيسابور وسكن الشاذياخ[١]، وخُطب له فيها ولقب بالسلطان المعظم، ثمَّ استولوا بعد خطوب شديدة على بلخ وهَراة.

وفي سنة (٤٣٣هـ) ملك (طُغْرُلبك) جُرجان وطبرستان[٢].

وفي السنة التي بعدها ملَكَ خوارزم، ثمَّ ملك الرّي وبلاد الجبل، واتسعت مملكته فقد أخذ نصف ما بيد آل سبكتكين ومعظم ما بيد بني بويه.

---

(١) الشَّاذياخ: هي مدينة في نيسابور أم بلاد خراسان.

(٢) بلخ وهراة وجرجان: مدن مشهورة من مدن خراسان، وطبرستان: بلاد واسعة قريبة من خراسان.

وكانت دولة بني بويه في ذلك الوقت في دور الاحتضار، فصار طغرلبك ينتقص أطرافها ويستولي عليها شيئاً فشيئاً.

ثمَّ أخذ أذربيجان سنة (٤٤٦هـ).

وفي سنة (٤٤٧هـ) امتدت سلطته إلى بغداد فأخذها من الملك الرحيم آخر بني بويه، وخُطب لطغرلبك ببغداد في رمضان، وهو أول هذه الدولة.

وقد صاهرهم الخليفة القائم بأمر الله فتزوج ابنة (داود) أخي طغرلبك.

وفي سنة (٤٥١هـ) توفي جغري بك داود أخو طغرلبك صاحب خُراسان وخلفه على ملكها ابنه ألب أرسلان.

وطغرلبك هو الذي صاهر الخليفة وتزوج ابنته.

وكان له صفات جميلة وأخلاق رذيلة.

فمن الأولى أنَّه كان عاقلاً حليماً من أشد النَّاس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسرِّه كريماً.

ومن الثانية أنَّه كان ظلوماً غشوماً قاسياً، وكان عسكره يغصبون النَّاس أموالهم وأيديهم مُطلقة في ذلك نهاراً وليلاً.

توفي سنة (٤٥٥هـ).

٢ ـ ألب أرسلان محمد ٤٥٥ – ٤٦٥

بعد وفاة (طغرلبك) تمَّ أمر الملك لابن أخيه داود، وخُطب له ببغداد سنة (٤٥٦هـ) وكان مظفراً في غزواته، فملك كثيراً من بلاد الكرج، ولم يرحل عنها حتى صالحه ملك الكرج على أداء الجزية، وله مع الروم واقعة هائلة في نواحي خلاط[1] هزمهم فيها مع قلة

(١) هي موقعة مشهورة بـ (ملاذكرد) وقد مرت الإشارة إليها سابقاً.

جنده، وأسر ملك الروم ثم عفا عنه بعد أن افتدى نفسه.

وكان ألب أرسلان كريماً عادلاً، ولا يسمع السعايات، واتَّسع مُلكه جداً، وكان رحيم القلب رفيقاً بالفقراء، وكان يكثر الصدقة فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، ولم يكن في جميع بلاده مصادرة، وقد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم.

كتب إليه بعض السُّعاة سعاية في وزيره (نظام المُلك)[1] فسلَّمها إليه وقال له: إن كانوا صدقوا فهذّب أخلاقك وأصلح أحوالك وإن كانوا كذبوا فاغفر لهم زلَّتهم وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السِّعاية بالنَّاس.

ولما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته ومحافظته على عهوده أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النَّهر إلى أقصى الشَّام.

وكان شديد العناية بكفِّ الجند عن أموال الرعية، بلغه أنَّ بعض خواص مماليكه سلب من بعض الفلاحين إزاراً فأخذ المملوك وصلبه فارتدع الناس عن التعرض إلى مال غيرهم.

قتل سنة (٤٦٥هـ).

٣ ـ ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥

ولي بعد قتل أبيه، وفوَّض أمور دولته إلى وزير أبيه (نظام المُلك)، وقال له: قد رددت الأمور كلَّها كبيرها وصغيرها إليك،

---

(١) نظام الملك: الحسن بن إسحاق الطوسي أبو علي الملقب بقوام الدين، نظام الملك، وزير حازم عالي الهمة توفي سنة (٤٨٥هـ).

فأنت الوالد، فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما يستحق به الثناء، استغاثت به امرأة ضعيفة فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجَّابه فأنكر ذلك عليه، وقال: إنَّما استخدمتك لأمثال هذه فإنَّ الأعيان والأمراء لا حاجة بهم إليك.

وفي سنة (٤٦٦هـ) كتب الخليفة عهداً للسلطان ملكشاه بالسلطنة.

وفي سنة (٤٨٥هـ) توفي وزيره (نظام المُلك) الحسن بن علي، والذي دبر قتله هو السلطان ملكشاه لما عُظم أمر الوزير وصارت كلمته هي العليا، وكان في قتله الوزيرَ فسادُ حال الملك.

كان (نظام الملك) من أحسن وزراء الدنيا علماً وعقلاً.

كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري[١] وأبو المعالي الجويني[٢] يقوم لهما ويجلس في مسنده، وإذا دخل عليه (أبو علي الفارمدي)[٣] يقوم إليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّ هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يثنون عليَّ بما ليس فيّ فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظّلم فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه.

وهو الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد.

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، أبو القاسم زين الإسلام شيخ خراسان في عصره، زهداً وعلماً في الدين، توفي سنة ٤٦٥هـ.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين، ولد في جوين، توفي سنة ٤٧٨هـ.

(٣) هو الفضل بن محمد الفارمدي، أبو علي، العارف الصوفي، كان شيخ عصره صحب القشيري، وأخذ عنه حجة الإسلام الغزالي، توفي رحمه الله سنة ٤٤٧هـ، والفارمدي: بسكون الراء مهملة وفتح الميم ودال مهملة نسبة إلى فارمد قرية من قرى طوس.

وملكشاه هو الذي بنى الجامع المعروف بجامع السلطان ببغداد ووضع قبلته مُنَجمهُ (بهرام) وجماعة من علماء الفلك.

وكانت مدة ملكشاه غرة في ملك آل سلجوق.

اتسّع ملكه جداً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشّام، ومن أقصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحملت له ملوك الروّم الجزية، ولم يفته مطلب، وكانت أيامه أيام عدلٍ وسكونٍ وأمن، فعمرت البلاد ودرت الأرزاق.

توفي سنة (٤٨٥هـ).

٤ ـ بركياروق ٤٧٨ - ٤٩٨

بعد وفاة (ملك شاه) تنازع المُلك من بعده ثلاثة:

أصغر أولاده (محمود) الذي هو في الخامسة من عمره، وتدبره أمُّه وبعض وزراء أبيه.

وولده الكبير (بركياروق)[1].

وأخوه (ملكشاه تُتُش بن ألب أرسلان) ملك دمشق.

وبعد خطوب كثيرة استقرّ الأمر لبركياروق وخُطب له ببغداد أول سنة (٤٨٧هـ).

ولم يكن المُلك صافياً له لأنه نازعه فيه أخوه (محمد) وصارت الحروب بينهما تتوالى، وهي بينهما سجال، ولم ينته أمر هذه المنازعات إلا بوفاة (بركياروق) سنة (٤٩٨هـ).

---

(١) ولملكشاه ابنان آخران هما سنجر ومحمد الذي نازع بركياروق واستقام له الأمر من بعده.

٥ ـ محمد بن ملكشاه ٤٩٨ – ٥١١

بعد وفاة (بركياروق) قدم (محمد) بغداد واستقام له الأمر بها.

وفي تلك الأيام كثر آل سلجوق، وصار للكثير منهم ممالك خاصة بهم مستقلة عن مُلك بغداد في الشام وحلب والأناضول، فقواهم كانت متفرقة وذلك ما أدى إلى تغلب الصليبيين على كثيرٍ من بلاد الإسلام.

توفي محمد سنة (٥١١هـ) وكان عادلاً حسن السيرة، أطلق المُكوس والضرائب من جميع بلاده.

٦ ـ محمود بن محمد ٥١١ – ٥٢٥

ولي بعد وفاة أبيه بعهدٍ منه.

ولكن أمره لم يتم لأنَّ عمه (سنجر) طمع في ملكه فجاءه، وسار إليه (محمود) والتقيا بنواحي الرّي، وكانت الغلبة لسنجر فملك الرّي.

وفي عهد (محمود) هذا قوي أمر جدّ نور الدين الشهيد مؤسس الدَّولة النورية بحلب وغيرها.

توفي محمود سنة (٥٢٥هـ).

٧ ـ مسعود بن محمد ٥٢٥ - ٥٤٧

بعد وفاة (محمود) اتفق وزراء أبيه على تولية ابنه (داود) ولكن نازعه في الملك عمه (مسعود بن محمد) فجاء بغداد واستولى عليها بمساعدة (عماد الدين زنكي) والد نور الدين.

وكان بين (مسعود) وبين الخليفة (المسترشد) وحشة أدت إلى حرب بينهما انهزم فيها الخليفة ثمَّ قتل.

وتوفي السلطان مسعود سنة (٥٤٧هـ)، وبموته ماتت سعادة البيت السلجوقي فلم تقم لهم بعد قائمة.

٨ ـ ملكشاه بن مسعود ٥٤٧

ولي بعد وفاة عمه، ولكنَّ كبيراً من القوَّاد قبض عليه وأرسل إلى أخيه (محمد) ليحضر ويتولى السُّلطة، فجاء بغداد وملكها ثمَّ توفي سنة (٥٥٤هـ)، وبعد وفاته اختلفت هذه الأسرة فيمن يلي المُلك منها، واشتغلوا بأنفسهم ولم يعد منهم من يقدر على الذَّبِّ عن نفسه فضلاً عن حماية بلاد يملكها حتى انتهى أمرها.

آثار الدولة السلجوقية:

ولهذه الدولة آثار عظيمة في الأعمال النَّافعة ببغداد وغيرها سيَّما المدارس الدينية، فقد بنى في عهدهم (نظام المُلك) المدرسة النظامية ببغداد، وكان يدَرِّس بها كبار العلماء من الفقهاء والمحدثين والصوفية والفلاسفة، وناهيك بمدرسة كان يدَرِّس بها: الإمام الغزالي[1]

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، له، نحو: مئتي مصنف، توفي سنة ٥٠٥هـ.

الفيلسوف الكبير صاحب (إحياء علوم الدين) وكتب الأصول والفقه المفيدة توفي سنة (٥٠٥هـ).

وأبو إسحاق الشِّيرازي[1].

وغيرهم من أجلَّاء العلماء.

إلا أن الاختلاف والتَّفرق هو سوس الدول ومهلك الأمم، فلمَّا تسلَّط على هذه الدولة محاها ومحا معها تلك الآثار الجميلة.

---

(١) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي، أبو إسحاق، العلامة المناظر ولد في فيروز آباد (بفارس) وانتقل إلى شيراز توفي سنة ٤٧٦هـ.

الدرس الثالث والثلاثون

دولة آل سُبُكتكين

كان (سبكتكين) من رجال (أبي إسحاق) قائد جيش غزنة للسامانية، وكان مقدماً عنده وعليه مدار أمره.

توفي (أبو إسحاق) وليس من أهله وأقاربه من يصلح للتَّقدم، فاتفق العسكر على تولية (سُبكتكين)، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فوليهم وأحسن السِّيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة.

ولما رأى (سبكتكين) ما آل إليه أمره من طاعة النَّاس تعلَّقت به الأطماع فذهب إلى (بُست)[1] واستولى عليها، ثمَّ فعل مثل ذلك بقصدار[2]، ثمَّ غزا الهند فقهر ملكهم حتى اضطر إلى طلب الصُّلح من سبكتكين فصالحه.

وبعد هذه الواقعة أطاعه الأفغانية والخلج[3].

وفي سنة (٣٨٧هـ) توفي (سبكتكين) بعد أن ملك نحو عشرين سنة.

فملك بعده ابنه (إسماعيل) وكان أخوه (محمود) أكبر منه وهو

---

(١) بُست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ومنها الإمام البستي صاحب القصيدة المشهورة: (عنوان الحكم).

(٢) قصدار: ناحية مشهورة قرب غزنة.

(٣) الخلج: أهل بلدة قرب غزنة من نواحي زابلستان.

بنيسابور فلم يرض تولية أخيه فذهب إليه وقاتله بظاهر غزنة فانهزم إسماعيل وتولى:

١ ـ محمود بن سبكتكين ٣٨٨ - ٤٢١

وهو أول من تسمَّى بالسلطان من هذه الأسرة.

وفي سنة (٣٨٩هـ) استولى على خراسان[١].

وفي عهده انتهت الدولة السامانية بما وراء النهر، واقتسم دولتهم (محمود) من الغرب و(إيلك خان) التركي من الشرق.

ومحمود هذا هو صاحب الآثار الحميدة في غزو بلاد الهند وإدخال الإسلام بها، فقد غزاها جُملة غزوات والنَّصر حليفه.

وغزا المُولتان[٢] وفتحها.

وقد أدى له ملوك الهند الجزية لِمَا رأو من قوته وشجاعة جنده.

ثمَّ غزا بلاد الغور التي تجاور (غزنة) وملك مدينتها فأسلم أهلها وجعل عندهم (محمود) من يعلمهم شرائع الإسلام.

ثمَّ ملك (كشمير) فافتتحها وأسلم أهلها.

وملك (محمود) سجستان وخوارزم والري وبلاد الجبل وهمذان، واتَّسع ملكه جداً من أقاصي الهند إلى نيسابور.

وكان عاقلاً ديِّناً عنده خير ومعرفة، وصُنِّف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعطيهم ويُحسن إليهم.

---

(١) وفي هذه السنة أرسل الخليفة (القادر العباسي) إليه خلعة السلطنة.

(٢) المولتان: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة وهي من أراضي باكستان حالياً.

توفي سنة (٤٢١هـ) وكان يلقب بـ (يمين الدَّولة).

٢ ـ محمد بن محمود ٤٢١ - ٤٢٢

ولي بعد أبيه بعهدٍ منه، وترك أخاه الأكبر (مسعوداً) فأعاد فعلة أبيه فلم يتم الملك لمحمد بل اتَّفق القوَّاد على خلعه، ثمَّ قتلوه وولوا[1] أخاه (مسعوداً)، فوصل إلى غزنة سنة (٤٢٢هـ).

٣ ـ مسعود بن محمود ٤٢٢ - ٤٣٢

استتب له الأمر بعد خلع أخيه، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وسجستان وكرمان ومُكران والرّي وأصبهان وبلاد الجبل، وعظُم سلطانه وخيف جانبه.

وهو الذي في عهده ابتدأت دولة آل سلجوق، وكانت بينه وبينهم حروب شديدة.

٤ ـ محمد بن محمود ٤٣٢

وفي سنة (٤٣٢هـ) التف على أخيه (محمد) جماعة من القواد وحموله على أخذ المُلك من أخيه (مسعود)، فاتفق معهم وقاتلوا مسعوداً حتى هزموه ثمَّ قبض عليه (محمد) وسجنه بإحدى القلاع، ثمَّ قتله بعد ذلك.

ولكنَّ هذا لم يفد محمداً شيئاً فإنَّ (مودود بن مسعود) سار إلى عمه من خُراسان وقاتله وغلبه ثمَّ قتله.

---

(١) لم يقتلوه حيث عاد فولي بعد أخيه.

٥ ـ مودود بن مسعود ٤٣٢ - ٤٤٢

ولي بعد خلع عمه.

وفي عهده اشتد ساعد الدَّولة السلجوقية واستولت على كثير من بلادهم.

توفي سنة (٤٤٢هـ).

٦ ـ عبد الرشيد بن محمود ٤٤٢ - ٤٤٤

استقر الأمر لعبد الرشيد بعد وفاة ابن أخيه (مودود).

وفي سنة (٤٤٤هـ) ثار عليه أحد حجابه المسمى (طغرل) وقتله وأراد أخذ الملك لنفسه فلم يتم له بل قام عليه مخالفون وقتلوه وولوا:

٧ ـ فرُخزاد بن مسعود ٤٤٤ - ٤٥١

وبقي في الملك إلى سنة (٤٥١هـ) حيث توفي فيها وملك بعده أخوه:

٨ ـ إبراهيم بن مسعود ٤٥١ - ٤٨١

وكان عادلاً كريماً مجاهداً له غزوات كثيرة في بلاد الهند.

وكان يقول: لو كنت موضع أبي مسعود بعد وفاة جدي محمود لما انفصمت عرا مملكتنا، ولكنِّي الآن عاجز أن أسترد ما أخذه واستولى عليه ملوك قد اتسعت ممالكهم وعظمت عساكرهم.

توفي سنة (٤٨١هـ).

٩ ـ مسعود بن إبراهيم ٤٨١ – ٥٠٨

ولي بعد وفاة أبيه وكان مصاهراً لآل سلجوق فإنَّه تزوَّج أخت السلطان ألب أرسلان.

وتوفي سنة (٥٠٨هـ).

١٠ ـ أرسلانشاه بن مسعود ٥٠٨ – ٥١٢

تولى بعد وفاة أبيه فأتى بأشنع ما يسطر، فإنه قبض على جميع إخوته، وسجنهم ثمَّ قتل بعضاً وسمل بعضاً من غير خروج منهم عن الطاعة، ولكنَّ أخاً له اسمه (بهرام) هرب إلى السلطان سنجر السلجوقي، واستعان به فأعانه، وسار معه بجيش عظيم إلى غزنة، فقاتل (أرسلانشاه) وهزمه وأجلس أخاه

١١ ـ بهرامشاه ٥١٢ – ٥٤٧

على سرير أبيه بشرط أن يخطب للسلاجقة قبله وهي أول مرة خطب فيها لآل سلجوق على منابر غزنة.

وفي عهد (بهرامشاه) هذا ضعفت الدولة السبكتكينية جداً، وأغار عليها ملك الغور وصاروا ينتقصون أملاكها.

١٢ ـ خسروشاه بن بهرامشاه ٥٤٧

وفي عهد ولده (خسروشاه) استولوا على غزنة وأخذوا آخر ملوك هذه الدولة أسيراً، وبذلك انقرضت دولتهم سنة (٥٤٧هـ) على يد السلطان غياث الدين الغوري.

وكان ابتداء مملكتهم سنة (٣٦٦هـ) (فتكون مدة ولايتهم ١٨١

سنة) وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولا سيما جدهم محمود فإنَّ آثاره في الجهاد وفتح الهند عظيمة.

هذه هي الدول الثلاث العظمى التي قامت في عهد الدولة العباسية واستمدت منها السلطة ببلاد المشرق.

أما الدول التي قامت غربي بغداد فلمَّا كان لها من الارتباط بمصر أردنا أنْ نذكر تاريخ مصر متتابعاً من عهد فتحها ويأتي ذكر تلك الدول في ضمنه.

الدرس الرابع والثلاثون

تاريخ مصر

فُتحت مصر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قائد جندها الأمير (عمرو بن العاص)، وسيَّره إليها (عمر) في السنة العشرين من الهجرة ومعه أربعة آلاف رجل من شجعان المسلمين، وكانت مصر في ذلك الوقت إيالة[١] تابعة لمملكة الرُّوم، وعليها أمير من قِبلهم مع تقديم عظيم من عظماء القُبْط يرجع إليه الولاة في الظَّاهر واسمه (المقوقس).

فلما وصل (عمرو) إلى الفرما[٢] قاتله فيها الروم نحواً من شهر حتى ظفر بهم. وكان أُسقف الإسكندرية يكتب للقبط فيأمرهم بعدم الجد في حرب المسلمين، فيقال: إنَّ القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً.

ثم توجه (عمرو) لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى (بلبيس)[٣] فقوتل نحواً من شهر، ثمَّ فتحها ومضى حتى وصل (أم دنين)[٤] فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى (عمر) يستمده فأمَدَّه بأربعة آلاف، فتم من معه ثمانية آلاف، فقوي بذلك عمرو وحاصر الحصن الذي يقال له (بابليون) بالقرب من مكان مصر القديمة عند

---

(١) إيالة: ولاية تابعة للروم تصلحها وتسوسها.

(٢) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر.

(٣) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام.

(٤) أم دنين: هي من القرى المصرية القديمة المندرسة، كانت تقع خارج القاهرة، واقعة على شاطىء النيل.

كنيسة المعلقة وألحَّ عليه ونصب عليه المنجنيق، ولما أشرف على افتتاحه خاف من فيه على أنفسهم، فطلبوا من عمرو الصُّلح بلسان كبيرهم (المقوقس)، فأجابهم (عمرو)، وقد كان مكثهم في حصار هذا الحصن سبعة أشهر، وصار القُبط بعد ذلك أعواناً لعمرو على الروم الذين لم يرضهم هذا الصلح.

ثم افتتح عمرو بعد ذلك الإسكندرية عَنْوة من الروم لأنها كانت مقرّ ملكهم.

ولما تمّ أمر الفتح كان عمرو بن العاص والياً على مصر فنزل في الموضع الذي ضُرب فيه فُسطاطه، وأسَّس هناك المدينة التي سميت بعد بالفسطاط، وهي التي نسميها نحن الآن بمصر القديمة أو العتيقة، وجعلها خططاً، لكل جماعة من جنده خطة وهي بمنزلة الحارة في القاهرة.

وظلّ الفسطاط حاضرة مصر من سنة الفتح إلى سنة (١٣٢هـ) وهي سنة انقضاء الحكم الأموي.

وكانت مصر ولاية تابعة للخلافة الإسلامية يولي عليها الخليفة أميراً من قبله.

تداول عليها من الأمراء من سنة (٢٠هـ) إلى سنة (١٣٢هـ) سبعة وعشرون أميراً، أطولهم مدةً (مَسْلمة بن مخلد)، فإنَّه ولي خمس عشرة سنة.

ومنهم من كانت مدته الشَّهر والشهرين.

ومن أصحاب الأثر من أمراء مصر:

عبد الله بن سعد بن أبي سرح[1]: فإنَّه غزا ثلاث غزوات كبرى، غزا إفريقية (الغرب الأدنى والأوسط) سنة ٢٧هـ، وانتصر فيها انتصاراً باهراً.

وغزا البلاد السودانية حتى بلغ دنقلة سنة ٣١هـ، وغزا الغزوة الملقبة بذات الصواري سنة ٣٤هـ مع ملك الرُّوم قسطنطين بن هرقل، وكان الروم في سبعمائة مركب والمسلمون في مائتين، فانتصر المسلمون على أعدائهم انتصاراً عظيماً.

ومنهم:

عقبة بن عامر الجهني[2]: صاحب المسجد المشهور بالقرب من الإمام الشافعي، وكان قارئاً فقهياً.

ومنهم مسلمة بن مخلد[3]: وفي أيامه نظمت الغزوات في البرِّ والبحر، وهو أطول أمراء مصر في هذا العهد مدة.

ومنهم عبد العزيز بن مروان[4]: وفي عهده حصل طاعون بالفسطاط، فخرج منها ونزل حلوان، فاتخذها داراً وسكنها، وجعل بها الأعوان، وبنى بها الدور والمساجد، وعمرها أحسن عمارة، وغرس نخلها وكرمها.

---

(١) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري من بني عامر بن لؤي وفارسهم، وهو من أبطال الصحابة رضي الله عنه، توفي سنة ٣٧هـ.

(٢) هو عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني صحابي توفي سنة ٥٨هـ.

(٣) هو مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري الخزرجي، من كبار الأمراء في صدر الإسلام، توفي سنة ٦٢هـ.

(٤) هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو الأصبغ، أمير مصر، توفي سنة ٨٥هـ.

ومنهم عبد الله بن عبد الملك بن مروان[1]: وهو الذي أمر أن تُنسخ دواوين مصر بالعربية وكانت بالقبطية، وفي أيامه غلت الأسعار فتشاءم الناس به، وهي أول شدة رأوها بمصر، وكان (عبد الله) يرتشي، ومن تعاسة الأمم أن يكون لها أمير يرتشي، فإنَّ مصالحها تضيع أمام هذه النَّكبة، ومن الغريب أن هذا الأمير لم يتمتع بما ناله من هذا السبيل المحرم، فإنَّه لما عزله أخوه (الوليد بن عبد الملك) وسار من مصر ووصل إلى الأردن أحيط به وأخذ جميع ما معه من المال، وحمل إلى أخيه فكان عليه إثمه ولغيره غُنمه.

ومنهم أ يوب بن شرحبيل[2]: وهو الذي ولاه الرجل الصالح (عمر ابن عبد العزيز) وورد عليه كتابه بالزيادة في أعطيات الناس عامة، ومنع من مصر في أيامه الخمر وهي أعظم مضرّة لها، وبالجملة فإنَّ أيوب سار في مصر بسيرة الخليفة الطيبة.

ومنهم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير[3]: وهو الذي أمر باتخاذ المنابر في الكور ولم تكن قبله وإنما كان ولاة الكور يخطبون على العصي إلى جانب القبلة، وهو آخر ولاة بني أمية.

[مصر زمن العباسيين]

ولما انتهى ملك بني أمية وخلفتها الدولة العباسية صارت مصر ولاية تابعة لبني العباس، وكان افتتاحها بعسكر (صالح بن علي

---

(١) عبد الله بن عبد الملك بن مروان الأموي توفي سنة ٩٠هـ.

(٢) أيوب بن شرحبيل بن أبرهة الأصبحي من بني الصباح، أمير من النبلاء الصلحاء، توفي سنة ١٠١هـ.

(٣) عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمي، آخر أمير ولي مصر في العصر الأموي، توفي سنة ١٣٣هـ.

العباسي) و(أبي عون عبد الملك بن يزيد)، وقد نزل عسكرهما خارج الفسطاط بين حدرة ابن قميحة إلى كوم الجارح، حيث الفضاء الذي يتوسط ما بين قنطرة السد وبين سور القرافة.

فأمر أبو عون أصحابه أن يبنوا في ذلك المكان، فبنوا وسمى ذلك المكان بالعسكر، واتصل البناء فيه بالفسطاط، وبني فيه دار الإمارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر.

واستمر بعد ذلك العسكر منزلاً لأمراء مصر من عهد (أبي عون) أول أمراء العباسيين إلى مجيء (أحمد بن طولون)، من سنة ١٣٣هـ إلى سنة ٢٥٤هـ فمدتهم مائة واثنتان وعشرون سنة.

وقد تولى منهم نحو خمسة وستين أميراً أطولهم مدة:

(يزيد بن عبد الله بن دينار)[١]: فقد دامت ولايته نحو عشر سنوات.

و(يزيد[٢] بن حاتم) فقد كانت مدته نحو ثماني سنوات.

والكثير منهم مكث السنة والسنتين والشهر والشهرين، حتى أنه في مدة خلافة الرشيد تقلب على مصر ثلاثة وعشرون أميراً، وفي مدة المأمون خمسة عشر أميراً.

وممن له شأن من الأمراء في هذا الدور:

---

(١) يزيد بن عبد الله بن دينار، أبو خالد، توفي سنة ٢٥٥هـ.

(٢) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو خالد، من القادة الشجعان في العصر العباسي، توفي سنة ١٧٠هـ.

(يحيى بن داود) من أهل خراسان، وكان أبوه تركياً، وهو من أشد الناس وأعظمهم هيبة، وأقدمهم على الدم، وأكثرهم عقوبة، فمنع من إغلاق الدروب بالليل وإغلاق الحوانيت، حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها، وقال: من ضاع له شيء فعلي أداؤه، وكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول: يا أبا صالح احرسها، فكانت الأمور على هذا مدة ولايته، وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكره يقول: هو رجل يخافني ولا يخاف الله.

وممن يذكر منهم بالسوء (موسى بن مصعب بن الربيع) من أهل الموصل، شدَّد في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل به، وارتشى في الأحكام، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدَّواب، فكرهه الناس ونابذوه، وانتهى أمره أن قُتل، وكان ظالماً غاشماً، سمعه الليث بن سعد[1] وهو يقرأ في خطبته: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

فقال: اللهم لا تمقتنا.

ومنهم (علي بن سليمان بن علي العباسي)[2]، أظهر في ولايته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع الملاهي والخمور.

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً، توفي سنة ١٧٥هـ.

(٢) علي بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي أبو الحسن توفي سنة ١٧٨هـ.

وكان كثير الصدقة، ومن أعماله أنَّه هدم الكنائس المحدثة في مصر، فلما جاء خلفه (موسى بن عيسى العباسي)[1] أذن في بنائها فبنيت بمشورة الإمامين (الليث بن سعد) و(عبد الله بن لهيعة)[2].

ومنهم (السري بن الحكم)[3] وهو الذي في عهده دخل الإمام محمد بن إدريس الشافعي مصر، وأقبل عليه أهلها متعلمين، وتفقهوا عليه، وقلَّد الكثير منهم مذهبه، وقد توفي[4] رحمه الله سنة (٢٠٤هـ) ودفن بتربته المعروفة.

وفي آخر هذا العهد كان أمراء مصر من موالي الأتراك تبعاً للحال في بغداد، وآخرهم (أرجون بن أولع طرخان التركي)، وكان قبل أن يلي رئيسَ الشرطة، فمنع النساء من الحمامات والمقابر، ومنع النوائح ونهى أن يشق ثوب على ميت أو يسوّد وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة، وعاقب في ذلك وشدد فيه، وكان عزله في رمضان سنة (٢٥٤هـ) بأحمد بن طولون.

---

(١) موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي الهاشمي من آل عباس توفي سنة ١٨٣هـ.

(٢) عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري أبو عبد الرحمن، قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدثها في عصره، توفي سنة ١٧٤هـ.

(٣) السري بن الحكم بن يوسف، توفي سنة ٢٠٥هـ.

(٤) أي: الإمام الشافعي.

الدرس الخامس والثلاثون

الدولة الطولونية

١ ـ أحمد بن طولون والقطائع ٢٥٤ – ٢٧٠

في سنة (٢٥٤هـ) ولي مصر أحمد بن طولون، فدخلها لسبع بقين من شهر رمضان، وكان من كثرة العبيد والرجال بحيث ضاقت عليه دار الإمارة، فركب إلى سفح الجبل وبنى القصر والميدان، وتقدَّم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط.

ثم قطِّعت القطائع، وهي بمنزلة الحارات في القاهرة والخطط في الفسطاط، فصارت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران.

ومن آثاره الباقية مسجده الشهير بجامع ابن طولون ذي المنارة الممتازة بسلّمها الخارجي والمنبر الجميل الصنع، وهو الآن معطل لا يصلى فيه.

وكان حد القطائع طولاً من قبة الهواء التي صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون، وحدّها عرضاً من الرميلة تحت القلعة إلى مشهد زين العابدين.

وكانت مساحتها ميلاً في ميل.

وكان قصر ابن طولون بالقرب من قلعة الجبل، وجعل بين القصر

والجامع الذي بناه ميداناً سلطانياً، وبحذاء الجامع دار الإمارة.

وكان (ابن طولون) من أحسن الأمراء، فإنَّه أسقط كثيراً من المظالم التي يضعها عادة ولاة الجور سداً للنهم والشره.

وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء متواترة، وكان راتبه لذلك في كلِّ شهر ألفي دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النّعم، وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها.

وكان له مجلس ينظر منه إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرّه ذلك ويحمد الله عليه.

وبنى مارستاناً للمرضى في أرض العسكر بين جامعه وكوم الجارح سنة (٢٥٩هـ)، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان (مستشفى)، ولما فرغ منه وقف عليه أوقافاً كثيرة، واشترط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرِّجال والآخر للنساء، وشرط أنَّه إذا جيء بالعليل، تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ثمَّ يلبس ثياباً وتعوده الأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجاً ورغيفاً أمر بالانصراف وأُعطي ماله وثيابه.

وكان الذي أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار.

وكان يركب بنفسه كل يوم جمعة، ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الأعِلاَّء والمحبوسين من المجانين.

كان (ابن طولون) بمصر مستقلاً في إدارتها عن (بني العباس).

توفي رحمه الله في ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ.

٢ ـ أبو الجيش خَمَارَوَيْه ٢٧٠ - ٢٨٢

بايعه الجند بعد وفاة أبيه.

ولما تولَّى أقبل على قصر أبيه وزاد فيه، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشَّجر، وحمل إليه كل صنفٍ من الشجر المطعم العجيب، وأنواع الورد، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجساد النخل ميازيب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساقي معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان.

وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة.

وزرع فيه النيلوفر[١] الأحمر والأزرق والأصفر والجَنَوي العجيب وأشباه ذلك من كل ما يستطرف ويستحسن.

وسرَّح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً.

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه، كلها بالذهب المحلول باللازورد[٢]، المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول

---

(١) النيلوفر: جنس نباتات مائية، منه أنواع تنبت في الأنهار وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها.

(٢) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي.

على صورته وصورة أهل بيته بأحسن تصوير وأبهج تزويق، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز والكَوَادِن المرَصعة بأصناف الجواهر، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا إذ ذاك.

وبنى أيضاً في داره داراً للسباع، عمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبوته، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت، وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير يخرج إليها السباع إذا أريد تنظيف بيوتها ووضع غذائها لها.

وبلغ رزق الجيش في أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار في كل سنة.

وقام مطبخه المعروف بمطبخ العامة بثلاثة وعشرين ألف دينار كل شهر.

وزوَّج خليفةَ بغداد المعتضد ابنته (قطر النَّدى) ولما أتمَّ جهازها بنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصراً فيما بين مصر وبغداد، فكانت إذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فُرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعُلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها حال الإقامة، فكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشُّقة كأنَّها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة (٢٨٢هـ).

وكانت منيته بدمشق حيث خرج إليها لأنها كانت من ضمن ولايته فذبحه جواريه وخدمه وحمل إلى مصر، وكان ذلك في أواخر سنة (٢٨٢هـ).

٣ ـ جيش بن خمارويه ٢٨٢ - ٢٨٣

ولي بعد قتل أبيه، فظهرت منه أمور أُنكرت عليه، فاستوحش من عظماء الجند وتنكَّر لهم فخافوه ودأبوا في الفساد، ثمَّ قاموا في وجهه وخلعوه، وكان خلعه في جمادى الآخرة سنة (٢٨٣هـ).

٤ ـ هارون بن خمارويه ٢٨٣ - ٢٩٢

ولي بعد خلع أخيه، ولكن قام طائفة من الجند وكاتبوا (ربيعة بن أحمد بن طولون) ليولوه بدله فجمع (ربيعة) جمعاً وجاء لمحاربة ابن أخيه ولكنَّه هزم وقتل.

ثم إنَّ خليفة بغداد (المكتفي) أراد استرجاع مصر، فأرسل جنداً يقوده (محمد بن سليمان الكاتب) وكان معه أسطول عظيم، فحارب أُسطول هارون وقهره.

كل ذلك وهارون متشاغل بلهوه فأجمع عمَّاه شيبان وعدي ابنا أحمد بن طولون على قتله فدخلا عليه وهو ثمل فقتلاه في صفر سنة (٢٩٢هـ).

٥ ـ شيبان بن أحمد بن طولون ٢٩٢

ولي بعد قتل ابن أخيه، وقد أنكر كثير من القواد قتل هارون فخالفوا على (شيبان)، وراسلوا (محمد بن سليمان) المرسل من قبل الخليفة، فجاء إلى الفسطاط، ولما علم بذلك (شيبان) طلب الأمان، فأمَّنوه بعد أن ولي اثني عشر يوماً، ودخل (محمد بن سليمان) فألقى النار في القطائع ونهب أصحابه الفسطاط، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وفعلوا كل قبيح فأخرجوا النَّاس من دورهم، وأُخرج أولاد

أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً، وأخرج قوادهم فلم يبق منهم بمصر أحد، وخلت منهم الديار، وعفت منهم الآثار، وتعطَّلت منهم المنازل.

عودة مصر إلى الخلافة العباسية

وكانت مدة (بني طولون) بمصر سبعاً وثلاثين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وولي منهم خمسة أمراء، وبذلك عادت مصر ولاية تابعة للعباسيين كما كانت من هذه السنة وهي سنة (٢٩٢هـ) إلى أن جاءت (الدولة الفاطمية) سنة (٣٥٨هـ) فهي ست وستون سنة، ولي فيها ثلاثة عشر أميراً، وكانت هذه المدة مملوءة بالفتن والاضطرابات لضعف الدولة التي تُوَلِّي هؤلاء الولاة، وتوجَّه الخلفاء الفاطميون إلى الاستيلاء على مصر فكانت بينهم وبين أهل مصر مناوشات في معظم الأوقات.

ومن أشهر الولاة في تلك المدة:

(**محمد بن طُغُج بن جف الفرغاني**) الملقب بالإخشيد تولَّى مصر مرتين ثانيتهما من قبل الراضي بالله سنة (٣٢٣هـ) ولم يزل والياً إلى أن توفي سنة (٣٣٤هـ).

فولي بعده ابنه (أنوجور) باستخلاف أبيه، وكان المتحكم عليه في دولته (كافور) الخصي الملقب الإخشيدي نسبة إلى سيده الإخشيد.

ولما توفي (أنوجور) سنة (٣٤٧هـ) وولي بعده أخوه (علي) بن الإخشيد قوي أمر (كافور) وصار هو المتصرف في أمر الدولة.

ولما مات (علي) ولي (كافور) أمر مصر سنة (٣٥٥هـ)، وهو صاحب المتنبي الشاعر، وله فيه المدائح العظيمة حينما كان يدر عليه

عطاياه، والأهاجي الخبيثة حينما غضب عليه، وقد هجا في طريقه أهل مصر كلهم لقبولهم ولاية مثله.

توفي كافور سنة (٣٥٧هـ) فولي بعده (أحمد بن علي الإخشيد) وسنُّه إحدى عشرة سنة، وفي عهده قدم جوهر القائد فاستلم مصر باسم الخلفاء الفاطميين.

الدرس السادس والثلاثون
الدولة الفاطمية

- ١ -

تُنسب الدولة الفاطمية[١] إلى (فاطمة الزهراء) بنت رسول الله ﷺ.

ويقال لها: (العبيدية) نسبة إلى أول خلفائها (**عبيد الله المهدي**) القائم بإفريقية بهمة قائده وداعيته أبي عبد الله الحسين بن أحمد الشيعي، الذي سار إلى إفريقية فدعا النَّاس إلى المهدي المنتظر، وبمن أجابه استولى على القيروان ورقادة وسجلماسة، وبرقادة[٢] نزل عبيد الله المهدي سنة (٢٩٧هـ) فخطب له بها وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، ومن الغرائب أنَّه لم يَعرف لأبي عبد الله الشيعي مؤسس ملكه حقَّه فقتله بعد أن استتب له الأمر، كما قتل المنصور العباسي أبا مسلم الخراساني.

وما زال مُلك المهدي يتسع حتى كان له معظم شمال إفريقية، وهو المغرب الأدنى والأوسط، وبنى مدينته (المهدية) وأدار عليها سوراً جعل فيه أبواباً زنة كل مصراع منها مائة قنطار من حديد، ابتدأ بناءها سنة (٣٠٣هـ) وكان لجنوده مع مصر مناوشات، ولكن لم يتم له أمر ملكها.

توفي سنة (٣٢٢هـ).

---

(١) انظر في صحة نسبتهم هذه مقدمة تاريخ الخلفاء للسيوطي.

(٢) القيروان ورقادة وسلجماسة وبرقادة: مدن إفريقية.

فقام من بعده ابنه ووليُّ عهده القائم بأمر الله **محمود**، وتبع في الحكم سيرة أبيه.

توفي سنة (٣٣٤هـ) ولم يرق منبراً ولا ركب دابة لصيد مدة خلافته، وصلى بالناس العيد مرة واحدة.

وولي بعده ابنه **المنصور بنصر الله إسماعيل**، وكان خطيباً بليغاً يرتجل الخطبة لوقته شجاعاً عاقلاً، توفي سنة (٣٤١هـ).

وقام من بعده ابنه (**المعز لدين الله معد**)، وكان وزيره ومدّبره مولاه جوهر الصقلي، وهو الذي أرسله المعز لفتح مصر، فسار إليها من القيروان في ربيع الأول سنة (٣٥٨هـ)، ولما وصلها لم يجد كبير عناء في فتحها لأنَّ أهل مصر كانوا يميلون أن يخرجوا من حكم العباسيين إلى حكم العلويين.

ولما استتبت فيها قدمه شرع في بناء القاهرة، وكانت إذ ذاك رملة بين مصر وبين عين شمس يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس، وكانت فيما بين الخليج والجبل، ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هي بستان (الإخشيد محمد ابن طغج) الذي كان معروفاً بالكافوري، ودير للنصارى يعرف بدير العظام، وكان بهذه الرملة مكان ثالث يعرف بقُصير الشوك، وصار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك.

وكانت القاهرة تطلق على ما حازه السور الذي طوله من باب زويلة إلى باب الفتوح وباب النصر، وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة إلى باب البرقية والباب المحروق.

وكان اختطاط القاهرة في جمادى الآخرة سنة (٣٥٩هـ)، واختطت

كل قبيلة خطة عرفت بها، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت الروم حارتين حارة الروم التي مدخلها بباب مدرسة العقادين وحارة الروم الجوانية.

ووضع جوهر أساس القصر، ومكانه يقارب المشهد الحسيني الآن.

ثم أسس أول جامع بُني في القاهرة وهو (الجامع الأزهر)، وشرع في بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة (٣٥٩هـ)، وكمل بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة (٣٦١هـ) وكتب بدائر القبة التي في الرواق الأول وهي على يمنة المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة (مما أمر ببنيانه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك سنة ٣٦٠هـ)، وأول جمعة صليت فيه في شهر رمضان لسبع خلون منه سنة (٣٦١هـ).

ولما تم ذلك فارق المعز مدينة (المهدية) بالمغرب، وجاء إلى مصر فدخل القاهرة بجميع أولاده وإخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدي، وذلك لسبع خلون من رمضان سنة (٣٦٢هـ) وأمر فكتب في سائر مدن مصر خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وصلّى بالنَّاس صلاة عيد الفطر في المصلى فسبح في كل ركعة وفي كل سجدة ثلاثين تسبيحة، ثم خطب بعد الصلاة، وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء، وما زال إلى أن توفي بعد دخوله القاهرة بسنتين وسبعة أشهر، وإليه تنسب (القاهرة المعزية) أقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين.

٢ ـ العزيز بالله نزار ٣٦٥ - ٣٨٦

قام بعد أبيه واستمر خليفة إلى سنة (٣٨٦هـ) فكانت مدته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

٣ ـ الحاكم بأمر الله منصور ٣٨٦ - ٤١١

ولي بعد وفاة أخيه، وهو الذي أسس ذلك الجامع الكبير المسمى باسمه مما يلي باب الفتوح، وانتهت عمارته سنة (٤٠٣هـ) وأقيمت فيه الجمعة ولما أريد فرشه بالحصر كان تكسير ذلك (٣٦٠٠٠ ذراع)، وكان الخليفة يصلي أول جمعة من رمضان في جامع القاهرة وهو الأزهر، والجمعة الثانية بجامع الحاكم، والجمعة الثالثة بالجامع العتيق بمصر، ولعل هذا هو السبب في صلاة أمراء مصر للآن آخر جمعة من رمضان بجامع عمرو بن العاص الذي هو أقدم جامع في مصر كلها.

وكانت في الحاكم أخلاق متناقضة من جَور وعدل وجود وبخل، وكان يتشدد في الأمن بمصر، ويحتال لذلك حتى أنه ادَّعى للنَّاس علم ما غاب، فكان يقول للرجل: أنت فعلت كذا بالأمس وفعلت كذا، وذلك بالطبع بواسطة جواسيسه الكثيرين الذين انتشروا في البلد من رجال ونساء لتصل إليه أخبار الناس، ولما ازداد أمره في هذه الدعوة كتب إليه بعض النَّاس رقعة ورمى بها وهو في معظم موكبه وفيها:

بالجورِ والظلمِ قد رضينا
ولَيسَ بالكفرِ والحماقة
إنْ كُنتَ أُوتيتَ علمَ غيبٍ
بيِّن لنا كاتبَ البطاقة

وكان هذا التضييق على الناس سبباً في تدبير أخته أمر قتله، فندبت إليه

من يقتله إذا خرج لصيده، فخرج ذات يوم إلى حلوان وهناك صادفه العبيد الذين أعدوا لقتله، فقتلوه سنة (٤١١هـ).

٤ ـ الظاهر لإعزاز دين الله علي ٤١١ - ٤٢٧

بويع بعد قتل والده في يوم عيد النحر سنة (٤١١هـ).

وشرب الخمر ورخَّص فيه للنَّاس، وفي سماع الغناء، فأقبل النَّاس في عهده على اللهو، ولما رأى كبار الدولة ذلك منه انتهزوا هذه الفرصة للاستئثار بالحكم، ومنعوا الناس أن يدخلوا عليه وهو مشغول بلذاته، وفي ذلك العهد اضطربت الأحوال وغلت الأسعار حتى بيع رأس البقر بخمسين ديناراً، وعزَّ الماء لقلة الظَّهر فعمَّ البلاء من كل جهة، وتفاقم الأمر لشدة الغلاء حتى صاح الناس بالظاهر (الجوع الجوع يا أمير المؤمنين، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك، فالله الله في أمرنا) وكان ذلك سنة (٤١٥هـ).

وكانت الحال تتحسن ثمَّ ترجع فتعود حتى توفي الظاهر سنة (٤٢٧هـ).

٥ ـ المستنصر بالله معد ٤٢٧ - ٤٨٧

بويع بعد وفاة والده، وعمره سبع سنين، فأقام في الخلافة ستين سنة، وهي مدة لم يلها أحدٌ من خلفاء المسلمين ولا ملوكهم غيره، وكان في هذه المدة أنباء وقصص شنيعة بمصر، ففي سنة (٤٥٣هـ) كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة، وتقدم الأراذل بحيث كان يصل إليه في كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات، فاشتبهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال، ووقع الاختلاف بين جند الدولة المؤلَّف من العبيد والأتراك، وقاتل بعضهم بعضاً،

وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم، وخربت الأعمال وقل ارتفاعها، وتغلَّب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدة العظمى التي لم يسمع بمثلها في تاريخ مصر، فإنَّ السعر ارتفع، وتبعه وباء حتى كان يموت الواحد من أهل البيت فلا يمضي يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من في ذلك البيت، ولا يوجد من يستولي عليه، ومدت الأجناد أيديها إلى النَّهب، فخرج الأمر عن الحد، ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر وساروا إلى الشام والعراق، وذهبت أُبهة الخلافة حتى كان الخليفة يجلس على حصير ليس معه من يخدمه سوى ثلاثة من الخدم، وكانت مدة هذه المصايب سبع سنين، من سنة ٤٥٧هـ إلى سنة ٤٦٤هـ.

وبيع في هذا العهد إردبُّ القمح بثمانين ديناراً، ثم عدم ذلك حتى أكل النَّاس القطط والكلاب، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً.

وبسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلي القرافة.

ولم يزل الحال على ذلك حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالي سنة (٤٦٦هـ) فاستبد بالأمر ودبره بعض التدبير، فحسنت الحال، وتراجعت الأسعار، وكان المستنصر في مدته مُلجماً عن التصرف، ولما مات أمير الجيوش ولي الجند بعده ابنه الأفضل شاهنشاه.

توفي المستنصر سنة (٤٨٧هـ) وكان ضعف عقله وميله إلى أراذل الناس وسماع وشاياتهم سبباً لضيعة الكُفاةِ من المدبرين والعاملين وقيام المنافقين الخائنين، فضاعت هيبته وهيبتهم حتى لم يقدروا على

تدبير الأمر، فحصلت هذه الشدائد له ولأمته وحتى فُقد القوت، فكانت امرأة من الأشراف تتصدق عليه كل يوم بقعب فيه فتيت فلا يأكل سواه مرة في كل يوم.

٦ ـ المستعلي بالله أحمد ٤٨٧ – ٤٩٥

ولما توفي المستنصر أقام الأفضل بن أمير الجيوش ابنه أحمد، وكان الأفضل هو القائم بالأمر، ولم يكن للمستعلي معه شيء من التصرف.

وفي عهد المستعلي اختلت الدولة الفاطمية، وانقطعت دعوته من الشام، وظهر الإفرنج فأخذوا كثيراً من سواحلها، ولم يكن بيد الدولة المصرية قوة تدفع بها العدو[1]..

(١) توفي سنة (٤٩٥هـ)

الدرس السابع والثلاثون

٧ ـ الآمر بأحكام الله منصور ٤٩٥ – ٥٢٤

كان عمره حين ولي الخلافة خمس سنين؛ والذي ولاه هو الأفضل بن أمير الجيوش، ولم يزل متصرفاً حتى قُتل سنة (٥١٥هـ)، فاستوزر الآمر بعده القائد أبا عبد الله محمد بن فاتك البطائحي ولقَّبه بالمأمون، فقام بأمر دولته إلى أنْ قبض عليه سنة (٥١٩هـ) فتفرغ الآمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولا مزاحم، وكانت أيامه كلها لهواً وعيشة راضية لكثرة عطائه وعطاء حواشيه، بحيث لم يوجد في زمانه بمصر والقاهرة من يشكو زمانه ألبتة، إلى أَنْ نكّد على الناس بابن أبي نجاح المستوفي، وكان راهباً، فتحكَّم في النَّاس وتمكَّن من الدواوين، فابتدأ في مطالبة النَّصارى، وحقَّق في جهاتهم الأموال وحملها أولاً فأولاً، ثمَّ أخذ في مصادرة بقية المباشرين والعاملين والضمناء والعمال، وزاد إلى أَنْ عمَّ ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة، بحيث لم يخل أحد من ضرره، وكان ذلك سبباً في قبح سيرة الآمر بين الناس، ولما رأى ذلك الآمر قبض على ابن أبي نجاح، وضُرب بالنعال حتى مات ثمَّ طرح في النيل.

الآمر هو الذي بنى الجامع الأقمر.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيراً من المعاقل والحصون بسواحل الشام وعكا وغزة وطرابلس وغيرها.

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، ويكتب خطاً ضعيفاً، وكان جريئاً على سفك الدماء وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح.

قتل سنة (٥٢٤هـ).

٨ ـ الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر ٥٢٤ – ٥٤٤

أقامه كُبراء الدولة بعد قتل ابن عمه على أَنْ يكون كفيلاً لمنتظر في بطن أمه من أولاد الآمر[١]، وكان وزيره يانس صاحب الباب الذي تُسمَّى باسمه حارة (اليانسية) ونسميها نحن الآن بدرب الأنسية.

وكان من وزرائه (بهرام الأرمني).

وفي عهده اشتد الضرر بالمسلمين ولكنَّه لم يمكث كثيراً.

وكان الحافظ حازماً سيوساً كثير المدارة عارفاً جماعاً للمال، يغلب عليه الحلم.

وفي عهده حدثت فتن بين طوائف العسكر، ومات وهي قائمة سنة (٥٤٤هـ).

٩ ـ الظافر بأمر الله إسماعيل ٥٤٤ – ٥٤٩

أقيم بعد وفاة أبيه، وكان محكوماً عليه من وزيره، ولم تكن أحوال الدولة بمستقيمة لأنَّ الخليفة كان مشتغلاً بلهوه وملذاته.

وآخر الأمر قتله وزيره عباس سنة (٥٤٩هـ).

١٠ ـ الفائز بنصر الله عيسى ٥٤٩ – ٥٥٥

أقيم في الخلافة بعد مقتل والده، وكانت سنّه خمساً، وكان

---

(١) ولدت زوجة الآمر بنتاً فبويع الحافظ لدين الله بالخلافة رسمياً في: ١٥ محرم ٥٢٥هـ.

المتغلب عليه وزيره طلائع بن رُزِّيك الملقب بالملك الصالح، وهو الذي بنى المسجد خارج باب زويلة المسمى بجامع الصالح، وقد أراد أن يجعله مدفناً لرأس الحسين التي أحضرت من عسقلان في زمنه فلم يرض الخليفة وقال: لابد أن تكون مجاورة للقصر، وقد كان، فدفنت بالمشهد الذي هي به سنة (٥٥٢هـ) ولم تطل مدة الفائز في الخلافة، فإنه توفي سنة (٥٥٥هـ) وسنّه إحدى عشرة سنة.

١١ ـ العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف بن الحافظ ٥٥٥ - ٥٦٧

هو آخر خلفاء الفاطميين، بمصر ولاَّه طلائع بن رُزِّيك بعد موت الفائز وعمره إحدى عشرة سنة، فقام الصالح بتدبير الأمور حتى قتل، فقام من بعده ابنه رزيك وكان يناوئه شاور بن مجير السعدي والي ولاية قُوص، فجاء إلى مصر وقتل رزيك، واستبدَّ هو بأمر الوزارة، وكانت هذه الأيام مملوءة بالاضطراب والفتن، وكانت الفرنج متطلعة بعد أخذها سواحل الشام إلى أخذ مصر، فاستغاث الخليفة بمحمود (نور الدين) القائم بمحاربة الصليبيين بالشام، فأنجده بعسكر يقوده (أسد الدين شيركوه) عم (صلاح الدين يوسف) فجاء مصر، ولكن شاور كان يخاف على وزارته، فاستنجد بملك الإفرنج (مرى) على شيركوه، وكانت بين الفريقين خطوب وأهوال، وانتهى الأمر بقتل شاور، وتغلب أسد الدين شيركوه وتولّى وزارة العاضد حتى مات بعد شهرين من ولايته فقام من بعده بوزارة العاضد صلاح الدين يوسف، فساس الأمور، ودبر لنفسه، وصار يخطب للعاضد، ثم لمحمود نور الدين، ولما ازداد ضعف الخليفة فكَّر صلاح الدين في قطع خطبته والخطبة لبني العباس، فمرض العاضد ومات سنة (٥٦٧هـ) وبموته انتهت

الدولة الفاطمية من مصر وخلفتها الدولة الأيوبية فعلاً والعباسية اسماً.

مكثت الدولة الفاطمية بمصر من سنة (٣٤٨هـ) إلى سنة (٥٦٧هـ) فتكون مدتهم مئتي سنة وتسع، وكانت حاضرتهم القاهرة، وهم الذين أسسوها، وكان حكمها يمتد من المغرب إلى مصر إلى الشام والحجاز إلا أنها في آخر الأمر ضعفت لاستبداد وزرائها بأمرها، فكان في الحكم سلطتان سلطة الخليفة الاسمية وسلطة الوزراء الفعلية، والأول يتطلع دائماً لاسترداد حقه المسلوب، فلا يترك حيلة لذلك إلا فعلها مهما كان ضررها والآخرون يتمسكون بما نالوه وبيدهم قوة الدولة وجندها، وبين ذلك تتعطل المصالح العامة، وتكثر الفتن، وهي المؤذنة بخراب الدولة، ومما كان يستعمله الوزراء للمحافظة على ما بيدهم أنَّهم يولون الخلافة من لا يصلح لصغر سنه، فكم ولوا من سنه دون الرجولة، فإذا وصل إليها شرع يناوشهم ويناوشونه لا جرم أن جر ذلك انقضاء الدولة وذهابها بالمرة.

وقد كان في أيام هذه الدولة: الظلم والعدل، والراحة والتعب، لأن الأمة قيادها بيد رجل واحد يتصرف في أمورها، فإن كان طيب الخلق حسن التربية حسنت الأحوال، وإن كان رديئاً شرهاً ميالاً إلى ما بيد النَّاس ساءت الحال، وكل قوم فيهم الخير والشر.

ذلك كان أمر مصر في مدة هذه الدولة ومدة من سبقها من الأمراء إلا أنه مما شوهد أنها في عهد استقلالها كما هو الحال في عهد بني طولون وعهد الفاطميين تكثر فيها العمائر والأبنية ويكون الرخاء فيها أكثر.

فانظر إلى بني طولون كيف بنوا القطائع والميدان، والقصر والبساتين الجميلة، والجامع العظيم، وكانت الأمة لعهدهم يكثر فيها الراحة والرخاء.

وانظر إلى الفاطميين كيف بنوا القاهرة والأزهر وجامع الحاكم والجامع الأقمر.

وازداد في أيامهم جمال مصر وبهجتها (في أولها ووسطها)، فكانت لهم القصور العظيمة والمنتزهات الجميلة، وما ذلك إلا لما عندهم من الحرية في التصرف، فإن اتجهت أنفسهم إلى الخير أمكنهم أن يصنعوا أحسن شيء.

وكانت هذه الدولة ميَّالة إلى العلم والحكمة، ولهم دار كتب (كتبخانة) لم يجمع في مصر أكثر منها، وكانت عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعين خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة.

هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة.

وقال ابن الطوير: إنَّ في خزانة الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات.

ومما يؤيد ذلك أنَّ القاضي الفاضل[1] لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد.

وكان لهم دار اسمها دار العلم، اتَّخذها الحاكم بأمر الله وفُتحت في جمادى الآخرة سنة (٣٩٥هـ) وجلس فيها الفقهاء، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء

---

(١) عبد الرحيم بن علي البيساني المولى الأجلّ، القاضي الفاضل، لم يكن له في زمانه نظير، كان وزير صلاح الدين وكاتبه وصاحبه وجليسه وأنيسه، وكان الفاضل كثير العبادة والصدقة، وكان حسن السيرة، توفي سنة ٥٩٦هـ.

فيها، وجلس فيها القراء والفلكيون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فُرشت هذه الدار وزخرفت وعلِّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأُقيم قوام وخدامون وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك، وأباح ذلك كلَّه لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، ممن يؤثر قراءة الكتب والنَّظر فيها، وجعل فيها ما يحتاج النَّاس إليه من الحبر والأقلام والأوراق والمحابر.

ووقف الحاكم أماكن في فسطاط مصر وجعل بعضها لدار العلم.

وكان الخلفاء الفاطميون يتخذون أعياداً ومواسم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم.

فأولها موسم رأس السنة، ثم يوم عاشوراء، وكانوا يتَّخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن، وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير، وذلك تذكاراً لمقتل الحسين بن علي بن أبي طالب.

ثم المواليد الستة وهي: مولد النبي ﷺ ومولد علي بن أبي طالب، وابنيه الحسن والحسين، وأُمهما فاطمة، ومولد الخليفة القائم بالأمر.

وكان لهم في شهر رمضان عدة أنواع من البر.

وبالجملة فقد كانت مصر في العهد الأول والأوسط من الدولة الفاطمية بهجة نضرة، أهلها مسرورون متمتعون بالرفاهة لقوة دولتهم وانصرافها إلى الخير وعمله، فلما ضعف أمر الدولة من أيام المستنصر ووجد الوزراء المتغلبون ظهر الضعف في الأحوال عامة، وخصوصاً بعد الشدة العُظمى التي حصلت في مصر.

الدرس الثامن والثلاثون

الدولة الأيوبية

ـ ١ ـ

تُنسب هذه الدولة إلى (أيوب بن شادي الكردي)، وكان في أول نشأته في خدمة زنكي والد (محمود نور الدين)، ثمَّ صار في خدمة (نور الدين) بعد وفاة زنكي ولما عظمت مملكة نور الدين ـ فكان له الشام وحلب وكثير من أرض الجزيرة ـ استنجد به خليفة مصر الفاطمي لدفع الإفرنج عن مصر فأرسل له جنداً بقيادة أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين، فجاء مصر ودفع عنها غارات الإفرنج وقتل شاور الوزير، وتولّى هو وزارة العاضد، ومات بعد شهرين من وزارته، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان يخطر بفكره أَنْ يقطع خطبة الفاطميين ويخطب لبني العباس ببغداد، وقد نفذ فكرته ودعا للخليفة المستضيء، ولم يلبث العاضد أن توفي وانتهت دولة الفاطميين، فتسلَّم صلاح الدين مصر باسم سيده محمود نور الدين.

ولما توفي محمود نور الدين سنة (٥٦٩هـ) انفرد صلاح الدين بملك مصر ثمَّ أضاف لها بعد بلاد الشَّام، وكان له عسكر من الأكراد بمصر.

ولما استتب له الأمر التفت إلى إصلاح البلاد، وأمر بإسقاط المكوس التي حدثت في أواخر الدولة الفاطمية، وكتب بذلك عهداً (منشوراً) من إنشاء كاتبه القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وقرىء على المنابر في مصر.

وهو الذي بنى سور القاهرة بالحجر بعد أن كان مبنياً باللبن، وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الخصي الحبشي، وجعل عليه الأبواب المصفحة بالحديد.

وهو الذي ابتدأ ببناء قلعة الجبل، وتم بناؤها بعده، وصارت هي مقر الملك في هذه الدولة والتي بعدها.

وفي أيامه نزل الفرنج على ثغر دمياط، فسار إليهم صلاح الدين وحاربهم وانتصر عليهم، وكانوا في نحو مائتي مركب.

وله آثار أبنية جليلة.

وأعظم أثر إسلامي له قيامه بحروب الصليبيين الذين استولوا على كثير من البلاد الشامية، فاسترد منهم بيت المقدس وغيره، وكان في حروبه معهم مظفراً مع كثرة جنودهم، فضلاً عن معاملته بالحسنى لأسراهم، وكان رجلاً عادلاً لم تطغه الدنيا بزخارفها، حتى أنه لما توفي لم يوجد في خزانته فضة ولا ذهب، ولم يخلف قرية ولا بستاناً ولا ملكاً ولا ضيعة، بل كان ينفق كل ما عنده في الجهاد وأوجه البر.

توفي رحمه الله بدمشق سنة (٥٨٩هـ) وقبره بها[١].

---

(١) أمام الجامع الأموي في الجهة الشمالية.

٢ ـ العزيز بالله عثمان ٥٨٩ - ٥٩٥

بويع له بالسلطنة في مصر بعد وفاة أبيه بعهدٍ منه، وهو أصغر إخوته.

وملك أخوه الأفضل دمشق.

وملك أخوه المظفر غازي حلب.

وكل هذا بأمر أبيهم، ولكن كل واحد منهم كان يُمني نفسه بأن يوسع ملكه بما يأخذه من إخوته.

أما العزيز فإنه لم يسر في مصر بسيرة أبيه بل سار فيها أقبح سيرة، فأعاد المكوس التي أبطلها أبوه، وزاد في شناعتها، وتجاهر بالمعاصي حتى حملت أواني الخمر جهاراً في عهده، وضربت عليها الضرائب.

توفي سنة (٥٩٥هـ) ودفن عند الإمام الشافعي.

٣ ـ المنصور محمد ٥٩٥ - ٥٩٦

بويع بعد موت أبيه، وكان القائم بأمر دولته الأمير بهاء الدين قراقوش فساس الرعية أحسن سياسة فأحبته ودعت له.

وفي أيامه توفي القاضي الفاضل[1].

ولم يصف الملك للمنصور، لأنَّ عمه طمع في ملكه فجاءه وحاربه حتى خلعه وسجنه بقلعة الجبل.

---

(١) تقدمت ترجمته (ص: ٢١٤).

٤ ـ العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب هو أخو صلاح الدين ٥٩٦ – ٦١٥

بويع بالسلطنة بعد خلع المنصور في شوال سنة (٥٩٦هـ).

وفي أيامه توقف النيل عن الزيادة فحصل قحط ووباء ذهب فيه أكثر الأهالي، ووصل سعر إردب القمح إلى مائة دينار.

توفي بدمشق سنة (٦١٥هـ).

٥ ـ الكامل محمد بن العادل ٦١٥ – ٦٣٥

بويع بالسلطنة بمصر بعد وفاة والده، وهو أكبر إخوته، وكان نائباً عن أبيه في حياته.

وفي أيامه جاء الإفرنج إلى دمياط وملكوها، فسار إليهم الكامل وحاصرهم بها نحو سبعة عشرة شهراً، وفي مدة هذا الحصار أنشأ الكامل مدينة المنصورة التي هي الآن قاعدة مديرية الدقهلية، ولما طال الأمر على الفرنج أرسلوا يطلبون الأمان من الكامل على أنهم يتركون دمياط ويرحلون إلى بلادهم وكان ذلك سنة (٦١٩هـ). ولما عاد إلى مصر شرع في بناء مدرسته الكاملية التي بين القصرين وكانت تسمى دار الحديث.

وهو الذي أنشأ القبة العظيمة على ضريح الإمام الشافعي، ولما ماتت أمه دفنها بضريح الإمام.

توفي الكامل بدمشق سنة (٦٣٥هـ).

٦ ـ العادل أبو بكر بن الكامل ٦٣٥ – ٦٣٦

بويع بمصر بعد وفاة والده، ولما بلغ ذلك أخاه نجم الدين أيوب ـ وكان نائباً بحلب ـ أسرع إلى مصر في جند عظيم فحارب أخاه وانتصر عليه سنة (٦٣٦هـ) فخلعه وسجنه.

٧ ـ الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٦ – ٦٤٧

بويع بعد خلع أخيه.

ولما تمَّ له الأمر استكثر من المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة، وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون البضائع من الدكاكين، فضجَّ منهم النَّاس، ولما بلغ ذلك الملك الصَّالح بنى لهم قلعة في الروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم بها، وسماهم بالمماليك البحرية، وكان عددهم يقرب من ألف مملوك.

وهذا الصالح هو الذي أنشأ المدرسة المسماة باسمه تجاه باب الصاغة، وإليه تنسب بلدة الصالحية في الشرقية.

وفي عهده جاء الفرنسيس، واستولوا على دمياط، ووصلت طلائعهم إلى المنصورة، فخرج إليهم الملك الصالح، ولكنَّه لم يتم جهاده لأنه توفي بالمنصورة فكتم الجند خبر موته خوفاً من الإفرنج، وحملوه إلى قلعة الجبل فدفن بها، وذلك سنة (٦٤٧هـ).

٨ ـ المعظم توران شاهكان ٦٤٧ – ٦٤٨

حين مرض والده بحصن كيفا، فأرسل وراءه القواد ليحضر ويتولَّى الملك، فحضر بعد وفاة والده، ولم يظهر القواد موت الصالح إلا بعد حضور ابنه فبايعوه.

ولما تمَّ الأمر جدَّ الجند في قتال الإفرنج حتى هزموهم هزيمة

منكرة، وأسروا ملكهم (لويز التاسع)، وسجنوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان كاتب السر بالمنصورة، ووكل به طواش اسمه صبيح (والدار لا تزال للآن أثراً بالمنصورة يزورها السياح بجوار مسجد الموافي) ولم يزل هذا الملك مسجوناً حتى زمن المعز أيبك، فاشترى منه نفسه بعد أن تعهد ألا يقصد ديار المسلمين.

ولما تمَّ هذا النصر لتوران شاه تحول من المنصورة إلى (فارسكور)[1] ولم يكن ذا حزم فأوحش مماليك أبيه منه، وقد ظهر منه ما يدل على إرادته الفتك بهم فعاجلوه وقتلوه في المحرم سنة (٦٤٨هـ)، وهو آخر من تولى الملك من بني أيوب وكانت مدتهم نحو ست وثمانين سنة.

٩ ـ شجرة الدر ٦٤٨

بعد قتل (توران شاه) اتفق المماليك على تولية شجرة الدر زوج الملك الصالح وأم ولده خليل وأنْ يكون المعز أَيبَكْ التركماني مدبر المملكة.

وهي أول امرأة في الإسلام وليت ملكاً[2]، فساست الرعية في أيامها سياسة حسنة، وكان النَّاس عنها راضين، وكان أيبك لا يتصرف في أمر ما إلا بعد مشورتها، وكانت تكتب على المراسيم في العلامة بخطها (والدة خليل) وخُطب باسمها على المنابر، وكان الخطيب يقول بعد الدعاء للخليفة: (واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب).

وقد اعترض على هذه التولية خليفة بغداد.

---

(١) فارسكور: من قرى مصر قرب دمياط.

(٢) دامت مدته ثلاثة أشهر.

ولما بلغ ذلك شجرة الدر خلعت نفسها من الملك برضاها من غير كره لها، وهي صاحبة المسجد المسمى باسمها بالقرب من المشهد النَّفيسي.

عموميات على الدولة الأيوبية

الدولة الأيوبية كانت دولة حربية قضت معظم أيامها في الحروب مع الصليبيين بالشام ومصر.

وأعظمهم أثراً في ذلك مؤسس دولتهم وهو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولم تكن الحروب بين الفريقين تخمد حدتها وقتاً ما حتى أنَّ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خاتمة دولتهم توفي وهو يحارب الصليبيين بنواحي دمياط وكذلك ابنه.

والحروب متى ألحت على الدول أقعدتها عن أي عمل آخر يفيد الأمم صلاحاً في دنياها، إلا أنَّ الهمة العالية التي امتاز بها صلاح الدين يوسف جعلته يعمل الصالح لأمته مع ما هو فيه من متاعب الحرب، فبنى مدارس كثيرة وقصدته العلماء من جميع الجهات، فقابلهم مرحِّباً وهشَّ إليهم، فأفادوا الناس ودرَّسوا في المدارس التي أنشأها.

ثم إنَّه أظهر للناس شيئاً من سيرة عمر، فأقام ميزان العدل، ورفَّه عن الناس بإبطال المظالم التي كان الفاطميون ابتدعوها في أواخر أيامهم، ولكل هذا يذكره التاريخ أحسن الذكرى ويفتخر به المسلمون في كل ناد.

ومن الأسف أنَّ المنافسة بين أسرته في الملك حصلت عقب وفاته، فكان الملوك بين أمرين عظيمين:

أولهما: الوقوف أمام الصليبيين حتى لا يعيدوا عليهم الكرة فيأخذوا منهم ما تعب سلفهم في استرداده.

والثاني: إزاحة المنافسين ومحاربتهم فكان ذلك كله داعياً إلى قلة آثارهم في المدَنيَّة.

إلا أننا لا ننسى جهادهم العظيم في رد كثير من ممالك المسلمين التي كان الإفرنج قد أخذوها، ووقوفهم وقفة البطل أمام الذين كانوا يريدون الاستيلاء على بلادهم من متعصبة الإفرنج.

الدرس التاسع والثلاثون

دولة المماليك

كان للملك الصالح (نجم الدين أيوب) مماليك اشتراهم وربَّاهم فظهرت منهم في حروب المسلمين مع الفرنج بنواحي فارسكور ودمياط شجاعة عظيمة، وصادف أنْ قُتل عقب هذه الحرب تورانشاه ابن الملك الصالح، فاتَّفق المماليك الذين صاروا أصحاب الأمر والنَّهي على تولية شجرة الدر زوج أستاذهم.

ولما انتقد خليفة بغداد على هذه التولية خلعت شجرة الدر نفسها فاتفق الرأي على أَنْ يلي الأمر كبير المماليك:

١ ـ المعز أيبك ٦٤٨ - ٦٥٦

وكان بدء سلطنته يوم السبت ٢٩ ـ ربيع الآخر ـ سنة (٦٤٨هـ).

ولما تمَّ له الأمر تكلَّم بعض المماليك في أنَّه لا بدَّ لهم من واحد من ذرية الأيوبيين يكون سلطاناً عليهم، فاتفق معهم أيبك على إحضار شخص من بني أيوب اسمه يوسف، فأحضروه ولقبوه الأشرف، ولم يعزلوا أيبك بل جعلوهما في الملك شريكين، وكان رضا أيبك بذلك مؤقتاً حتى إذا صال على رؤساء هذه العصابة واستحكم أمره خلع يوسف وسجنه وانفرد بالملك.

ولم يطل أمر أيبك، فإنَّ شجرة الدر التي كانت زوجة له استوحشت منه فأمرت الخدام بقتله فقتلوه سنة (٦٥٦هـ).

٢ ـ المنصور علي ٦٥٦ - ٦٥٨

هو ابن أيبك، تولَّى بعد قتل أبيه، وعمره ١١ سنة فصار يدبر أمره الأمير سنجر الحلبي.

وكان وزير مصر هبة الله بن صاعد.

وفي أيامه كان استيلاء هولاكو التتري على بغداد، وقتل الخليفة (المستعصم) وقد بلغ ذلك مصر، وبلغهم أنَّ العدو يريد المجيء إلى حلب لأخذها من أيدي المصريين، فرأى كبار المماليك أنَّ السلطان صغير عاجز عن التدبير وأنَّهم في حاجة إلى قوي يدبر أمرهم.

فاتفقوا على خلعه بعد سنتين وثمانية أشهر[١].

٣ ـ المظفر قطز ٦٥٨

اتفق المماليك على توليته بعد خلع المنصور.

وأصله من مماليك المعز أيبك.

وكانوا إذ ذاك في حاجة لردّ هذا العدو عن بلادهم، سيَّما وقد بلغهم أنَّ مقدمات جيوشه شارفت دمشق، وكاتب (هولاكو) ملك مصر يطلب منه الطاعة والخضوع ويذكره بما فعله بجميع الممالك التي مرَّ عليها، فأَعَدَّ (قطز) لمحاربة التتار جيشاً قابل العدو على (عين جالوت) فانهزم التتار هزيمة شنيعة، وهذا أول انكسار صادفوه بعد أنْ فعلوا ببلاد المسلمين ما فعلوا، ثمَّ حصلت بينهم واقعة ثانية على بيسان، وكان النَّصر فيها للمصريين.

---

(١) كان خلعه لأقل من ذلك ولكن كانت مدة خلافته الاسمية سنتين وثمانية أشهر.

وبينما كان قطز عائداً إلى مصر وهو ظافر غانم إذ اتفق جماعة من المماليك على اغتياله قرب الصالحية ففعلوا.

وكان قتله رحمه الله سنة (٦٥٨هـ) وقاتله الذي تولى بعده:

٤ ـ الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦

ولي بعد قتل قطز.

وأصله مملوك للصالح نجم الدين.

وقد عُدَّ من مساويه قتله للمظفر قطز من غير جناية جناها بعد قيامه بالدفاع عن البلاد دفاعاً حسناً.

ولم يكن هناك حين سلطنته خليفة عباسي يوليه كما كانت العادة، فتكلم الناس في ذلك، فاتفق أنَّه حضر سنة (٦٦٠هـ) شخص من بنيَ العباس هارباً من التتر اسمه (أحمد) فتلقاه (بيبرس) وأثبت نسبه أمام جمع من علماء مصر فبايعوه بالخلافة، ثم بايع هو (بيبرس) بالسلطنة فصار بالبلد سلطان وخليفة يخطب باسمهما وينقش على النقود.

وتلقب الخليفة (الحاكم بأمر الله) وهو جد الخلفاء الذين ظلوا بمصر في مدة المماليك أجمعهم، ولم يكن له شيء من السلطنة وغاية الأمر أنْ يقوم السلطان بمعاشه، وكان الخليفة في بعض الأحيان يكتفي بما يصله من النذور التي يحضرها الناس لمقام السيدة نفيسة.

وباسم الخليفة سمي الخط المشهور بمصر بخط الخليفة لأنه كان يسكن فيه.

ومما أحدثه الظاهر بيبرس أنَّه ولَّى في مصر قضاة أربعة، من كل مذهب قاض له نواب، وكان قضاء القضاة قبل ذلك لواحد شافعي فقط

وله نواب ينوبون عنه من المذاهب الثلاثة.

وقد أبطل الظاهر كثيراً من المنكرات بمصر وشدد في إبطالها.

وبنى الجامع الكبير المسمى باسمه خارج الحسينية.

وافتتح كثيراً من بلدان سواحل الشام التي بيد الفرنج كقيسارية وأنطاكية وغيرهما.

وجدد عمارة المسجد النبوي.

وجدد بمصر والشام كثيراً من العمائر والقناطر.

وهو الذي حفر بحر أشمون طناح (بمديرية الدقهلية).

وقد وضع الناس باسمه قصصاً خرافية لا يزال إلى الآن بعض (المحدثين)[1] يقرؤها في القهوات البلدية.

توفي سنة (٦٧٦هـ) بدمشق ودفن فيها.

٥ ـ السعيد محمد ٦٧٦- ٦٧٨

هو ولد الظاهر بيبرس ولاه المماليك بعد موت أبيه، فاستوحش الأمراء منه لأنه شرع في القبض عليهم، فاجتمعوا عليه وحاربوه، فخلع نفسه من الملك بعد سنتين.

٦ ـ العادل سلامش ٦٧٨

هو ابن الملك الظاهر ولاّه المماليك بعد خلع أخيه وعمره سبع سنين ونصف، وكان يدبر أمره (قلاون الألفي) وقد بقي على ذلك نحو خمسة أشهر، ثم طمع قلاون في السلطنة فخلع العادل وملك هو.

---

(١) لو عبر بالقصاصين لكان أفضل، وهم الحكواتية.

٧ ـ المنصور قلاون ٦٧٨ - ٦٨٩

ولي بعد خلع العادل سلامش سنة (٦٧٨هـ).

وأصله مملوك للصالح نجم الدين أيوب.

وقد بقيت سلطنة مصر في أولاده وأحفاده حتى انتهت دولة المماليك الأولى.

وقلاون هذا هو الذي بنى القبة بين القصرين والمدرسة وسماها البيمارستان، وتعرف الآن بجامع قلاون، ولا يزال للآن به عيادة رمدية يقوم بها ديوان الأوقاف.

وكان قلاون ينفق عليها نفقات جليلة، وقد افتتح من يد الإفرنج الصليبيين المرقب وجبلة.

توفي قلاون سنة (٦٨٩هـ) ودفن بقبته التي بمسجده.

٨ ـ الأشرف خليل ٦٧٩ - ٦٩٣

هو ابن قلاون ولي بعد أبيه.

وهو الذي قاتل الإفرنج بعكا وأخذها منهم سنة (٦٩٠هـ) مع حصانة أسوارها.

ولما افتتحها هدم سورها وقلعتها، ومن هناك توجه إلى جبيل وبيروت، فافتتحهما ونُقل من آثار عكا شيء كثير إلى مصر.

ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الأبيض الذي على المدرسة الناصرية التي بين القصرين.

وفي سنة (٦٩٣هـ) ثار عليه أحد الأمراء فاغتاله وهو متصيد فقتله، ثم حمل بعد ذلك ودفن في مدرسته التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة.

٩ ـ الناصر محمد بن قلاون ٦٩٣ - ٦٩٤

اتفق الأمراء على ولايته بعد أخيه الأشرف وعمره تسع سنين.

وبعد سنة من ولايته رأى بعض الأمراء أنَّ السلطان صغير فلا يصلح لسياستهم، ولابد إذاً من خلعه وتولية رجل يدبرهم فخلعوه وولوا:

١٠ ـ العادل كتبغا ٦٩٤ - ٦٩٦

وأصله من سبايا التتار أخذه المنصور قلاون في وقعة له معهم.

وحصل في زمنه جوع شديد بمصر لضعف النيل فإنه لم يزد عن (١٢ ذراعاً) ثم هبط وأعقب ذلك الجوع فناءٌ عظيم.

وفي سنة (٦٩٦هـ) خرج العادل إلى الشام فثار بمصر أحد الأمراء وخلع العادل وأخذ الملك منه وهو:

١١ ـ المنصور لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨

وفي بدء ولايته عمر جامع أحمد بن طولون، وكان خراباً بغير سقف مدة مديدة.

وفي سنة (٦٩٨هـ) اتفق جملة من الأمراء على قتل المنصور لاجين فقتلوه وهو يلعب الشطرنج.

[عودة الناصر محمد] ٦٩٨ - ٧٠٨

واتفقوا على إعادة (الناصر محمد بن قلاون) وكان منفياً بالكرك، فأرسلوا إليه فحضر وتولى السلطنة ثانياً، وكان له مع ملك التتار وقعة هائلة بنواحي حلب حينما أراد إعادة الكرة لأخذ الشام، فانتصر الناصر

والمصريون فيها انتصاراً باهراً.

وقد مكث الناصر في هذه المرة عشر سنين وفي آخرها خلع نفسه واختار الإقامة بالكرك، فاشتور الأمراء فيمن يولونه، وقر أمرهم على تولية المظفر بيبرس الجاشنكير.

١٢ ـ المظفر بيبرس الجاشنكير ٧٠٧ - ٧٠٩

وهو من مماليك السلطان قلاون، ولم يكن في سيرته محموداً، فكثرت الفتن بمصر، وكان وجود الناصر بالكرك شجى[١] في حلقه، فأرسل إليه يهدده فكان ذلك باعثاً لتطلع الناصر إلى العودة ثالثاً إلى ملكه وساعده على ذلك كثير من الأمراء والأجناد ولما علم بذلك بيبرس خلع نفسه من الملك.

عودة الناصر ٧٠٩ - ٧٤١

وعاد الناصر إلى ملك مصر ثالث مرة سنة (٧٠٩هـ) وقد استمر في هذه السلطنة سلطاناً على مصر حتى سنة (٧٤١هـ) أي نحو ٣٢ سنة فيكون مجموع مدته في سلطان مصر ٤٣ سنة، وهي مدة لم تتفق لأحد من ملوك مصر في عهد هذه الدولة بل ولا في غيرها إلا ما كان من المستنصر الفاطمي.

ومدة الناصر من أحسن أيام هذه الدولة بمصر، فقد أنشأ بها عمائر جليلة.

وهو الذي أجرى الماء إلى قلعة مصر، وسيرها في مجراة تمر على عقود هائلة من البحر إلى القلعة، ولا تزال آثارها موجودة للآن ترونها

---

(١) شوكة في حلقه.

إذا كنتم في جهة فم الخليج.

وحفر خليجاً سماه باسمه يأخذ من النيل ويصب في الخليج الحاكمي الكبير عند زقاق الكُحل.

وحفر البركة الناصرية وأجرى إليها الماء من الخليج النصري، وبنى عليها قصراً عظيماً وبجانبها ميدان كان يلعب فيه الكرة على الخيل.

والمدرسة الناصرية القديمة كانت في تلك الجهة، فسميت باسمه، ولما نقلت إلى مكانها الجديد حفظ لها ذلك الاسم.

وأبطل الناصر في زمنه كثيراً من المكوس والمظالم، ولم يعهد أحد من السلاطين تولى السلطنة ثمانية من أولاده إلا هو، وهم:

١٣ ـ المنصور أبو بكر ٧٤١ ـ ٧٤٢ خلع.

١٤ ـ الأشرف كجك ٧٤٢ ـ ٧٤٢ خلع.

١٥ ـ الناصر أحمد ٧٤٢ ـ ٧٤٣ خلع.

١٦ ـ الصالح إسماعيل ٧٤٣ ـ ٧٤٦ توفي.

١٧ ـ الكامل شعبان ٧٤٦ ـ ٧٤٧ توفي.

١٨ ـ المظفر حاجي ٧٤٧ ـ ٧٤٨ خلع وقتل.

١٩ ـ الناصر حسن ٧٤٨ ـ ٧٥٢ وهي السلطنة الأولى.

٢٠ ـ الصالح صالح ٧٥٢ ـ ٧٥٥ خلع.

وبعد خلعه عاد السلطان الناصر حسن إلى الملك مرة ثانية، فأقام في الملك إلى سنة (٧٦٢هـ) حيث ثار عليه بعض الأمراء فقتلوه.

وحسن هذا هو الذي بنى تلك المدرسة العظيمة التي هي من أمتن ما أسس في عهد المماليك، وهي المسماة بجامع السلطان حسن عند القلعة.

وفي عهده كثرت العمائر بمصر، فبنى شيخو العمري[1] مدرسته ومسجده المتقابلين بجهة الصليبة، والمدرسة فخمة جداً ولها هيبة ورواء، وجعل فيها أمكنة لطلاب العلم يأوون إليها، وبنى فوقها رباعاً للمتزوجين من العلماء والطلاب، ووقف عليها أوقافاً جليلة.

وتولى من أحفاد الناصر بن قلاون أربعة وهو:

٢١ ـ المنصور محمد بن المظفر ٧٦٢ ـ ٧٦٤ خلع.

٢٢ ـ الأشرف شعبان بن حسين ٧٦٤ ـ ٧٧٨ خلع وقتل.

٢٣ ـ المنصور علي بن شعبان ٧٧٨ ـ ٧٨٣ توفي.

٢٤ ـ الصالح أمير حاج بن شعبان ٧٨٣ ـ ٧٨٤ خلع.

وأمير حاج هذا هو آخر من ولي الملك من بني قلاون وآخر دولة المماليك الأولى، وهم المماليك البحرية مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

---

(١) شيخو العمري: هو أحد أمراء مصر، وهو أول من سمي بالأمير الكبير بمصر، توفي سنة ٧٥٨هـ.

الدرس الأربعون

دولة الشراكسة

بعد خلع أمير حاج اتفق الأمراء والجند على تولية:

١ ـ الظاهر برقوق بن أنص ٧٨٤ - ٨٠١

وأصله من مماليك الأتابكي يلبغا، وهو شركسي الجنس، وما زال يترقى حتى صار ملكاً على مصر والشام وبلاد الحرمين.

وهو الذي بنى تلك المدرسة الجميلة الصنع المسماة بجامع برقوق في شارع النحَّاسين.

وقد نالته في سلطنته خطوب من ثورة مماليكه، حتى أنَّه خُلع مرة وأعيد أمير حاج فاختفى برقوق مدة ثمَّ عاد إلى سلطنته بعد أن كابد الأهوال، واستمر سلطاناً حتى توفي سنة (٨٠١هـ).

٢ ـ الناصر فرج بن برقوق ٨٠١ - ٨٠٨

تولى بعد أبيه بعهد منه وعمره نحو اثنتي عشرة سنة.

وفي عهده كانت وقائع بين المصريين وبين عسكر التتار، واستولى تيمورلنك على حلب وقتل كثيراً من أهلها، وكذلك فعل بحماه، كلُّ ذلك والناصر لاهٍ بشبوبيته، وبعد كل هذا جنَّد جنده وتوجَّه إلى الشام وقبل أنْ ينتهي أمره مع التتار عاد إلى مصر حيث بلغه شيء قام به المماليك ضده، فلما عاد دخل تيمورلنك دمشق وفعل بها الأفاعيل: قتل من أهلها كثيراً، وأخذ أموالهم، وخرب ديارهم حتى عادت بعد بهجتها كأنها صحراء، ثم رحل عنها بعد نحو ثلاثة أشهر ولم يفعل السلطان شيئاً لوقاية هؤلاء المساكين.

ولم يزل الناصر على حاله حتى خلع سنة (٨٠٨هـ).

٣ ـ المنصور عبد العزيز بن برقوق ٨٠٨ - ٨١٥

ولي بعد أخيه وعمره عشر سنين، ولكن لم يتم أمره فإن أخاه ال ناصر عاود الكرة فساعده بعض المماليك حتى أعادوه سلطاناً، فاستمر حتى أوحش الأمراء مرة ثانية، فخلعوه بعد أَنْ حاربوه سنة (٨١٥هـ) ثم قتلوه بعد ذلك.

واتفق رأيهم على أَنْ يولوا الخليفة العباسي سلطاناً وهو (المستعين بالله العباس بن محمد المتوكل)، فعرضوا عليه ذلك فقبل ونودي به سلسطاناً في (١٧ محرم سنة ٨١٥هـ) ولكن ذلك لم يرق طبعاً في عين المماليك أَنْ يتولى الملك فيهم عربي، فخطر ببال الأتابكي شيخ أن يخلعه، وساعده جنده فخلعه بعد ستة أشهر من ملكه.

٤ ـ المؤيد شيخ ٨١٥ - ٨٢٤

بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباسي سنة (٨١٥هـ) وأصله من مماليك الظاهر برقوق، وهو الذي بنى ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع المؤيد بالقرب من باب زويلة، وقد تناهى في زخرفته ورخامه وسقوفه وأبوابه فلم يبن في القاهرة مثله، ولكنَّه ظلم النَّاس في تحصيل رخامه، فصار أعوانه يكبسون البيوت والحارات بسبب الرخام.

ومن ظلمه أنه أخذ باب مدرسة السلطان حسن وجعله لمسجده، وأخذ العمودين اللذين في محراب جامع قوصون ووزع أخشاب سقوفه ودهانها على أعيان المباشرين.

ومن محاسنه أنَّه أبطل مكس الفواكه قاطبة، ونقش ذلك على رخامة وجعلها بباب الجامع لما تمَّ بناؤه.

وكان المؤيد ملكاً جليلاً كُفأ للسلطنة، عارفاً بأحوال المملكة، وافر العقل مقداماً في الحرب، وكان يقرب أرباب الفنون فكانوا

يتباهون في فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته.

وكان يعرف فنَّ الموسيقى، وله أشياء كثيرة يغني بها المغنون في عهده.

ومما عُدَّ من مساويه أنَّه كان جهوري الصوت سفيهاً في كلامه.

توفي سنة (٨٢٤هـ) ودفن في جامعه.

٥ ـ المظفر أحمد بن شيخ ٨٢٤

ولي بعد موت أبيه وله من العمر سنة واحدة وثمانية أشهر فكان مرضعاً، ولكنَّ الأمراء اتفقوا على سلطنته وبايعه الخليفة مُكرهاً، وكان يدبر أمره الأمير ططر، ولم يطل هذا الأمر نحو سبعة أشهر، فإنَّ ططر تطلَّع إلى الملك ولم يجد معارضاً فخلع المظفر وملك هو.

٦ـ الظاهر ططر ٨٢٤

ولي بعد خلع المظفر. وأصله من مماليك الظاهر برقوق، ولم يطل مُلكه فإنَّه توفي بعد ثلاثة أشهر، ودفن بجوار قبر الإمام الليث[1].

٧ ـ الصالح محمد بن ططر ٨٢٤

ولي بعد موت أبيه سنة (٨٢٤هـ) وعمره (١١) سنة، وكان يدبر أمره الأمير برسباي، وقد تطلع للملك ـ كالعادة ـ فخلع الصَّالح بعد ثلاثة أشهر.

٨ ـ الأشرف برسباي ٨٢٥ - ٨٤١

ولي بعد خلع الصالح محمد سنة (٨٢٥هـ).

---

(١) تقدمت ترجمته صفحة (١٩٤).

وأصله من مماليك الظاهر برقوق.

وكان برسباي ملكاً جليلاً مبجلاً في موكبه.

وكان منقاداً إلى الشريعة ويُحب أهل العلم ويقربهم.

وضرب نقوداً كانت معتبرة أحسن النقود المصرية.

وله مدرسة أنشأها باسمه في الصحراء ودفن بها.

وكان يعد في مصر من أحسن ملوك الشراكسة.

توفي سنة (٨٤١هـ).

٩ ـ العزيز يوسف بن برسباي ٨٤١

ولي بعد موت أبيه وعمره ١٤ سنة، وكان مدبر أمره الأتابكي جُقمُق، وله الأمر والنَّهي وللسلطان الاسم، ولم يدم هذا الحال إلا ثلاثة أشهر حيث طمع جقمق في المملكة وخلع يوسف.

١٠ ـ الظاهر جقمق ٨٤٢ – ٨٥٧

ولي بعد خلع يوسف سنة (٨٤٢هـ).

وأصله من مماليك الظاهر برقوق.

وكان ملكاً عظيماً جليلاً ديِّناً خيِّراً متواضعاً، يُحب العلماء وينقاد إلى الشريعة، ويقوم للعلماء إذا دخلوا عليه.

وكان يحب الأيتام ويكتب لهم بما يقوم بمعاشهم.

وكانت البلاد في أيامه هادئة من الفتن.

وكان فصيح اللسان بالعربية متفقهاً.

ومن مساويه أنَّه كان أُذناً[1] يسمع السعايات والوشايات، وهذا فساد عظيم.

---

(١) يقال: (رجل أذن) أي: يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع.

توفي سنة (٨٥٧هـ).

١١ ـ المنصور عثمان جقمق ٨٥٧

ولي بعد أبيه وسنّه (١٩ سنة).

وفي أول ملكه احتاج إلى مال ينفقه على جنده، ولم يكن بخزينة أبيه سوى ثلاثين ألف دينار، فشكا ذلك إلى ناظر خاصته (ويسمى عندهم ناظر الخاص) فأخرجه من الكرب بمظلمة، وهي أنَّه ضرب دنانير ينقص كل دينار عن الأشرفي قيراطين وسماها المناصرة، وأراد أَنْ ينفق منها على الجند، فهاجوا ونفروا من السلطان وترتَّب على ذلك أنَّهم خلعوه بعد ٤٣ يوماً.

١٢ ـ الأشرف إينال ٨٥٧ – ٨٦٥

ولي بعد خلع عثمان.

وأصله من مماليك الظَّاهر برقوق.

وكان ملكاً هيناً ليناً قليل الأذى، ولولا جور مماليكه وتعديهم على العامة لكان خير ملوك الشراكسة.

وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكانوا يخطون له على المراسيم حتى يمر عليها بالقلم.

ومما عد من محاسنه في سلطانه في تلك الأيام أنَّه لم يسفك دماً بغير حق.

توفي سنة (٨٦٥هـ) ودفن بتربته التي بالصحراء.

١٣ ـ المؤيد أحمد بن إينال ٨٦٥

تولَّى بعد أبيه بعهد منه، وكانت بينه وبين الأمراء وحشة فثاروا عليه وخلعوه بعد أربعة أشهر.

١٤ ـ الظاهر خشقدم ٨٦٥ - ٨٧٢

ولاَّه الأمراء بعد خلع أحمد.

وأصله رومي الجنس، جُلِبَ للمؤيد شيخ فكان مملوكه وإليه ينسب.

وقد رضي عنه المماليك واستقامت أمورهم حينما أعطاهم مرتباتهم وإقطاعاتهم تامة.

وبعد أَنْ استتب له الملك قبض على كثير من الأمراء الذين يخشى شرهم فتم له السلطان. وكان فصيح اللسان بالعربية.

وأيامه كلها هادئة ولكن مماليكه كانوا جائرين على العامة وكان سريع العزل للقضاة والمباشرين ويأخذ أموالهم.

توفي سنة (٨٧٢هـ).

١٥ ـ الظاهر بلباي ٨٧٢

ولي بعد وفاة خشقدم، وأصله شركسي الجنس، جلب للمؤيد شيخ فكان من مماليكه، وكان يدعى (بلباي المجنون).

ولم تظهر عليه قوة الملك لأنه كان خشناً قليل المعرفة، فخلعه الأمراء والمماليك في السنة التي ولي فيها.

١٦ ـ الظاهر تمربغا ٨٧٢

ولي بعد خلع بلباي.

وأصله رومي الجنس، اشتراه السلطان جقمق.

ولم يطل زمنه فإن الأمراء ثاروا به وخلعوه بعد (٥٨ يوماً).

الدرس الحادي والأربعون

١٧ ـ الأشرف قايتباي ٨٧٢ – ٩٠١

ولي بعد خلع تمربغا.

وأصله شركسي اشتراه الأشرف برسباي.

وهو من أطول المماليك مدَّة فإنَّه بقي سلطاناً (٢٩سنة) من سنة (٨٧٢) إلى سنة (٩٠١هـ).

وفي عهده ازدادت نفقات الجند لكثرة المتطلعين إلى الإغارة على البلاد الشامية، فقد خرج عليه من يُدعى بشاه سوار وكسر جنده مرات، ولم تتغلب عليه الجنود المصرية إلا بعد العناء والمصاعب.

وكانت الدولة العثمانية قد شرعت توسع في أيامه سلطانها فكان يهاب شرها.

والجنود التي يجندها تستدعي نفقات طائلة، فكان يوزع ذلك على الناس فيتكلفون دفعها على الرغم منهم.

ومما يؤثر من العبر من جراء ذلك أنَّ السلطان أمر مرَّة بعقد مجلس شوراه وفيه الخليفة العباسي والقضاة الأربعة ومشايخ من العلماء وسائر الأمراء، ولما تكامل جمعهم قام كاتب سر السلطان وعرض على المجلس ما مفاده أنَّ الجند في حاجة إلى النفقة، وأنَّ كثيراً من الناس معهم زيادة في أرزاقهم ووظائفهم، وأنَّ الأوقاف قد كثرت على المساجد والجوامع، وأنَّ قصد السلطان أنْ يبقى لها ما يقوم بالشعائر فقط والباقي يُحجز لنفقة الجُند.

فمال الخليفة والقاضي إلى إجابته، لأنَّهم عرفوا أن ذلك رأيُ السلطان، وبينما هم على ذلك إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائي الحنفي[1] فأعلم بما كان فأنكره غاية الإنكار، وقال على الملأ منهم: لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجهٍ شرعي، وإذا نفد جميع ما في بيت المال ينظر ما في أيدي الأمراء والجند فيأخذ منه ما يحتاج إليه، وإذا لم يوف بذلك ينظر في المهم إنْ كان ضرورياً للمنع عن المسلمين حلَّ ذلك بشرائط متعددة، هذا هو دين الله إنْ سمعت آجرك الله على ذلك، وإنْ لم تسمع فافعل ما شئت فإنَّا نخشى من الله أنْ يسألنا يوم القيامة، ويقول لنا: لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحتم له الحق، ولكن السلطان إن أراد أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا.

ثم قام فحار السلطان عند سماعه هذا الجواب، وانفضَّ مجلسه على غير طائل.

وأمثال هذا الشيخ الذين يقولون ما يعتقدونه من الحق قليلون في كل زمان. ومن الغريب أنْ حصلت هذه الواقعة مرة أخرى فلم يغير الشيخ رأيه، ولكن ذلك لم يمنع السلطان الظالم عما يريد.

وفي عهده سنة (٨٨٠هـ) ابتدأ الأتابكي أزبك بإنشاء الأزبكية نسبة إليه، وكانت بقعة أرض خراباً ذات كيمان في أرض سبخة، فعمرها أزبك، وبنى بها القاعات الجميلة والقصور المشيدة بعد أَنْ أصلح أرضها وحفر بها بركة، وأجرى إليها الماء من الخليج النَّاصري، وبنى عليها رصيفاً يحيط بها، وكان يشتغل فيها بنفسه، ثمَّ شرع الناس يبنون

---

(١) هو يحيى بن محمد بن إبراهيم أبو زكريا، أمين الدين الأقصرائي فاضل من الحنفية تركي الأصل، من بلدة أقصرا، توفي سنة ٨٨٠هـ.

على هذه البركة القصور الفاخرة والأماكن الجليلة، وقد رغب النَّاس بعد ذلك في سُكناها حتى صارتْ تُعدّ مدينة على انفرادها.

وكان قايتباي يُعد من أحسن ملوك المماليك، ولكن عيبه العظيم أنَّه كان محباً لجمع المال، ناظراً لما في أيدي النَّاس، ولولا ذلك لعد من خيار الملوك.

وقيل: إن ما صرفه على الجنود مدة ولايته (٧٠٦٥٠٠٠) ديناراً غير الذي صرفه على الجنود عند رجوعهم.

وكان له اشتغال بالعلم ويعرف أقدار الناس وينزلهم منازلهم.

وله منشآت من الأبنية تنيله الذكر الحسن، منها عمارة (المسجد النبوي)، وأنشأ قبة عظيمة على القبر الشريف، وأنشأ هناك مدرسة مطلَّة على الحرم، كما أنشأ مدرسة بمكة وبيت المقدس ودمشق وغزة ودمياط وثغر الإسكندرية، وأنشأ بالإسكندرية برجاً عظيماً مكان المنار القديم، وله الجامع العظيم بالصحراء المسمى بـ (جامع قايتباي) وجوامع أخرى بالقاهرة، وجدَّد عمارة القبة بالإمام الشافعي، وجدد عمارة قناطر أبي المنجا والقناطر التي بشبرامنت بالجيزة، وأنشأ هناك رصيفاً، وجدد مقام السيد البدوي.

توفي سنة (٩٠١هـ) ودفن بتربته في الصحراء.

١٨ ـ الناصر محمد بن قايتباي ٩٠١ - ٩٠٤

ولي بعد أبيه وعمره ١٤ سنة، وكان يدبره أتابكيه المدعو (قانصوه)، وقد خطر بباله أنْ يخلع النَّاصر ويكون بدله فعرض ذلك على القضاة وبعض الأمراء فأجابوه إلى طلبته، فتعصب للنَّاصر بعض المماليك وحاربوا (قانصوه) حتى هزموه، ولم يتم خلع الناصر ولكنه

لم يسر في أمره سيرة الملوك بل كان طائشاً يُشبه فكره فكر الأطفال ويلعب كما يلعبون.

وكان آخر أمره أَنْ سخط عليه بعض المماليك فقتلوه سنة (٩٠٤هـ).

وكانت كل أيامه شروراً وفتناً، تعطلت فيها مصالح البلاد ولم يكن في السُّبل أمن لصغر عقل السلطان وطيشه.

١٩ ـ الظاهر قانصوه ٩٠٤ – ٩٠٥

ولي بعد قتل الناصر.

وأصله شركسي الجنس، كان مملوكاً لـ (قايتباي)، اتفق الأمراء على توليته، وقد فرح الناس بها لخلاصهم من سلفه البغيض.

ولم يطل ملك الظاهر فإنَّه خُلع سنة (٩٠٥هـ).

٢٠ ـ الأشرف جنبلاط ٩٠٥ – ٩٠٦

ولِّيَ بعد خلع قانصوه.

وأصله مملوك شركسي للأشرف قايتباي، ولم تكن العسكر راضية بملكه، إلا أنَّه قام بنصرته أمير منهم اسمه (طومان باي) فمهد له السبيل إلى ذلك، ومع ذلك فهو الذي بغى عليه في آخر أمره وخلعه، ثم قاتله وقبض عليه.

وكانت مدة جنبلاط كلها مصادرات للناس في أموالهم، وكان غليظ القلب عسوفاً ظالماً، وانتهى أمره سنة (٩٠٦هـ).

٢١ ـ العادل طومان باي ٩٠٦

بعد القبض على جنبلاط بويع بمصر العادل (طومان باي)، وفرح الناس بولايته لعسف سلفه، ولكن مدته لم تطل إلا نحو ثلاثة أشهر

حيث قام عليه المماليك في آخرها فاختفى.

٢٢ ـ الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٦ - ٩٢٢

ولي بعد طومان باي سنة (٩٠٦هـ)، وهو باني القبة التي تنسب إليه وتجتمع فيها الجمعية المباركة التي تشتغل لخير الفقراء من المسلمين وهي الجمعية الخيرية الإسلامية.

وفي عهده عظُم أمر العثمانيين في عهد السلطان سليم، فوجه همَّته إلى الاستيلاء على الشام ومصر والحرمين فخرج إليه الغوري في جند عظيم، وتلاقى الجيشان بـ (مرج دابق) من أرض الشام، فانكسر أهل مصر انكساراً عظيماً وقتل الغوري وسط المعركة وذلك في ٢٥ رجب سنة (٩٢٢هـ) وبعد ذلك تحول السلطان سليم فملك حلب من غير ممانعة.

ولما عاد الأمراء المنهزمون من (مرج دابق) إلى مصر اتفق رأيهم على تولية (طومان باي).

الدرس الثاني والأربعون

٢٣ ـ الأشرف طومان باي ٩٢٢

وأصله من مماليك الأشرف قايتباي.

وكان السلطان سليم قد استولى على بلاد الشام كلها، وقدم بجنده يريد الإغارة على مصر، فجنَّد (طومان باي) الجنود وخرج بهم خارج القاهرة ينتظرون قدوم الجيش العثماني، حتى إذا جاؤوا بعددهم العظيم قابلهم المصريون في أوائل الريدانية، فكانت بين الفريقين وقعة هائلة انتهت بهزيمة طومان باي ومن معه فدخل العثمانيون القاهرة، وخُطب للسلطان سليم على منابرها.

وتعقبوا المماليك الشراكسة حتى كادوا يفنونهم عن آخرهم.

أمَّا السلطان (طومان باي) فلم ينقطع أمله وجمع بعض الجمع يريد إعادة الكرة فلم يوفَّق، وكان ظهوره سبباً لإفحاش العثمانيين في السلب والنَّهب وإيذاء أهل مصر، حتى حلَّ بهم من المصايب والرزايا مالم يكونوا يتصورونه، وصار العثمانيون يهجمون على الناس في بيوتهم ويخرجونهم منها ويحلّون محلهم.

وفي آخر الأمر قُبض على (طومان باي) بعد الجهد والعناء وشُنق على باب زويلة وكانت مدة مُلكه ثلاثة أشهر ونصف.

وبموته انتهت دولة المماليك الثانية. وكان مجموع مدة المماليك في الدولتين نحو (٢٧٥ سنة).

عموميات على هذه الدولة

إن كان هناك آثار ظاهرة مملوكية في مصر والشام فإنما تنسب إلى هذه الدولة.

تأمل المساجد الكبرى، ومنها ما كان معداً لدراسة العلم، وتعرف من بناه تجده من رجال دولة المماليك إما ملكاً وإما أميراً، والمنسوب إلى غيرهم قليل، ولعلهم أرادوا أن يكفر الله عنهم بذلك كثيراً من السيئات التي كانوا يرتكبونها في أحكامهم.

كان الملك أو الأمير في هذه الدولة حراً في الرعية، فإذا غضب لا يقوم لغضبه شيء، فإن شاء قتل وإن شاء صادر فأخذ الأموال وفضح العيال، وليس هناك من يقدر أن يقول له: لم فعلت ولم قتلت؟

وفي كثير من الأحيان كان يسلط الله بعضهم على بعض فيقبض الملك على أمرائه ويزجهم في السجون ثم يخنقهم ويتمتع بأموالهم، أو تقوم الأمراء على الملك فيقضون على حياته ويولون غيره.

ففي دولة المماليك الأولى (٢١) ملكاً من (٢٤) خلعوا أو قتلوا وثلاثة توفوا.

وفي دولتهم الثانية (١٥) من (٢٣) خلعوا وقتلوا وثمانية توفوا.

والمصائب في هذه الحوادث كانت الرعية تنال النكد الأكبر منها، حيث تتعطل مصالحهم فلا يأمنون على ما بأيديهم في وقت الفتن.

إذا احتاج الملك منهم إلى شيء من النقود لسد حاجة من حاجاته فسرعان ما يصدر أمره بأنواع من المظالم، فتجبى الأموال ويلاقي الناس من الإهانات ما لا مثيل له، حتى تربَّت الرَّعية على الخوف والرعب ورأوا أن حيلتهم الوحيدة للخلاص من الشر أحياناً هي الكذب، وقلما كان ينجيهم لأن أنواع العقوبات التي تسلط حينئذ على

بدن المنكر تخرج منه ما عنده فيعدم نفسه ويعدم ماله.

وكانت الأراضي الزراعية قبل دولتهم قبالات يتقبلها الناس من أيدي من يتولى الخراج بقدر معين يحسب له منه ما يلزم الأرض من رم الجسور وإصلاح الري ويورد الباقي لديوان الخراج.

أما في عهدهم فصارت إقطاعات، والمزارع المقيم بالبلدة يسمونه فلاحاً فيصير عبداً قنّاً لمن أقطع تلك الناحية من الجنود والأمراء إلا أنه لا يرجو قط أنه يعتق أو يباع بل هو قن ما بقي ومن ولد له كذلك.

وكانت المظالم التي تجبى بها الأموال تكثر وتقل حسبما كان عليه الملوك من العدل والظلم، وخير الملوك من هذه الجهة السلطان النَّاصر محمد بن قلاون، فإنه أبطل أنواعاً كثيرة من هذه المظالم، وكان يتحصل منها للديوان وللناهبين شيء عظيم.

أما حالة العلم والعلماء لعهدهم فكانت متوسطة وقد نبغ في مصر أيامهم كثير من علماء الدين كـ: جلال الدين السيوطي[1]، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري[2] وغيرهما.

إلا أن الكتابة العربية كانت منحطة جداً لأن الدولة تركية فلم يكن السلطان يحس بشيء من جيدها ورديئها، وذلك مما يساعد على عدم النبوغ فيها بل على عدم الاهتمام بها بالمرة.

وبالجملة فسلطنة المماليك على مصر كان شرها أكثر من خيرها، ويكفي الأمة عاراً وحطة أن يشترى المملوك اليوم بالدراهم ثم يصير بعد حين ملكاً مهيمناً عليها.

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب توفي سنة ٩١١هـ.

(٢) هو شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي أبو يحيى قاض مفسر، من حفاظ الحديث، ولد في سنيكة توفي سنة ٩٢٦هـ.

الدرس الثالث والأربعون

مصر تحت حكم الدولة العثمانية

بعد أن تأسست الدولة العثمانية على يد مؤسسها السلطان (عثمان الأول)[1] ومدَّت ظل سلطانها في عهد خلفائه على جزء عظيم من

---

(١) ملحق بأسماء السلاطين العثمانيين ومدة حكم كل واحد منهم على الترتيب:

١ـ السلطان عثمان الأول: ٦٩٩ - ٧٢٦هـ / ١٢٩٩ - ١٣٢٧م

٢ـ السلطان أورخان بن عثمان: ٧٢٦ - ٧٦١هـ / ١٣٢٧ - ١٣٦٠م

٣ـ السلطان مراد الأول: ٧٦١ - ٧٩١هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩م

٤ـ السلطان بايزيد الأول: ٧٩١ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م

٥ـ السلطان محمد الأول: ٨٠٥ - ٨٢٤هـ / ١٤٠٢ - ١٤٢١م

٦ـ السلطان مراد الثاني: ٨٢٤ - ٨٥٥هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م

٧ـ السلطان محمد الفاتح: ٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م

٨ـ السلطان بابزيد الثاني: ٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥٢١م

٩ـ السلطان سليم الأول: ٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م

١٠ـ السلطان سليمان القانوني: ٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م

١١ـ السلطان سليم الثاني: ٩٧٢ - ٩٨٢هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤م

١٢ـ السلطان مراد الثالث: ٩٧٢ - ١٠٠٣هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥م

١٣ـ السلطان محمد خان الثالث: ١٠٠٣ - ١٠١٢هـ / ١٥٩٥- ١٦٠٣م

١٤ـ السلطان أحمد الأول: ١٠١٢ - ١٠٢٦هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧م

١٥ـ السلطان مصطفى الأول: ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م

١٦ـ السلطان عثمان الثاني: ١٠٢٦ - ١٠٣١هـ / ١٦١٧ - ١٦٢١م

١٧ـ السلطان مراد الرابع: ١٠٣٢ - ١٠٤٩هـ / ١٦٢٢ - ١٦٤٠م

١٨ـ السلطان إبراهيم بن أحمد: ١٠٤٩ - ١٠٥٨هـ / ١٦٣٩ - ١٦٤٨م

١٩ـ السلطان محمد الرابع: ١٠٥٨ - ١٠٩٩هـ / ١٦٣٩ - ١٦٤٨م

٢٠ـ السلطان سليمان خان الثاني: ١٠٩٩ - ١١٠٢هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩٠م

٢١ـ السلطان أحمد الثاني: ١١٠٢ - ١١٠٦هـ / ١٦٩٠ - ١٦٩٤م

٢٢ـ السلطان مصطفى الثاني: ١١٠٦ - ١١١٥هـ / ١٦٩٤ - ١٧٠٣م =

أوربا وآسيا تطلعت إلى الاستيلاء على قلب العالم الإسلامي المكون من مصر والشام والحرمين وبغداد.

وقد فكر السلطان (سليم الأول) تاسع سلاطين بني عثمان أن يغزو السلطنة المصرية، فيجمع إلى ما بيده أرضاً عظيمة مادة ومعنى، وقد كانت حال المماليك في عهده مساعداً له على نيل أمنيته، فأخذ البلاد الشامية وجاء إلى مصر فقهر السلطان (طومان) وشنقه على باب زويلة، وتسلَّم مملكة مصر، وجعل مصر إيالة تابعة له كما جعل كذلك الشام والحجاز.

وقد مكث السلطان سليم بمصر نحو ثمانية أشهر رتَّب فيها أمرها ومهد قواعدها، ثم رحل إلى الأستانة بغنائم كثيرة وعدد عظيم من أرباب الحرف والصنائع التي كانت مصر معروفة بها لذلك العهد.

واستصحب معه آخر الخلفاء العباسيين بمصر وهو (المتوكل على الله العباسي) بعد أن استنزله عن الخلافة، فخلع نفسه منها وتنازل عن حقوقها وفوَّض أمرها إلى سلاطين آل عثمان[1].

= ٢٣ـ السلطان أحمد الثالث: ١١١٥ - ١١٤٣هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠م
٢٤ـ السلطان محمود الأول: ١١٤٣ - ١١٦٨هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٨م
٢٥ـ السلطان عثمان الثالث: ١١٦٨ - ١١٧١هـ / ١٧٥٨ - ١٧٦١م
٢٦ـ السلطان مصطفى الثالث: ١١٧١ - ١١٨٧هـ / ١٧٥٧ - ١٧٧٣م
٢٧ـ السلطان عبد الحميد الأول: ١١٨٧ - ١٢٠٣هـ / ١٧٧٣ - ١٧٧٨م
٢٨ـ السلطان سليم الثالث: ١٢٠٢ - ١٢٢٢هـ / ١٧٨٨ - ١٨٠٧م
٢٩ـ السلطان محمود الثاني: ١٢٣٣ - ١٢٥٥هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩م
٣٠ـ السلطان عبد المجيد الأول: ١٢٥٥ - ١٢٧٧هـ / ١٨٣٩ - ١٨٦١م
٣١ـ السلطان عبد العزيز: ١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ / ١٨٦١ - ١٨٧٦م
٣٢ـ السلطان مراد الخامس: ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م
٣٣ـ السلطان عبد الحميد الثاني: ١٢٩٣ - ١٣٢٦هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٩م

(١) يقول الدكتور علي محمد الصّلابي في كتابه: (الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط). =

وقد جعل لمصر نائباً عنه في إدارة أمورها.

واستمرت الحال على ذلك من سنة (٩٢٣هـ) وهي سنة استيلاء العثمانيين على مصر إلى سنة (١٢١٣هـ) وهي سنة استيلاء الفرنسيين، مئتان وتسعون سنة كانت مصر أثناءها في أردأ حال مرَّت عليها، فإنَّ السلطان سليم بهدمه لسلطان المماليك الذين كان لهم خير وشر أزال ما كان يجري على أيديهم من الخير، وأبقى على النَّاس ما كانوا يجنونه من الشر فقد حل محل جند المماليك جند آخر لا هَمَّ له إلا الفساد والشر وعصيان الأوامر[1]..

= إن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر، وقد قيل: إن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم إلى ابنه سليمان لم ترد فيها إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليماً الأول أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ عام (١٥١٤م ـ ٩٢٠هـ) أي: قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به، كما أن فتوح سليم أكسبته قوة، ونفوذاً معنوياً ومادّياً، وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه، وأصبح السلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون إلى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليون الموانىء الإسلامية في آسيا وأفريقيا.

ملخص البحث: أن السلطان سليماً لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده، وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية.

انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص (٦١، ٦٢).

(١) ما ذكره المؤلف عن حال مصر خلال حكم الدولة العثمانية لا يعم جميع عصورها، وإنما كان ذلك في عصور ضعفها وتقهقرها، وأما حالها في عهد سلاطينها العظماء فقد كانت على أحسن حال، شهد بذلك المحققون المنصفون من المؤرخين. =

نعم لم يكن لهم همٌّ إلاَّ سلب الأموال ونهب ما بيد الناس لا يبالون بشيء من ذلك وعليهم أن يرسلوا للسلطان نصف ما يحصلونه من الخراج بذلك كانت مصر مسرحاً للفتن والاضطراب، والأهالي بين ذلك في أتعس حال وأضنى عيش، وطالما انتهز الأعراب فرصة الفتن بين الجنود ورؤسائهم فأتموا على الناس أمر مصائبهم وتحكَّموا في أنفسهم وأموالهم ولا رادع لهم.

وقد زاد الأمر شدة لما أرسلت الدولة سنة (١٠٢٧هـ) أربعة آلاف عسكري مبعدين عن مقر الحكومة لتمردهم، وكلَّفت والي مصر أن يرسلهم إلى اليمن حين حضورهم إلى مصر، فلما حلُّوا بأرضها وطلب إليهم السفر عصوا وأقفلوا باب الفتوح وباب النصر، وعملوا متاريس بالطرق والشوارع، واستولوا على كثير من المنازل، ووصلوا بعضها

=وقد وصف عبد الرحمن الجبرتي في كتابه: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) حال مصر في عهد السلاطين العثمانيين، فقال:

(. . وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام، ولما خَلُص له (أي: السلطان سليم) أمر مصر عفا عمَّن بقي من الجراكسة وأبنائهم، ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية، بل قرر مرتبات الأوقاف، والخيرات، والعلوفات، وغلال الحرمين، والأنبار، ورتب للأيتام، والمشايخ، والمتقاعدين، ومصارف القلاع والمرابطين، وأبطل المظالم والمكوس والمغارم، ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد، وأتم المقاصد، ونظم الممالك، وأنار الحوالك، ورفع منار الدين، وأخمد نيران الكافرين. . لم تزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم. . وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين، وأشد من ذبَّ عن الدين، وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوّابهم هذا مع عدم إغفالهم الأمر، وحفظ النواحي والثغور، وإقامة الشعائر الإسلامية، والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين)

إلى بعض، فوجَّه إليهم الوالي العساكر فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً واستمرت الفتن بين العساكر إلى سنة (١٠٣٥هـ) بما يتخلل ذلك من الغلاء الفاحش وفقدان الأمن تماماً.

وفي سنة (١٠٣٧هـ) في زمن الوزير محمد باشا عيَّن العساكر للسفر إلى بلاد الحبشة صحبة الأمير قانصوه، فعسكروا بالعباسية وجعلوا يخطفون الأولاد والبنات ويفتكون بالمارين ويسلبون وينهبون حتى انقطعت الطرق وضاق ذرع الناس وحلَّ بهم الكرب من كل مكان ولم يجدوا مغيثاً.

ولم تكن المصائب قاصرة على ما يحصل من العسكر والعرب بل كثير من الأمراء كان لا فكرة له إلا فيما يجلب به الضرر للنَّاس وجمع أموالهم كما فعل أحمد باشا الذي كان يلقب برامي النحاس، فإنه جلب نحاساً كثيراً وأراد عمله فلوساً، فأنشأ بحوش بردق (أقبردي) الوجاقات ووضع المسابك وجمع الصنَّاع، فلم يحصل له شيء مما كان يؤمل، فرماه على التجار وعلى سائر أرباب الحرف والطوائف فلحق بالناس من ذلك ما لا مزيد عليه من الضنك والشدة.

وكان أكثر الحكام يقرر الرشوة على الناس ثم يستعملها من بعده حتى تصير كأنها حقوق ثابتة.

وفي سنة (١٠٧١هـ) حصلت (واقعة الصناجق)، وهي وقعة هائلة انقسم فيها الأمراء أحزاباً، واشتعلت نيران الحرب في شوارع القاهرة وضواحيها وامتد ذلك إلى الأقاليم القبلية، وجهز فيها الوالي عدة تجاريد حتى انتهت بقتل أغلب الأمراء الفقارية المنسوبين إلى رئيسهم (ذي الفقار) وذهبت صولتهم.

وجاء بعد ذلك إلى مصر قوم حضروا من الشام أغلبهم أروام

ودروز فانخرطوا في سلك العسكرية، ووصل بعضهم إلى المناصب العالية، وانضموا إلى محمد بك حاكم جرجا، وصاروا أنصاره وأخذوا في الظلم والإيقاع بالناس وأكثروا من النهب والسَّلب، وكانوا يقتلون النَّاس على أقل سبب، فرفع الناس شكواهم إلى الوالي فزجرهم فلم يزدجروا بل زادوا في طغيانهم وفتكوا بالناس، فاضطر الوالي لمحاربتهم، وكانوا قد تحصنوا بجامع المؤيد فحاصرهم فيه وقاتلهم قتالاً شديداً مات فيه خلق كثير، وخربت فيه عمائر كثيرة في السكرية والداودية وقصبة رضوان والدرب الأحمر وتحت الربع وما جاور ذلك، وآخر الأمر تغلب عليهم الوالي فأخذهم وقتلهم.

وفي سنة (١١٧٩هـ) استقل (علي بك الكبير) بأمور مصر، وخلع الباشا المعيَّن من قبل الدولة، وقويت شوكته جداً ولم يزل كذلك حتى ثار عليه مملوكه (محمد بك أبو الذهب) صاحب المسجد المسامت للأزهر المعمور، فتحاربا حرباً كانت النصرة فيها لمحمد بك، فاستقلَّ بالأمر إلا أنه لم يطل عهده فقام من بعده (مراد بك) و(إبراهيم بك) وتصرفا في البلد وأخذا في التعدي على الأمراء وغيرهم، فقام الأمراء ضدهما فأعدَّا مماليكهما ولكنَّهما خُذلا ففرا إلى الأقاليم القبلية.

واستقل بالأمر إسماعيل بك، ولكن أمر مراد بك وإبراهيم لم ينته، فتربصا بالأمر حتى استعدَّا، ولم تزل الحروب بين الفريقين متوالية حتى انتهى أمر إسماعيل بك وعاد مراد وإبراهيم ولكنهما لم يتفقا.

وفي سنة (١١٩٩هـ) عمَّت البلوى بمصر من الطاعون، فكانت هذه الأيام لا مثيل لها في الشدائد لما حصل فيها من الغلاء والفناء والفتن وقصور النيل وتواتر المصادرات والمظالم وتعدي الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجلب الأموال من القرى والبلدان

وإحداث أنواع المظالم حتى أهلكوا الحرث والنسل وقل الزرع وضاق الذرع واشتد الكرب وتشتت الفلاحون من بلادهم، فخربت أغلب بلاد الأرياف، فلما رأوا عدم الفائدة من الفلاح حولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم في بيوتهم، فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم وحواشيهم مع ما هم فيه من المصادرات الخارجة عن الحد، وتتبعوا من يشم فيه رائحة الغنى فأخذوه وحبسوه وكلَّفوه فوق طاقته أضعافاً، و والوا طلب السلف أيضاً من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة.

وطمع إبراهيم في المواريث فكانوا إذا مات الميت يحيطون بمخلفاته سواء كان له وارث أم لا.

حتى صار بيت المال من جملة المناصب التي يتولاها شرار الناس بجملة من المال يدفعها كل شهر، ولا يُعارض بعد ذلك فيما يفعل من الجزئيات، وأما الكليات فيختص بها الأمير، فيحلّ بالناس مالا يوصف من العناء والبلاء حتى خرب الإقليم بأسره وانقطعت الطرق وفُقد الأمن ومنعت السُّبل إلا بالخفارة وركوب العرب، وانتشر الفلاحون في المدينة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر حتى لا يجد الزبال شيئاً يكنسه من ذلك، واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الخيل والحمير والبغال ومات الكثير جوعاً، ومع ذلك كانت الأمراء تنهب في المدينة ورجالهم ينهبون في بلاد الأرياف وما من مجير.

كل ذلك جرى في هذه البلاد أيام أولئك المماليك الذين لا نظام ولا رادع لهم، حتى تأذن الله سبحانه بتغيير شيء من الحال على يد الدولة الفرنسية التي يعتبر دخولها مصر بدء تزعزع لسلطة هؤلاء المماليك الذين لا رادع لهم من دين أو عقل وكان ذلك سنة (١٢١٣هـ).

الدرس الرابع والأربعون

مصر تحت حكم الفرنسيين

في محرم سنة (١٢١٣هـ) دخلت العساكر الفرنسية مدينة الإسكندرية تحت قيادة نابليون بونابرت.

ولما علم بذلك مراد بك جمع لهم جمعاً، فقابلوه عند الرحمانية بمديرية البحيرة، وهزموه إلى أنبابه فتبعوه إليها، وكانت بين الفريقين واقعة لم تدم أكثر من ثلاثة أرباع ساعة وانتهت بخذلان مراد بك.

فدخلت العساكر الفرنسية القاهرة، وسكنوا بيوت أمراء المماليك، فسكن بونابرت بيت محمد بك الألفي بالأزبكية، واتخذ كل أمير منهم ما استحسنه من بيوت أمراء المماليك مسكناً له.

وكانت معاملتهم في أول الأمر للمصريين فيها لين ورفق إلا أنَّ الأمر تغير بعد ذلك فقسا الفرنسيسُ في المعاملة، وفرضوا على الناس أموالاً يدفعونها وقالوا: إنَّها سلف ترد، فحصل بذلك للفقراء أشد المضايقة، واستعمل الفرنسيسُ في البحث عن أملاك المماليك وودائعهم كثيراً من الظلم والعسف، وصارت العساكر تدخل البيوت وتنهب ما فيها من غير مبالاة، فحاق بالناس الكرب والخوف وصاروا في حيرة إذا أقاموا في القاهرة رأوا مظالم الفرنسيس وإذا خرجوا عنها كانوا عرضة لقبائح العرب وعسكر مراد بك وإبراهيم بك.

ثمَّ أَلفوا مجلساً مركباً من ستة من كبار المسلمين ومثلهم من تجار النَّصارى لتحقيق حجج الأملاك، وقرروا مبالغ تؤخذ من المواريث

والمبايعات والدعاوى، فلحق بالناس من هذه الغرامات مالحقهم وكثر عويلهم وشكواهم ولا معين ولا نصير.

ولما تمكنت الوحشة بين الأهالي وبين الفرنسيس أخذ هؤلاء في الاحتياط لأنفسهم، فهدموا أبنية كثيرة من حول القلعة، وزادوا على بدنات باب العزب بالرميلة، وغيروا معالمها ومحوا ما كان بها من آثار الحكماء والعلماء ومعالم السلاطين وما كان في الأبواب من الأسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية، وهدموا من داخل القلعة قصر يوسف صلاح الدين، وطلب النقود من البلاد لم يزل متوالياً وتنويع الفرض مستمراً، فلم يلحق بأهالي القطر أشد ولا أعظم مما لحقهم في هذه المدة لأن العرب كانت تهجم على البلاد وتستحوذ على ما وجدت من أموال الأهالي، ويعقبهم الغز[1] يسلبون وينهبون، ويليهم الإفرنج يقتلون ويفجرون، فعجزت الناس عن تحمل مثل هذه الأحوال خصوصاً أهل القاهرة، فاحتشدوا بشارع بين القصرين، وعملوا متاريس في بعض الحارات، وحصلت بينهم وبين الفرنسيين مناوشات، فكانت المدافع تضرب من القلعة على هذه الجهة وعلى الجامع الأزهر، فتخرب بهذا السبب جملة من البيوت، وتشتت كثير من الناس ومات كثير منهم، وشدد الفرنسيون على الأهالي زيادة على ماكان وضربوا عليهم فرضاً مستجدة، وأخذوا يجمعونها بأي نوع من الطرق، وأخلوا جهة الأزبكية من أهلها وأسكنوا بها رجالهم ومن انتمى إليهم من نصارى الشَّام والقُبُط.

وكان مجموع المدة التي أقامها الفرنسيون بمصر ثلاث سنين وأحد عشر يوماً من (٩ صفر سنة ١٢١٣هـ إلى ٢١ صفر سنة ١٢١٦هـ)

---

(١) الغُزُّ: قبيلة من الترك، الواحد غُزِّي.

تخللها الكثير من المظالم استعملها الفرنسيون المتمدنون بسبب وسطاء السوء بينهم وبين المصريين، ولم تر البلاد في عهدهم يوماً من الراحة من الغرامات التي توالى فرضها على الأهالي وفقدان الأمن فقداناً تاماً.

وقد انتهى أمر خروجهم على يد الوزير يوسف باشا الذي أرسلته الدولة لاستخلاص مصر بمساعدة العساكر الانجليزية التي رافقت العثمانيين في هذه الحملة، وكان يوم خروجهم من مصر يوماً جليلاً عند المصريين الذين قابلوا يوسف باشا بالسرور والأفراح، وكانوا يؤملون الخير العميم بهذا التغيير.

ومن أكبر ما يذكره المصريون للفرنسيين بالسوء إهانتهم للجامع الأزهر بعد أن كان هو وما يجاوره من الدروب والحارات مأمناً للناس على أنفسهم وودائعهم.

المدة: بين سنة ١٢١٦هـ وسنة ١٢٢٠هـ

في هذه المدة لم تهدأ الحال بمصر بل ازداد التعب وعمَّ الاضطراب جميع الخلق، وتخرَّب الكثير من منازل مصر وضواحيها، وقاسى النَّاس ـ خصوصاً التجار والمستورين ـ من الغرامات والكلف ما لا يمكن وصفه، خصوصاً في عهد أول الولاة بهذه المدة وهو محمد باشا المعروف بأبي مرق.

دخل مصر بموكب حافل، وفرح الناس بقدومه ظانين أن ينالوا الراحة والأمن، فخاب ظنهم لعدم قيامه برعاية المصالح، فإن النصارى والأروام الذين كانوا مع الفرنسيين وحصل منهم الأذى للمسلمين اندرجوا مع الأرنؤود[1] والعسكر ومن بالبلد من الأتراك،

---

(١) وهم: الأرناؤوط.

وجعلوا يعيثون ويعربدون بأنحاء القاهرة، وينهبون الأهالي ويطردونهم من منازلهم ويسكنونها، واستعملوا في السلب أنواع الحيل، فربما جلس العسكري على دكان بدعوى الاستراحة أو شراء شيء ثم يقوم ويعود بعد قليل قائلاً: إنه نسي كيسه أو فقد دراهماً، ويجعل ذلك سبباً لإهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده، وعمَّ الفساد، وشاركوا الباعة فيما يبيعونه، وساهموا التجار فيما يربحون، وضاق خناق الخلق، واتسع ميدان الكرب، خصوصاً في جهات الأرياف، وانتهت شدة المصاعب حتى قال قاضي العسكر (لا سامحه الله) بأن الأملاك كافة صارت للدولة لأن انتصارها على الفرنسيين يعدُّ فتحاً جديداً.

ولكن العلماء عارضوه، وضجَّ أصحاب الأملاك وأكثروا الشكوى حتى لم ينفذ ما قاله.

ولكن الباشا أكثر مصادرة من شمَّ فيه رائحة الثروة، وأكثر من الفرض على التجار وغيرهم.

ولم تزل الحال على ذلك وأشد منه مما لا يمكن وصفه حتى تأذن الله بانقضاء تلك الكوارث وذهاب إمرة المماليك من أرض مصر، ودخول البلاد في عصر جديد يشم فيه الفلاحون رائحة الحرية التي غابت عنهم منذ أزمان، كل ذلك كان على يد ذلك البطل العظيم الحاج محمد علي باشا مؤسس الدولة العلوية بمصر حفظها الله ورعاها وجعل خير البلاد على أيديها.

وكانت توليته في شهر صفر سنة (١٢٢٠هـ).

الدرس الخامس والأربعون

مصر في عهد العائلة المحمدية العلوية

١ ـ محمد علي ١٢٢٠ - ١٢٦٥

ولي محمد علي باشا مصر وسلسلة الفتن محكمة حلقاتها، وعقد الحوادث صعب حلها، والاضطراب عام في جميع الأنحاء، والعرب تعربد في النواحي، والمناسر[١] تقطع الطرق، والعساكر يجلبون على الأهالي كل داهية، والأمراء المصريون يعيثون في البلاد ويخربونها، وإذا أرسل لقتالهم عساكر زادوا عنهم في الفساد أضعافاً مع ما بين فرقهم من العداوة، فالأرنؤود تخالف الانكشارية[٢]، والدلاة[٣] تعادي كل فرقة، وكلهم معادٍ للأهالي عاص للوالي.

هذا هو حال مصر لأول ولاية ذلك البطل.

أخذ يستميل قلوب المشايخ أصحاب الكلمة كالسيد عمر مكرم[٤]

---

(١) المناسر: الذين يقومون بأعمال السلب والنهب وينقضون على الناس كالنسر في غفلة وسرعة.

(٢) الانكشارية: اسم الجيش العثماني الذي أسسه أورخان الأول، وهي كلمة محرفة عن كلمة (يني كشيري) التركية وتعني النظام الجديد.

(٣) الدلاة: صنف من أ صناف العساكر الانكشارية كان يكلف بأعمال المراسلات وحرس الحدود وكأدلاء، وعندما استغنى عنهم الجيش العثماني تحولوا إلى عناصر شغب.

(٤) هو عمر مكرم بن حسين السيوطي زعيم شعبي مصري من أسرة شريفة النسب ولد بأسيوط توفي سنة ١٢٣٧هـ.

والشيخ الشرقاوي[1] والشيخ الدواخلي حتى صاروا معه، فصار يستعين بهم في حل المشاكل.

ولم يكن ما يعاكسه في إصلاح الحال بمصر سوى رؤساء المماليك الذين طالما أفسدوا في الأرض، فكان همُّه موجهاً إلى الاستراحة منهم، وصادف أن قامت بالحجاز فتنة الوهابيين[2]، واستولوا على الحرمين فطلبت الدولة من (محمد علي) أنْ يرسل جيشاً مصرياً لاسترداد هذه البلاد المقدسة، فاستعدَّ الأمير لذلك واتخذ دار صناعة (ترسانة) ببولاق لعمل المراكب، فعمل منها عدة وأرسلت على الجمال إلى السويس، فتركبت هناك، ثم سار إليها بنفسه سنة (١٢٢٥هـ) ورتب أمره ثم عاد وقلّد ابنه (طوسون) قيادة الجند الذي أعده للسفر، وأظهر أنه يريد الاحتفال بإلباس ابنه طوسون الخلعة التي سيرتها إليه الدولة، وأعلن ذلك لكافة الأمراء الذين في البلد، وأن يكونوا في القلعة في الساعة الرابعة من يوم الجمعة (٥ صفر سنة ١٢٢٦هـ) فحضروا ولم يتأخر منهم أحد بعد أن أحكم الأمر في قتلهم، ولما انتظم عقد الموكب سار المنتظمون فيه حتى إذا انحصر الأمراء بين باب العزب والباب الأعلى في المضيق صدرت إشارة إلى الرجال الذين أُعدوا على الجانبين فأطلقوا بنادقهم فأصاب الرصاص الأمراء من اليمين ومن الشمال ومن خلفهم ورأوا الباب موصداً أمامهم وخطَّ الرجعة مقطوعاً عليهم فلم ينج منه أحد، واستمر القتل من ضحوة النهار إلى العشاء، ثم تتبع العسكر من كان منهم بالأرياف فأجهزوا عليهم ولم ينج إلا من فرَّ بنفسه إلى السودان أو استتر حتى

---

(١) هو عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الأزهري فقيه من علماء مصر ولد في قرية (الطويلة) توفي سنة ١٢٢٧هـ.

(٢) الوهابيون نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب النَّجدي الذي قام في الجزيرة العربية بدعوته السلفية المشهورة وقد توفي سنة ١٢٠٦هـ.

مات، ونهبت دورهم وامتلكت الأرنؤود أموالهم.

وبعد ذلك طاف (محمد علي) بالبلد وأمن أهله وبذلك عدَّ نفسه أميراً حقيقياً على مصر لا يعوقه عن إصلاحها عائق، فشرع في تخليص القطر من أوحاله.

وقد جعل أهم شيء ينظر إليه في الأول هو إرضاء الدولة العلية حتى لا يرى منها في المستقبل ما يعارض مقصده، فأرسل الجند المعدّ للحجاز وعليه ولده طوسون، فذهب وأخمد فتنة الوهابيين واسترد منهم مكة والمدينة وتسلَّم مفاتيح الحرمين.

وبعد أن أتم ذلك سافر محمد علي بنفسه إلى الحجاز في شوال سنة (١٢٢٨هـ)، ورتب أمور الحجاز أحسن ترتيب وقبض على (الشريف غالب)[١] وولّى مكانه ابن أخيه (يحيى بن سرور)[٢]، وقد مكث بالحجاز إلى جمادى الثانية سنة ١٢٣٠ إلى أن تمَّ أمره فرجع، وكان ذلك سبباً في الرضاء التام عنه من جهة الدولة.

ثم اهتمَّ بعد ذلك بوضع النظام الذي يمكن مصر أنْ تسير عليه كما تسير الدول ذوات الشأن.

وبنى الحصون بالإسكندرية ورشيد ودمياط.

واهتم بتأمين الطرق ومساعدة التجار من الإفرنج وغيرهم، حتى اطمأنوا بعد الخوف، وسكنوا ثغر الإسكندرية، وجلبوا إلى مصر أنواع التجارات.

---

(١) هو الشريف غالب بن مساعد بن سعيد الحسني من أمراء مكة توفي سنة (١٢٣١هـ).

(٢) هو يحيى بن سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد شريف حسني من أمراء مكة توفي سنة (١٢٥٢هـ).

ثم اهتم بعد ذلك بأكبر الأشياء لديه، وهو أن يجعل عسكر مصر نظامياً كهيئة العساكر الإفرنجية، فصادفته في البدء صعوبات، ثم تغلَّب عليها بحكمته، واستعان برجلين أوروبيين أحدهما اسمه (مري) والثاني اسمه (سيف) وهو الذي أسلم بعد وترقَّى وعرف بسليمان باشا الفرنساوي، وكان هذا الترتيب والتعليم بعيداً عن القاهرة، وبعد سنتين دخلت العساكر منظمة إلى القاهرة بهيئة أدهشت النَّاس، وهذه أول مزية جناها فلاحو مصر إذ صار جند القطر المحافظ عليه منهم، بعد أن كانوا كالسلع تتحكم فيهم الأجناد.

ثمَّ وجَّه همه لإنشاء الأساطيل البحرية فصنع منها عدة، واستعان بجماعة من الأوروبيين جعلهم من جملة خدمتها، وأنشأ مدرسة بحرية وأدخل فيها جملة من الشبان المصريين، وجلب إليها مهرة المعلمين.

ثم أنشأ مدرسة الطب بجهة أبي زعبل وعيَّن لها الماهر (كلوت بك)، الذي لا يزال اسمه معروفاً لعامة المصريين بالشارع الذي سُمي باسمه في القاهرة.

وبالجملة فهو أول من وضع البذرة العلمية في رؤوس المصريين، واستعمل في ذلك الطرق الشديدة، لأن المصريين في ذلك الوقت لم يكونوا يفقهون صوالحهم فكانوا يؤخذون للتعليم جبراً، ونحن نرى كيف أينعت هذه الثمرة.

ومع اهتمامه بهذا الترقي الأدبي اهتم جداً بالأمور المادية، فبذل جهده في إصلاح الرَّي، ووضع أساس تلك القناطر العجيبة برأس الدلتا، وهي التي تعرف بالقناطر الخيرية، فكانت ولا تزال مصدر الخير لأهل الوجه البحري، فصاروا بها يتمكنون من إرواء أراضيهم

بسهولة خصوصاً بعد ما دخلها من التحسينات بفتح هذه الرياحات التي تأخذ الماء منها.

وهو أول من أدخل زراعة القطن بمصر بإرشاد أحد الفرنسيين المسمى (حوميل)، وبعد قليل بيع محصوله للإفرنج نحو مائتي ألف قنطار، وهذا القطن هو الذي عليه الآن مدار الثروة المصرية.

وكذلك جلب نبات النيلة والأفيون وقصب السكر، وصنع له معامل وجدد ورشاً لغزل القطن وفتح الشوارع وغرس الأشجار حول القاهرة.

وعلى الجملة فهو قد وضع أساساً حسناً لإخراج هذا البلد من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وانتشالهم من وهدة الفقر والخراب إلى ذروة الغنى والعمران.

وهو الذي فتح البلاد السودانية وألحقها بملك البلاد المصرية.

ومما لم نكن نحب حصوله تلك الحرب الهائلة التي حصلت بين (محمد علي) وبين (الدولة العلية).

وسببها تغير كان بين (محمد علي) وبين والي الشام (عبد الله باشا) أدى إلى إرسال الأول جنوده المصرية لأخذ الشام منه، فافتتحها الجند بقيادة الأمير (إبراهيم بن محمد علي)، ولما رأت الدولة ذلك أرادت صدَّه بعساكر أرسلتها إليه فقهرها مرتين، إحداهما بقرب حمص والأخرى بقرب بعلبك.

ولما بلغ ذلك مسامع السلطان (محمود) مال إلى مسالمة (محمد علي)، فاشترط هذا أن يكون كل ما افتتحه تحت إمرته فلم يرض السلطان بهذا الشرط، وسيَّر جنداً عظيماً لمقاتلة أهل مصر، فالتقى

الجندان بنواحي قونية، وانتصر المصريون انتصاراً عظيماً، وأسر (محمد رشيد باشا) قائد الجنود التركية، ولما علم السلطان بذلك استعان بدول أوربا وقد ختمت المداولات بمعاهدة كوتاهية التي كتبت في (١٤ مارس ١٨٣٣م) ومضمونها بقاء ولايتي مصر والشام لمحمد علي وعدن والحرمين لابنه إبراهيم.

ولكن الأمر لم يصف له ببلاد لشام، فإن الدروز كانوا ضد إبراهيم والمارونية كانوا معه، فاستعان بهؤلاء على أولئك حتى تمَّ له إخماد تلك الثورات.

أما الدولة فإنها لم تزل تستعد للإيقاع بالجنود المصرية المعسكرة بالشام فرتبت جنداً تحت قيادة (حافظ باشا) وأرسلته إلى الشام فالتحم مع الجند المصري بنواحي نُصيبين وانجلت الموقعة عن نصرة المصريين.

وفي هذا الوقت توفي (السلطان محمود) وخلفه (السلطان عبد المجيد) فرأى (محمد علي) أنَّ أفضل شيء هو حل المسألة بطريقة الود، وجرت المخابرات بين الفريقين حتى تمَّ الاتفاق على أن روسيا وبروسيا وانجلترا وفرنسا يمعنون النظر في حلّها، ولم يلبث (محمد علي) أن جاءه الفرمان بولاية مصر يرثها من بعده أبناؤه وأن له ولاية عكا مدة حياته، فأغضب ذلك (محمد علي) ولم يرضه وطلب أن تكون له الشام كلُّها، فأبت ذلك الدول المتداخلة، وتألبوا على جنود (محمد علي) بالشام لترجع إلى مصر، فاضطر (إبراهيم) إلى الرجوع بعد أن عانى شدائد عظيمة.

وحينئذ أمضى السلطان العقد المؤرخ (١٢ يناير سنة ١٨٤١م) ومن ضمنه أن يكون (محمد علي) والياً على مصر مدة حياته ومن بعده

لأكبر أولاده وحفدته.

وأن يورد للخزينة كل سنة ثمانين ألف كيس، وأن لا يزيد عدد العساكر المصرية عن (١٨٠٠٠) بشرط أن تكون ملابسهم كملابس عسكر السلطان.

وتمَّ الأمر على ذلك وبهذا استراح خاطر (محمد علي باشا) بعد تلك الحروب الطويلة.

ومن آثار (محمد علي) ذلك الجامع العظيم بقلعة الجبل وهو الذي دفن فيه.

ولم يزل (محمد علي) والياً على مصر حتى أصابه مرض اضطره للتخلي عن إدارة البلاد لابنه وولي عهده الأمير (إبراهيم باشا).

الدرس السادس والأربعون

٢ ـ إبراهيم باشا ١٢٦٥

كان في أيام ولاية والده سر عسكر الجنود المصرية، وبعد اعتزال والده جاءه فرمان الباب العالي بتوليته بلاد مصر، ولكن لم يطل عهده فإنه توفي بعد أحد عشر شهراً سنة (١٢٦٥هـ).

٣ ـ عباس باشا الأول ١٢٦٥ - ١٢٧٠

هو حفيد محمد علي ابن ولده طوسون.

ولي بعد وفاة عمه إبراهيم لأنه كان أكبر أبناء محمد علي.

وفي عهده توفي جده محمد علي في أواسط رمضان سنة (١٢٦٦هـ) ودفن بالجامع بقلعة الجبل.

وكان عباس مهتماً بحال الأمن في البلاد، حتى أنه كان يعاقب على التهمة، وكان يسير بالليل مستخفياً في أزقة مصر يتعهد أحوال أهلها، وكان يحب الأولياء خصوصاً أهل البيت ويعمل لهم الليالي الخيرية في مساجدهم.

إلى أن توفي شهيداً بقصره الذي أنشاه ببنها سنة (١٢٧٠هـ).

٤ ـ محمد سعيد باشا ١٢٧٠ - ١٢٧٩

وهو ابن محمد علي ولي بعد وفاة ابن أخيه عباس.

وقد ولي قبل ذلك رياسة البحرية بعد تعلمه فنها.

وكان محباً للجهادية، مولعاً بجمع العساكر المصرية، مغدقاً عليهم نعمه لا يقر له قرار إلا معهم وفي وسطهم ورقَّى رتب الكثير منهم.

وكانت تعرض عليه القضايا والمهمات وهو بينهم لا يفارقونه أين حلَّ أو ارتحل، وكان كثير التنقل بهم من مصر إلى الإسكندرية ثم إلى مريوط وقصر النيل.

ومن الأعمال الكبيرة التي حدثت في عهده فتح قناة السويس التي توصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، وتفصل بين آسيا وإفريقيا، وكان ينتظر منها نفع عظيم لمصر، ولكن تلك المنافع استأثر بها أهل أوروبا وأعظمهم الفرنسيون والانجليز.

ومن أعظم مآثره لائحة الأطيان السعيدية، وهي التي أمنت الفلاح على ما بيده من الأرض، فأقبل على إصلاحها وزراعتها.

ومنها لائحة المعاشات السعيدية التي استفاد منها المستخدم أعظم فائدة.

توفي في ٢٧ رجب سنة (١٢٧٩هـ) بالإسكندرية.

٥ ـ إسماعيل باشا ١٢٧٩ - ١٢٩٦

هو ابن إبراهيم بن محمد علي، وهو ثاني أنجاله.

ولد سنة (١٢٤٥هـ).

وولي الخديوية المصرية بعد وفاة عمه سعيد باشا في (٢٨ رجب سنة ١٢٧٩هـ) وعمره أربع وثلاثون سنة.

وهو الذي وسع نطاق التجارة وأكثر من فروع السكك الحديدية والتلغرافات.

وفي أيامه كثر عدد المدارس بمصر.

وأوجد دار الكتب العربية ودار الآثار المصرية.

وبنى مدينة الإسماعيلية، ثم التفت إلى مدينة مصر فنظمها بتوسيع شوارعها وتأسيس الأبنية العظيمة، كملهى الأوبرة بمصر، وزيزينيا بالإسكندرية.

وشيَّد القصور الفخيمة.

وفي عهده فتح رسمياً قناة السويس، وصرفت الحكومة على الاحتفال به قدراً عظيماً، وكانت كل هذه الأعمال مع ما كان عليه إسماعيل من السرف سبباً لمد يده نحو أوروبا مقترضاً ما يسد به حاجاته، فأقرضوه ما شاء بالربا الفاحش، ولم تنل البلاد من هذه الديون فوائد توازي ما أثقل به كاهلها.

وفي آخر الأمر اضطربت الأمور المالية بمصر وخشي الدائنون على ديونهم، فاضطر إسماعيل إلى الاستقالة في رجب (١٢٩٦هـ) بعد سبع عشرة سنة من بدء ولايته.

وفي أيامه تعدلت الوراثة الخديوية، فبعد أن كانت لأكبر الأسرة العلوية صارت في صلب إسماعيل لأكبر أولاده ثمَّ لأكبر أولاد من بعده ممن يتولى الخديوية.

٦ ـ محمد توفيق باشا ١٢٩٦ - ١٣٠٩

هو أكبر أنجال إسماعيل باشا.

ولد في يوم الخميس (١٠ رجب سنة ١٢٦٩ هـ). وولي مصر بعد استقالة والده في (١٧ رجب سنة ١٢٩٦هـ) وعمره ٢٧ سنة.

وكانت إمرته رحمه الله فاتحة عصر الإصلاح في حالة الفلاح، فإنَّه ألغى كثيراً من الضرائب التي كانت متعددة الأنواع، حتى كان الفلاح لا يعرف ما عليه من كثرة ما يطلب منه، ثم أمر بتشكيل لجنة التصفية، وهي التي أمنت الدائنين على ديونهم وحفظت للفلاح الحق فيما دفعه من المقابلة، وقسَّط الأموال على الأطيان في أوقات معينة، وأبطل ما كان يستعمل في تحصيلها من الشدة والقسوة وجعل المال ديناً على الأرض تباع فيه إذا تأخر صاحبها عن دفعه في الميعاد، فتنفس الفلاح نسيم الحياة وأمن على نفسه وماله.

ثمَّ وجه فكرته لأمر التعليم، ففتحت المدارس على اختلاف درجاتها، ووسع دائرة المدارس العالية، ففتحت في أيامه مدرسة دار العلوم، وأنشئت المدرسة التوفيقية، والمدرسة الخديوية، وغير ذلك.

ولما كان من أهم ما يحسن الحال ويؤمن للأهالي العدل بين الناس فيما يكون بينهم من القضايا وجه همه لتأسيس المحاكم النظامية، وبها أمن الناس على حقوقهم.

واهتم بأمر الري لأنه الدعامة لثروة هذا القطر، فجُددت الترع وأُنشئت القناطر، ورفعت العونة والسخرة عن الفلاحين، وصار تطهير الترع وإنشاؤها من أعمال الحكومة تجريه بنفسها.

وقد أمر بإنشاء مجلس نواب ليشترك معه الأهالي فيما يرقِّي درجتهم ويحسن حالهم.

ولم يزل الأمر جارياً على هذا السنن من التقدم والفلاح حتى جاءت الثورة العرابية فأخرت ما كان ينتظر من هذا التقدم، ولم تزل البلاد مضطربة حتى انتهى أمرها بالاحتلال الإنجليزي، وقد كانت هذه

الثورة سبباً في ازدياد الدَّين على البلاد.

وقد أخذت الحكومة بعد ذلك في إصلاح الحال والعودة إلى ترقية الأمة، فسارت في ذلك سيراً محموداً، ولكنَّهم رأوا بعد انتهاء الثورة إلغاء مجلس النواب والاستعاضة عنه بمجلس شورى القوانين ومجالس المديريات.

ولم يزل الخديوي توفيق رحمه الله على عرش مصر حتى توفي بمدينة حلوان في سنة (١٣٠٩هـ) فنقل إلى مصر ودفن بجهة العفيفي.

الدرس السابع والأربعون

٧ ـ عباس حلمي الثاني ١٣٠٩ - ١٣٣٢

في (ثامن يناير، سنة ١٨٩٢م) (٨ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩هـ) رقى مولانا عباس حلمي باشا الثاني عرش الإمارة المصرية بعد وفاة أبيه محمد توفيق باشا رحمه الله.

وعصره لمصر عصر راق جداً، إذا قورن بما سبقه من عصور آبائه تغمدهم الله برحمته، فأما إذا قورن بما قبل ذلك فهو عصر ذهبي نسأل الله أن يزيدنا دائماً من حسناته ويجعل خطونا فيه للأمام.

في هذا العصر تمَّت للفلاح حريته وأمنه على نفسه وماله، فلا مجال لحاكم أنْ يعبث بشيء من ذلك، هو حرٌّ أنْ يزرع في أرضه ما شاء من أنواع المزروعات التي ينال منها قوته وربحه (إلا الدخان) لا يطالب بشيء إلا الضريبة المعينة المنظمة، وقد أزيحت عنه المظالم الكثيرة التي كان ينوء بحملها، وهو حر في ماله يتصرف فيه كيف يهديه عقله، وهو حرٌّ في نفسه ولا تسلب حريته إلا بحق من الحقوق العمومية حسبما ترى في ذلك المحاكم النظامية العادلة.

ولا يسوء الناس إلا أهل الشر من أنفسهم، فهم الذين يعكرون هذا الصفاء بسوء تربيتهم، ولابدَّ من صلاح هذا الحال متى عمت التربية بهمَّة القائمين بها.

والصانع حرٌّ في اختيار العمل الذي يقيم معيشته، فإن كان صادق العزيمة عالي النفس أفاد أمته وأفاد نفسه، وإن كان خاملاً كسولاً لم يكن له همٌّ إلا ما يسد به جوعه فرضي بالدُّون والخسيس من الأعمال.

ومثل الصانع التاجر والعامل.

في هذا العصر عُنيت الحكومة بإصلاح التعليم وتعميمه بين طبقات الأمة، فاهتمت بأمر الكتاتيب التي يتلقى فيها الفلاح المصري أول تعاليمه، وهي أساس الإصلاح للمصري فمتى صلحت صلح ورقي.

وكذلك اعتنت بالمدارس الابتدائية والتجهيزية والعالية حتى كثر المتعلمون، وساعد الحكومة على ذلك جماعات من محبي الخير لقومهم فأسسوا جمعيات منظمة لنشر التعليم بين طبقات الأمة وفي مقدمتها: الجمعية الخيرية الإسلامية التي يرأسها صاحب الدولة الأمير الجليل (حسين كامل باشا) عم الأمير المعظم.

وجمعية العروة الوثقى بالإسكندرية.

وجمعية المساعي المشكورة بشبين الكوم.

وغيرها من الجمعيات وكلها تتعاون على نشر التعليم.

وقد اعتنى الأمير المعظم بالأزهر الشريف، وهو أكبر معهد علمي ديني في مصر.

وتعاونت الأمة على إنشاء جامعة علمية نسأل لها حياة طيبة.

وعلى الجملة فهذا العصر يبشرنا بخير مستقبل فنسأل الله أن يطيل عمر مولانا الأمير المعظم ويسدده في قوله وفعله حتى يكون أعظم عون لأهل مصر فيما يرجونه من السعادة[1]..

---

(١) عُزل عباس حلمي الثاني من ملكه في شوال سنة (١٣٣٢هـ) وتوفي معزولاً في سنة (١٣٦٣هـ). ملك بعده مصر السلطان حسين كامل عمُّه وبقي إلى (مستهل صفر ١٣٣٥هـ) ثم من بعده أحمد فؤاد بن إسماعيل المشهور بالملك فؤاد إلى سنة (١٣٥٥هـ) ثم ابنه الملك فاروق الذي أطاحت به الثورة في سنة (١٩٥٦م)

الدرس الخامس والأربعون

مصر

في عهد العائلة المحمدية العلوية

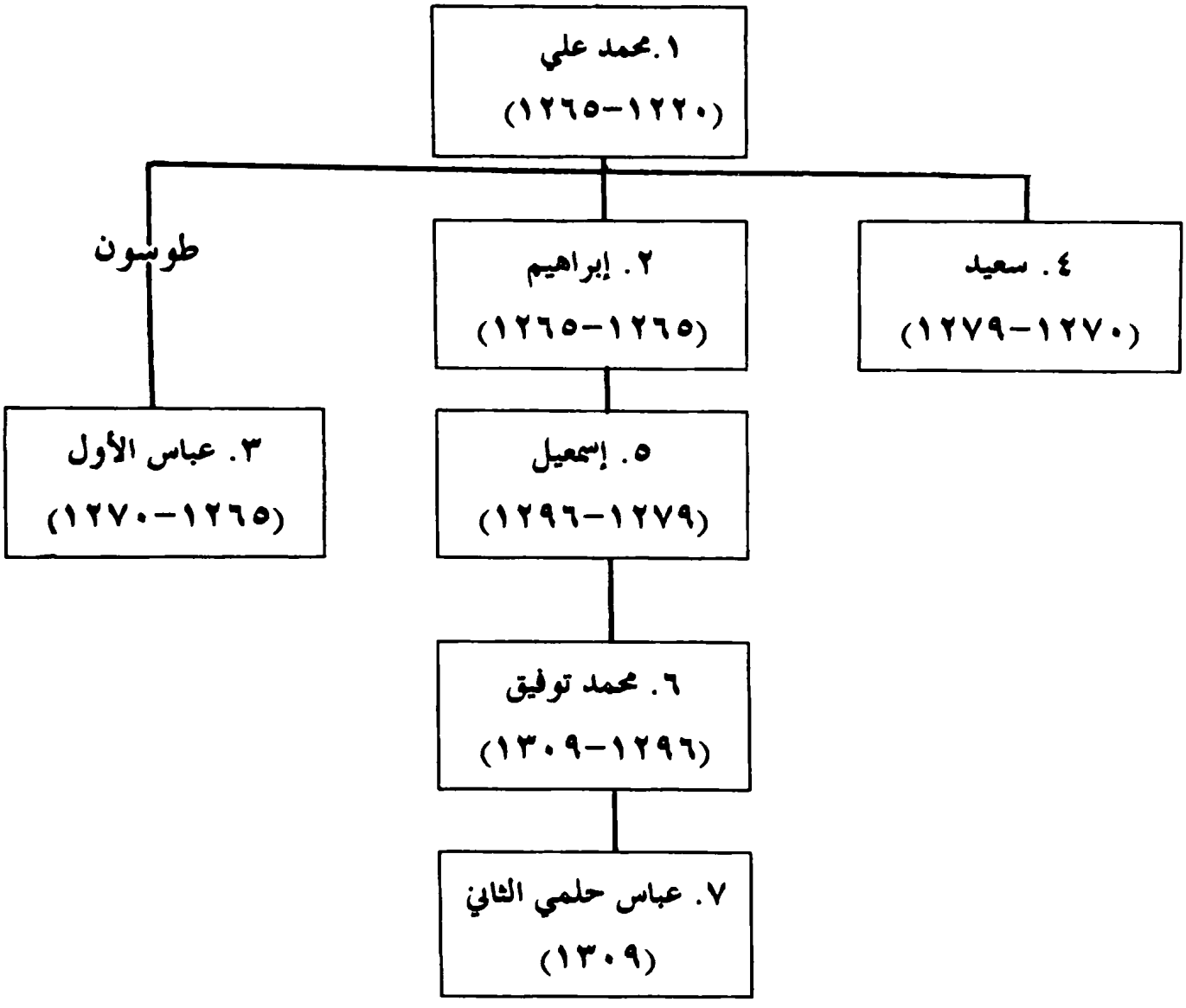

الشكل رقم (٤) سلسلة العائلة المحمدية العلوية

فهرس الموضوعات

الدرس الأول	جزيرة العرب	١٦
	أصل العرب	١٨
الدرس الثاني	العرب الباقية	١٩
	معيشة العرب	٢١
الدرس الثالث	مدنية العرب قبل الإسلام	٢٢
الدرس الرابع	دين العرب	٢٦
	أخلاق العرب	٢٨
الدرس الخامس	لغة العرب وآدابهم وعلومهم	٣٠
الدرس السادس	حالة العرب الاجتماعية قبيل الإسلام	٣٥
الدرس السابع	سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام	٣٨
	البعثة الشريفة	٣٩
الدرس الثامن	الهجرة إلى المدينة	٤٢
	أعمال مكة	٤٤
الدرس التاسع	بناء المسجد	٤٦
	مشروعية القتال	٤٦
	بدء القتال	٤٧
	غزوة بدر	٤٧
	غزوة قينقاع	٤٨
	غزوة أحد	٤٩
الدرس العاشر	غزو بني النضير	٥١
	غزوة الخندق	٥١

	غزوة بني قريظة	٥٢
	عمرة الحديبية	٥٢
	غزوة خيبر	٥٣
الدرس الحادي عشر	فتح مكة	٥٥
	غزوة تبوك	٥٦
	حجة الوداع	٥٦
الدرس الثاني عشر	أخلاق الرسول ﷺ	٥٨
الدرس الثالث عشر	معجزاته عليه الصلاة والسلام	٦٣
الدرس الرابع عشر	خلافة أبي بكر رضي الله عنه	٦٦
الدرس الخامس عشر	خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٧٢
الدرس السادس عشر	خلافة عثمان رضي الله عنه	٧٦
	خلافة علي رضي الله عنه	٧٧
	خلافة الحسن بن علي	٨٠
الدرس السابع عشر	الدولة الأموية	٨٢
	معاوية الأول رضي الله عنه	٨٤
	يزيد الأول	٨٥
	معاوية الثاني	٨٧
الدرس الثامن عشر	مروان بن الحكم	٨٨
	عبد الملك	٨٨
	الوليد الأول	٨٩
	سليمان	٩٠
	عمر بن عبد العزيز	٩١
	يزيد الثاني	٩٢

الدرس التاسع عشر	هشام	٩٣
	الوليد الثاني	٩٤
	يزيد ا لثالث	٩٤
	مروان الثاني	٩٥
الدرس العشرون	الأندلس	٩٧
الدرس الحادي والعشرون	الأمويون والأندلس	١٠١
	عبد الرحمن الأول	١٠٣
	هشام	١٠٣
	الحكم	١٠٤
	عبد الرحمن الثاني	١٠٥
	محمد بن عبد الرحمن	١٠٦
	المنذر بن محمد	١٠٧
	عبد الله	١٠٧
الدرس الثاني والعشرون	عبد الرحمن الناصر	١٠٨
	الحكم المستنصر	١٠٩
	هشام المؤيد	١١٠
الدرس الثالث والعشرون	محمد المهدي	١١٢
	نهاية الدولة الأموية بالأندلس	١١٣
	ملوك الطوائف	١١٤
	الملثمون	١١٥
الدرس الرابع والعشرون	الموحدون	١١٧
	دولة بني الأحمر	١٢٠
الدرس الخامس والعشرون	عبرة من تاريخ الأندلس	١٢٤

	حال الأندلس في الملك الإسلامي	١٢٦
الدرس السادس والعشرون	الدولة العباسية	١٣٠
	محمد السفاح	١٣٢
	عبد الله المنصور	١٣٤
	محمد المهدي	١٣٨
	موسى الهادي	١٣٩
الدرس السابع والعشرون	هارون الرشيد	١٤٠
	محمد الأمين	١٤٣
	عبد الله المأمون	١٤٤
	محمد المعتصم	١٤٥
الدرس الثامن والعشرون	هارون الواثق	١٤٨
	جعفر المتوكل	١٤٨
	محمد المنتصر	١٥٠
	أحمد المستعين	١٥٠
	محمد المعتز	١٥١
	محمد المهتدي	١٥٢
	أحمد المعتمد	١٥٢
	أحمد المعتضد	١٥٣
	علي المكتفي	١٥٤
	جعفر المقتدر	١٥٤
	محمد القاهر	١٥٥
	أحمد الراضي	١٥٥
	إبراهيم المتقي	١٥٥

	عبد الله المستكفي	١٥٦
	الفضل المطيع	١٥٦
الدرس التاسع والعشرون	عبد الكريم الطائع	١٥٨
	أحمد القادر	١٥٨
	عبد الله القائم	١٥٩
	عبد الله المقتدي	١٦٠
	أحمد المستظهر	١٦٠
	الفضل المسترشد	١٦١
	المنصور الراشد	١٦٢
	محمد المقتفي	١٦٢
	يوسف المستنجد	١٦٢
	الحسن المستضيء	١٦٣
	أحمد الناصر	١٦٣
	محمد الظاهر	١٦٤
الدرس الثلاثون	المستنصر بالله	١٦٥
	المستعصم	١٦٥
	عموميات في الدولة العباسية	١٦٦
الدرس الحادي والثلاثون	الدول والإمارات التي ظهرت زمن العباسيين	١٦٩
	دولة بني بويه	١٧٠
	معز الدول	١٧١
	بختيار	١٧١
	عضد الدولة	١٧٢

	صمصام الدولة	١٧٣
	شرف الدولة	١٧٣
	بهاء الدولة	١٧٤
	سلطان الدولة	١٧٤
	مشرف الدولة	١٧٥
	جلال الدولة	١٧٥
	أبو كاليجار	١٧٦
	خسروفيروز	١٧٦
الدرس الثاني والثلاثون	الدولة السلجوقية	١٧٧
	ألب أرسلان	١٧٨
	ملك شاه	١٧٩
	بركياروق	١٨١
	محمد	١٨٢
	محمود	١٨٢
	مسعود	١٨٣
	ملكشاه	١٨٣
الدرس الثالث والثلاثون	دولة آل سبكتكين	١٨٥
	محمود بن سبكتكين	١٨٦
	محمد بن محمود	١٨٧
	مسعود بن محمود	١٨٧
	مودود بن محمود	١٨٨
	عبد الرشيد بن محمود	١٨٨
	فرخزاد بن مسعود	١٨٨

	إبراهيم بن مسعود	١٨٨
	مسعود بن إبراهيم	١٨٩
	أرسلانشاه	١٨٩
	خسروشاه بن أرسلان	١٨٩
الدرس الرابع والثلاثون	تاريخ مصر	١٩١
الدرس الخامس والثلاثون	الدولة الطولونية	١٩٨
	أحمد بن طولون والقطائع	١٩٨
	خمارويه	٢٠٠
	جيش بن خمارويه	٢٠٢
	هرون بن خمارويه	٢٠٢
	شيبان بن أحمد بن طولون	٢٠٢
الدرس السادس والثلاثون	الدولة الفاطمية والقاهرة	٢٠٥
	العزيز بالله نزار	٢٠٨
	الحاكم بأمر الله منصور	٢٠٨
	الظاهر علي	٢٠٩
	المستنصر بالله معد	٢٠٩
	المستعلي أحمد	٢١١
الدرس السابع والثلاثون	الآمر منصور	٢١٢
	الحافظ عبد المجيد	٢١٣
	الظافر إسماعيل	٢١٣
	الفائز عيسى	٢١٣
	العاضد عبد الله	٢١٤
الدرس الثامن والثلاثون	الدولة الأيوبية	٢١٨

	صلاح الدين يوسف	٢١٨
	العزيز عثمان	٢٢٠
	المنصور محمد	٢٢٠
	العادل أبو بكر	٢٢١
	الكامل محمد	٢٢١
	العادل أبو بكر	٢٢١
	الصالح أيوب	٢٢٢
	المعظم توران شاه	٢٢٢
	شجرة الدر	٢٢٣
	عموميات على الدولة الأيوبية	٢٢٤
الدرس التاسع والثلاثون	دولة المماليك	٢٢٦
	المعز أيبك	٢٢٦
	المنصور علي	٢٢٧
	المظفر قطز	٢٢٧
	الظاهر بيبرس	٢٢٨
	السعيد محمد	٢٢٩
	العادل سلامش	٢٢٩
	المنصور قلاون	٢٣٠
	الأشرف خليل	٢٣٠
	الناصر محمد	٢٣١
	العادل كتبغا	٢٣١
	المنصور لاجين	٢٣١
	المظفر بيبرس	٢٣٢

	أولاد الناصر	٢٣٣
الدرس الأربعون	دولة الشراكسة	٢٣٥
	الظاهر برقوق	٢٣٥
	الناصر فرج	٢٣٥
	المنصور عبد العزيز	٢٣٦
	المؤيد شيخ	٢٣٦
	المظفر أحمد	٢٣٧
	الظاهر ططر	٢٣٧
	الصالح محمد	٢٣٨
	الأشرف برسباي	٢٣٧
	العزيز يوسف	٢٣٨
	الظاهر جقمق	٢٣٨
	المنصور عثمان	٢٣٩
	الأشرف إينال	٢٣٩
	المؤيد أحمد	٢٣٩
	الظاهر خشقدم	٢٤٠
	الظاهر بلباي	٢٤٠
	الظاهر تمربغا	٢٤٠
الدرس الحادي والأربعون	الأشرف قايتباي	٢٤١
	الناصر محمد	٢٤٣
	الظاهر قانصوه	٢٤٤
	الأشرف جنبلاط	٢٤٤
	العادل طومان باي	٢٤٤

	الأشرف قانصوه الغوري	٢٤٥
الدرس الثاني والأربعون	الأشرف طومان باي	٢٤٦
	عموميات على دولة المماليك	٢٤٧
الدرس الثالث والأربعون	مصر تحت حكم الدولة العثمانية	٢٤٩
الدرس الرابع والأربعون	مصر تحت حكم الفرنسيين	٢٥٦
الدرس الخامس والأربعون	مصر في عهد العائلة المحمدية	٢٦٠
	محمد علي باشا	٢٦٠
الدرس السادس والأربعون	إبراهيم باشا	٢٦٧
	عباس باشا الأول	٢٦٧
	محمد سعيد باشا	٢٦٧
	إسماعيل باشا	٢٦٨
	محمد توفيق باشا	٢٦٩
الدرس السابع والأربعون	عباس باشا حلمي الثاني	٢٧٢
الفهارس		٢٧٤